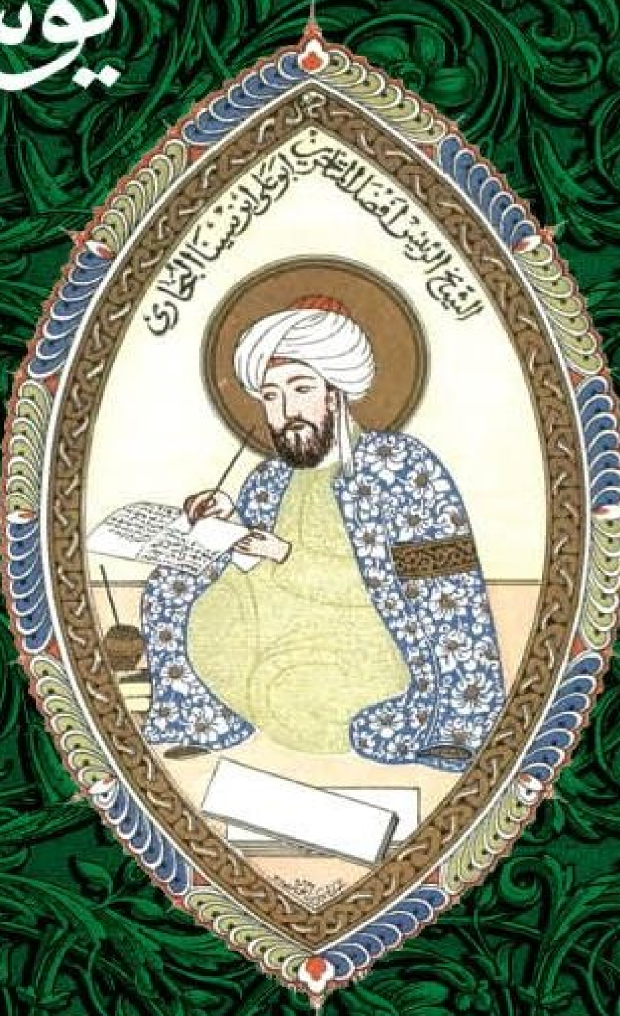
يوسف زيدان



فردقان

اعتقال الشيخ الرئيس

دار الشروق

فردقان

رواية

يوسف زيدان

الطبعـة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
رقـم الإيداع ٢٠١٨/ ١٧٩٣٠
ISBN 978-977-09-3515-6
تصميم الغلاف: هاني صالح ورجائى عبد الله

يوسف زيدان

فردقان

اعتقال الشيخ الرئيس

(رواية)

دار الشروق

.. لمَّا غَلَا ثَمَني، عَدِمْتُ المُشْتَرِي

ابن سينا

بمللٍ، مالت شمسُ النهار الشتوي القصير، متباطئةً، إلى محطِّ مغيبها اليومي.. هبطت إليه متمهِّلةً كأنها تتوقّى ملامسةً مستقرها المحتوم، المحتشد حوله سحابٌ ثقيل يميل أسفله إلى الاسوداد. اقترابُ الغروب وغيابُ النور عن الأنحاء المحيطة، يُسبل عليها غلالاتٍ من الغَبَش المشوب بالغرابة والغموض، فتنفلتُ الخيالات الليلية المليئة بالمبهم والخفيِّ من المخاوف الجالبة للوجل والرهبة، ويهتاج الإحساسُ الطاحنُ باحتمال دنوِّ الأخطار من الأسوار.

هذه النواحي الموحشة الجرداء، جدًّا، ليس فيها على امتداد البصر إلا قلعة «فردقان» القابعة هنا منذ قديم الزمان، وقد توالت عليها السنونُ حتى صارت تبدو للمتأمل فيها، مثل عجوز ثكلى تتكوَّم في سكونٍ، وتظهر للناظر إليها من بعيدٍ وحيدةً. لا شيء حولها إلا أرضٌ يبابٌ بلا مبانٍ أو أشجارٍ أو اخضرار، وهواءٌ باردٌ يصفِّرُ عصفُه فوق قُلل التلال المتناثرات، ويعربد هزيمُه بين سفوح ووهاد مفروشةٍ بالخشن من الرمال، وبالصغار والكبار من الأحجار.. حتى الطيور، نأت عن السُّكنى والتحليق بهذا المكان القاحل، الموحش، متشابه الأنحاء كأنه التيه.

الشمسُ التي أنهكها حجبُ السحب لنورها طيلة النهار، ابتلعتها نقطةُ غيابها فازداد اشتدادُ البرد مع استعداد سلطان الظلام للاستيلاء على المدى. ومع ذلك ظل سيدُ القلعة ورئيسُ عسكرها، الآمرُ «منصور المزدوج» جالسًا بموضعه منذ الظهيرة يترقَّب، ولم يبرح دِكَّته الكبيرة الموضوعة مع الطاولة العتيقة بوسط البسطة الفسيحة، الممتدَّة بين البرجين الأماميين.

للقلعة من الأمام بوابةٌ كبيرة مغلقة منذ زمنٍ، مدفونٌ أسفلها لعتاقة العهد وعدم الاحتياج لفتحها. البوابة سميكةٌ كجدران القلعة وحوائطها الداخلية، وهي مصفحةٌ بمربعاتٍ معدنية ورءوس مسامير كبار، صدِئة، تصدُّ النفس عن النظر إليها. وللقلعة من الجانب الجنوبي، بابٌ جانبيٌّ يُغلق من داخل بمزلاجٍ ضخمٍ ثقيل، وهو من الخارج مكسوٌّ بمعدنٍ مسبوك من النحاس والحديد. هذا البابُ يفتح على الساحة الأمامية للقلعة، ويستعمل وقتما تدعو الحاجة للخروج أو الدخول، وإلى جواره يقف حائطٌ حائلُ اللون فيه بابٌ خشبيٌّ يُفضي إلى الحجرات متفاوتة الحجم، الملتصقة من خارج بجدار القلعة. وهي الحجرات المسماة على سبيل التدليل «دولت كوچك» يعني الدويلة الصغيرة.

يقف على جانبَي البوابة الأمامية، مستحيلة الفتح، برجان عاليان من الأبراج الأربعة للقلعة، كلٌّ منها يرتفع تسع أذرع عن الجدار المرتفع عن الأرض قرابة العشرين ذراعًا.. البرجان شاحبان، ويظهران لمن ينظر نحو القلعة في غبش الشفق والغسق، وعلى ضوء النجوم في حُلكة الليل، مثل قرنَي شيطان.

أما البرجان الخلفيان، فهما أقل ارتفاعًا من هذين، ويشرفان من طرفَي الجدار على الجهتين الجنوبية والشمالية للقلعة المقامة فوق تلة حادة الحواف، زلقة المنحدر. بحيث توحي للقادمين من بعيدٍ، بأنها أعلى وأبهى وأبهم وأرهب.

لا يوجد بالجانب الشمالي للقلعة موضع قَدَم، فالجدار يقف على حافة منحدر التلة الزلق، الهابط إلى الوهدة المحيطة بها، بحدَّة. ومن الجهة الجنوبية، يوجد شريطٌ من الأرض المنبسطة يتسع مدخله لأربعة راجلين، أو لراكبَيْن متجاورين، ويحوطه الحائطُ حائلُ اللون الحاجبُ للرحبة المستطيلة، بكل ما فيها من حجرات «دولت كوچك»

النابتة من جدار القلعة الجنوبي، وهي التي يبيت الآمر منصور «المزدوج» بين زوجتيه وطفلاته الثلاث معظم الليلات. ودويلته الصغيرة هذه، المستطيلة، محدودةٌ من يسار الداخل إليها بجدران القلعة ومن اليمين بمنزلق الوهاد، ولولا ذلك السور القصير الذي أقامه «المزدوج» عند حافة المنحدر، لحاق خطرُ الهلاك أو لحق بطفلاته اللواتي يلعبن تحت أسوار القلعة طيلة النهار، وبالعسس والعيون والمخبرين، الذين يأتون إليه عادةً في عتمة الليل لإبلاغه سرًّا بما يجري بالجهات والنواحي الدانية والقاصية.

***

رويدًا، عمَّ الأنحاء الظلامُ فانعدمت الرؤية، ظل «المزدوج» بموضعه ساكنًا بلا حراك، يحدِّق من علٍ نحو الطريق المتعرِّج النحيل المؤدي إلى قلعته المعزولة، وفي جوف رأسه تدور الوساوس والأفكار بقلقٍ.. بوجلٍ، تقدم إليه واحدٌ من الخدم الواقفين خلفه بخشوع، فأوقد فتيلة القنديل الكبير ثم اقترب من «المزدوج» وسأله هامسًا بلسانٍ يتلعثم إن كان يريد دثارًا، أو شيئًا من الشراب المعين على اتقاء الصقيع المرتقب، أو وجبة العشاء. لم يرد عليه واكتفى بأن أشاح بظاهر كفِّه اليسرى، فتراجع الخادمُ صاغرًا إلى مكانه السابق، يائسًا من النزول عن السطح للاستدفاء. وضمَّ حسرته إلى تحسُّر زميليه، وظلوا جميعًا ناظرين إلى «المزدوج» وهم يرتجفون من خلفه بسبب خفة ملابسهم وبدء اشتداد البرد.. ظلوا على ما هم فيه، حتى نهض المزدوجُ فجأة وصاح بصوته الجهير، سائلًا مراقب البرج إن كان يرى في الأفق قادمين، فأجابه المراقبُ من فوره بما ترجمته:

ـ لا أحد على الطريق يا سيدي.

ـ ألا يوجد في المدى البعيد ضوء مشاعل، أو وميض لهب استغاثة؟

ـ ليس هناك يا سيدي إلا الظلام.

هزَّ المزدوج رأسه الضخم مستغربًا ومتحيِّرًا، وفي تلك اللحظة صعد إلى السطح رئيسُ حرس البوابة «صفوان البرجندي» المعروف بين عسكر القلعة بلقب «الزعَّاق» بسبب علو صوته وكثرة صياحه، وجاء خلفه اثنان من الجند وخادمٌ يحمل قنديلًا يضيء. أبدى بلطفٍ أنه يريد الاطمئنان على رئيسه الجالس منذ ساعات يترقَّب وصول القادمين، وترفَّق في السؤال، فلم يسايره «المزدوج» ولم يجبه أمام الجند والخدم، ومضى متثاقل الخطى نحو الدرج الضيق الهابط من سطح القلعة إلى ساحتها الأمامية.

متأدبًا، سار «الزعاق» خلف المزدوج حتى دخلا حجرته الواسعة، المطلة على الساحة الداخلية عبر شُبَّاكين كبيرين لهما ضلفٌ أربع سميكةٌ، متشقِّقة، لأنها متخذة من أردأ الأخشاب. في الزاوية اليسرى للحجرة دِكَّةٌ عريضةٌ كالسرير، عليها فرشٌ من الصوف الخشن ودثارٌ غير مرتَّب. وفي الزاوية اليمنى صُفَّت كراسي كبارٌ تتسع لعشرةٍ من البدناء، وفي وسط الغرفة طاولةٌ تحوطها أرائكُ ثلاثٌ مستطيلة، وكرسيٌّ كبير.

جلس المزدوجُ على كرسيه مشوَّش الخواطر، فصرف «الزعاق» الجند والخدم، بعدما أمرهم بتعليق القنديلين على المسمارين المعقوفين، وإيقاد نار التدفئة في قطع الخشب التي بالطست النحاسي القديم. ولما خلت عليهما الحجرةُ تلطف الزعاقُ وسأل سيده ثانيةً عن سرِّ انشغاله بأمر السجين المرتقب وصوله، فأجابه بنبرة ضيقٍ قائلًا: هو ليس سجينًا يا صفوان، السجينُ يحكم عليه القاضي بحبسٍ ما فيرسلونه ليقضيه هنا إذا كان شخصًا خطيرًا ويُخشى هربه

من الحبوس العمومية، أما هذا القادم فهو رجلٌ جليل القدر ومشهورٌ كحكيمٍ بارع، وله عند معظم الناس مقامٌ عالٍ، ومعتقلٌ بأمرٍ أميريٍّ لمدةٍ غير معلومة. وهو لم يُحاكم أصلًا، فلا ندري كم سيبقى هنا إذا جاء، وقد أخبروني بأن موعد وصوله ظهر اليوم. لكنه لم يصل إلى الآن كما ترى، ولن يصل الليلة طبعًا.

ـ ربما سيأتي غدًا في الصباح يا سيدي. وربما عدل الأمير «سماء الدولة» أو قائد جيشه «تاج الملك» عن قرار اعتقاله. فدع عنك القلق. وكم حُبس هنا يا سيدي سجناء ومعتقلون، وسارت الأمور كما تحب، فما المختلف هذه المرة؟ أم تراك تهتم بهذا القادم لأنه كان وزيرًا؟

ـ لا مكانة أو اعتبار لوزيرٍ، خُلع بعد حمله الأوزار. ما يقلقني هو أن الرجل، له صلة بالأمير علاء الدولة ابن الكاكويه، حاكم أصفهان. وقد اعتقلوه فجرًا في همذان منذ ثلاثة أيام، وأرسلوه تحت الحراسة إلى هنا، فهل أرسل ابن الكاكويه عسكرًا قطعوا الطريق على الحرس الهمذاني، واستنقذوا «ابن سينا» منهم..

ـ لا أظن ذلك يا سيدي، فإن ابن الكاكويه يستعد الآن لحرب «سماء الدولة» و«تاج الملك». ولن يفكر الآن في شيءٍ كهذا، فقد صار الصدام وشيكًا بين الجيشين.. حسبما بلغني..

ـ صارت تبلغك مؤخرًا أشياء كثيرة يا صفوان!

ـ يا سيدي، الناسُ يتحدثون حولي، فأسمع وأعرف.

ـ لا تتحاذق عليَّ. واعلمْ أن بعض المسموع حين يُعرف، مُهلكٌ. المهم، اذهب الآن وزِدْ عدد حراس البوابة، واجعل على البرجين أفضل الرقباء.. سأبيتُ الليلة هنا، وإن جَدَّ جديدٌ، فأبلغوني.

ـ حاضر يا سيدي.

.. انسكب السكونُ وسال بين ممرات القلعة وحُجراتها والزنازين، فخيَّم صمتٌ تامٌّ كأن الكون نام فوق من فيه، وحول القلعة هبط ظلامٌ ثقيل زاده الزمهرير قتامة. هذا شأن الشمال الفارسي وقِفاره في ليالي الشتاء، وكلما توغلنا شمالًا حيث نواحي الريّ وقزوين وزنجان وتبريز وأردبيل، صارت الليلات الشتوية أشد شراسة ووطأة. حتى إنها تُسقط أحيانًا أطراف المسافرين، إذا لم يحتاطوا ويستدفئوا.

فجأةً، صدحت قبيل انتصاف الليل صيحاتُ الحراس من أعلى برج القلعة، مخبرةً بأن مشاعل عسكر «همذان» تقترب.. فارتدى «المزدوج» على عجل القَبَاء العسكري والزَّرَدَ، ولفَّ على رأسه العمامة فبدا بدنه الضخم، أضخم، وخرج إلى الساحة الأمامية متهيئًا لاستقبال القادمين.

كان «الزعاق» قد أرسل عشرةً من حاملي المشاعل إلى خارج أسوار القلعة، ليصحبوا الحراس السبعة القادمين بالمعتقل المهم، ويدخلوا بهم إلى الساحة الأمامية. جاءوا جميعًا فوق أحصنة، إلا المعتقل الجليل المهان «ابن سينا» الذي جاء راكبًا بغلةً هرمةً، تنوء بحمله هو والمخلاة التي خلفه.. جاء مفكوكَ العمامة، مكشوفَ الرأس، كسيرَ النفس، كسيفَ النظرات، خجلًا من هيئته، ومن السلسلة الصدئة المقيدة لقدميه وكفيه.

وكما هو معتاد، ذهب الحراسُ بعد تسليم السجين والرسالة إلى غرف الاستضافة، الملتصقة من داخلٍ بجدار القلعة. وعلى غير المعتاد، تقدَّم «المزدوج» نحو المعتقل مرحبًا وعلى وجهه شبح ابتسامةٍ، ثم استدار وأشار إلى

«الزعاق» بشيءٍ فهمه من فوره فانصرف عنهم مسرعًا، ومضى هو متباطئ الخطو نحو حجرته فجلس راضيًا على كرسيه الكبير الذي على رأس الطاولة. بعد لحظاتٍ جاء «الزعَّاق» يتبعه المعتقلُ وقد تحرر من الأصفاد، فاستدعى له المزدوجُ بحساءٍ دافئ وخبز، وأخذ يلاحظه حينًا وهو يأكل ببطء. ثم تركه يكمل طعامه وخرج من غرفته بعد أن أمر «الزعَّاق» بزيادة الضوء فيها، بمزيدٍ من القناديل سميكة الفتائل. بعد دقائق معدوداتٍ عاد «المزدوج» فكان ابنُ سينا قد انتهى من طعامه وصار يرى ما حوله بوضوح، وحسرة، فصرف «المزدوج» الزعاق والخادمين وجلس قبالة المعتقل وبدأ معه الحديث بحذر، بالفارسية، وهو ينضو عنه الأقبية والزَّرَد المعدني. قال ما ترجمته:

ـ أخبرني رئيس الحرس الأميري بأن سفركم كان شاقًّا، وبأنه اضطر أمس للسير بكم في دروبٍ غير مطروقة، ليتجنب جماعةً من قُطاع الطرق. وبأنكم تعرضتم الليلة الماضية لهجوم ذئابٍ جائعةٍ لم يردعها عنكم، إلا قتل ثلاثة منها. أراك قد عانيت كثيرًا في رحلتك هذه.

ـ السفرُ قطعةٌ من العذاب. فما بالك بسفر المعتقل، المصفَّد بالسلاسل؟!

ـ لا بأس. ها قد وصلتم بسلام، ولعلك تدرك أن الأمير «سماء الدولة» ووزيره القائد «تاج الملك» لو أرادا هلاكك، لكانا قد أمرا بقتلك في همذان، بدلًا من إرسالك لتُحبس هنا حينًا، ثم تخرج حين يأتي الأوان المناسب.

ـ دُخولِي باليقِينِ كَمَا تَرَاهُ ∴ وكُلُّ الشَّكِّ في أَمْرِ الخُرُوجِ.

ـ أنا لا أتقن اللغة العربية، فدعنا الآن من هذه الأشعار، ولنا في الصباح حديث. ستكون إقامتك بالحجرة المجاورة لحجرتي هذه، فمثلك لا يُحبس في زنازين السرداب.. يا صفوان، خذ الشيخ الرئيس إلى غرفته، واترك معه قنينة النبيذ هذه.

ابتسم ابنُ سينا بخجلٍ حين سمع آمر القلعة الضخم يصفه بلقب «الشيخ الرئيس» وأدرك أن الرجل خطير، ويعرف الكثير، فهذا اللقب الذي يطلقه عليه تلامذته المقربون، متداول فقط فيما بينهم وغير معروف لغيرهم. وكذلك شغفه بالشراب. وهو يفارقه، رمق ابن سينا «المزدوج» بنظرةٍ لا يستطيعها غيره، فيها حسرةٌ وحكمة وامتنانٌ يمازجه الإحساس بالهوان، وفيها اعتدادٌ يداخله ابتئاسٌ وانكسارٌ بسبب ما آل إليه حاله من مآل.. غضَّ المزدوجُ بصره، متجاهلًا ما أفصحت عنه نظرةُ ابن سينا، وابتسم في سره.

***

ذهب «الزعَّاق» والحارسان بابن سينا إلى الحجرة المجاورة، فوجدها باردةً تفوح من حوائطها الرطبة رائحةٌ عطنة، وليس فيها إلا سريرٌ وضعوا عليه مخلاة الكتب والأوراق التي أتى بها معه، وطاولةٌ صغيرة تركوا عليها قنينة الشراب.. بلا داعٍ، زعق «الزعَّاق» في الحارسَيْن فانطلق أحدهما وأحضر طستًا قديمًا فيه جمراتٌ متقدةٌ تشيع الدفء، وذهب الآخر مهرولًا فأحضر قنديلًا يضيء، علَّقه على مشجب الحائط.

بدت الغرفة أفضل حالًا حين تركوه وأغلقوا عليه الباب من الخارج، فأخذ ابن سينا مخلاته ليُخرج على الطاولة ما فيها، وانصدم حين وجد قنينة الحبر قد انثلمت فسال ما فيها وأفسد أطراف الأوراق.. نظر بحسرةٍ وارتجف جفناه وارتعشا، حتى كادت عيناه تدمعان من فرط الأسف، لكنه تماسك وجلس فوق السرير الصغير موليًا ظهره

إلى الحائط، وهو لا يدرى أن المزدوج كان في اللحظة عينها يجلس بوسط سريره الكبير وظهره مستند إلى الحائط ذاته من الناحية الأخرى.

..بقي كلاهما حائرًا مؤرقًا، على الرغم من إنهاك اليوم الطويل، ينظر نحو فتيلة القنديل المعلق ولا يراها. وقبل أن يستسلما للنوم، مضى وقتٌ ظلا خلاله يحدِّقان في فراغهما بعينٍ ذاهلةٍ، وعقلٍ مسلوبٍ سادرٍ في متاهات الذكريات المتشظية. دارت برأس المزدوج مشاهدُ منسيةٌ من رحلته الأولى مع أبيه وأمه، أيام كان طفلًا، فتذكَّر عبورهم الجبال الشواهق عندما نزحوا من قرى «ديار بكر» إلى أطراف «الموصل» وفور وصولهم إليها توفي أبوه وهو يرتعد من عنفوان بُحران الحمَّى. ومرَّت على خاطره صورةُ الرجل ضئيل الحجم الذي تزوَّج أمه، ونظراته الخبيثة وقسوته، والأيام المريرة التي مرضت فيها أمه فلم تجد من يصف لها دواءً، فماتت وقد بلغ بالكاد من عمره الرابعة عشرة. غير أن ضخامة بدنه، كانت آنذاك توحي بأنه في حدود العشرين.

وكان ابن سينا يفكِّر في بؤس حاله الحالي، ورويدًا ساحت خواطره وهامت في آفاقٍ بعيدةٍ، فاستعاد بعد تطوافٍ طويل أيامه الهانئة في بخارى. ومرَّت على خاطره صورة «سندس» وهي متجرِّدة من أرديتها، ومن صوابها، واستعاد كل ما جرى معها وما كان منها فثارت مواجيده، واعتراه الاضطراب الذي يأتيه كلما استعاد تلك الذكريات البعيدة المؤرِّقة، المقلقة.

كان كلاهما معزولًا بذاته عن ذاته وعن الآخر، وغائبًا به عنه، مع أن ما بينهما من مسافةٍ لا يزيد على سمك الحائط الذي يستندان إليه، من الجهتين.. وفي لحظة إشراقٍ مفاجئ مدهشة التزامن، اكتشف كُلٌّ منهما بعد طول تطواف فيما جرى معه من وقائع، أنه سجينٌ وسجَّان في ذات الآن.

***

في اليوم التالي، أوان الظُّهر، طرق الباب على ابن سينا حارسان أدخلا إليه ماءً دافئًا للاستحمام، وملابس، وأخبراه بأن سيدهما «المزدوج» ينتظره بعد ساعة. وبعدما انتهى من استعادة بعض المفقود من ذاته، بالماء الذي منه كلُّ شيءٍ حيٍّ وبالرداء النظيف، ذهب ابن سينا وخلفه الحارسان إلى حجرة «المزدوج» المجاورة.. كلتا الحجرتين ترتفعان عن الأرض بدرجتين من الحجر المحتوت، الحائل لونه، وخلال خطواته القليلة بين الحجرتين، سنحت الفرصة لابن سينا فأجال ناظريه فيما حوله، وتحسَّر لوهلةٍ حين انتبه إلى أنها المرة الثانية التي يدخل فيها قِلاعًا، ولكن شتان ما بين الحال في المرتين. فقد كانت الأولى قبل عشرين عامًا، عندما كان «ابن سينا» شابًّا مرموق المقام ببخارى، ومعدودًا من بين المقربين لحاكمها منصور بن نوح الساماني. أيامها دعاه «بابك» آمر قلعة «بيكند» التابعة لبخارى، لزيارته وقضاء ليلتين في ضيافته، فخرج ابن سينا فجرًا من منزله ومعه ثلاثة من مماليكه فوق ظهور الجياد المعدَّة للأسفار، فقطعوا الطريق الممتد لعشرة فراسخ بين بخارى وبيكند، ووصلوا قبل أن ينقضي النهار. كان أشهى الطعام بانتظار ابن سينا فوق سطح القلعة المشرقة المبهجة، وفي الليل صدحت في بيت «بابك» الموسيقى وتغنَّت الجواري بأجمل الأشعار، فطابت نفسُ ابن سينا بالطرب. وليلتها أُهديت إليه الجارية الآزرية الشهية «بيبي» التي كانت مبهجة الطلة، مشرقة القسمات، متقنة القوام. ومع ذلك لم يُقبل عليها ابن سينا، لأنه كان مصدومًا مما رآه من «سندس» ومتجافيًا عن مضاجع النساء.

عند عتبة حجرة المزدوج استفاق ابنُ سينا من أثر الذكرى وألم المقارنة بين حاله في القلعتين، ودخل فوجد المزدوج جالسًا بالموضع ذاته الذي كان فيه الليلة السابقة وإلى جواره اثنان من أعوانه، والزعَّاق، وأمامهم فوق الطاولة أطباق طعام ساخن وخضراوات طازجة.

هشَّ له المزدوج، ودعا الجميع للأكل بعد أن قال لابن سينا بنبرةٍ متودِّدة إنه طلب أن تكون على المائدة عشبة الهندباء، لأنه يعرف أن «بو علي» رئيس الحكماء، كتب رسالةً في فوائدها.. فابتسم ابن سينا لهذه المجاملة، بوقارٍ ثم قال له متلطِّفًا: واضح أنك تعرف أشياء كثيرة.

بعد الغداء الصامت صرف المزدوجُ معاونيه، ودعا ابن سينا إلى الجلوس على المقاعد العريضة التي بزاوية الحجرة، لإفساح المجال أمام الخادم الذي جاء لرفع الأطباق، ولاحتساء كأسين.. بدا واضحًا أن «المزدوج» يريد أن يتحاور مع معتقله في بعض الأمور، غير أنه أطال التمهيد وتفرَّع في سُبل الكلام، وفي أثنائه وصف ابن سينا مرةً بالوزير المبجَّل، ومرةً بالشيخ الرئيس. وظل يدور بالحديث حول محاور عدة، حتى بادره ابن سينا بقوله المباشر: يا أخي الفاضل، أراك منذ ليلة أمس توحي إليَّ بأنك تعرف عني الكثير، وتغمرني بفضلك، وظاهرٌ أنك تريد مني شيئًا. فلو تفضَّلت بالإفصاح عنه بوضوح، أعدك بأنني لن أتأخر عن بذل ما أستطيعه، وفاءً لكرمك وحُسن وفادتك.

ـ هاهاها، والله إنك يا «بو علي» لمن الأذكياء الماهرين. نعم أريد منك شيئًا وأثق في أنك لن تتأخَّر فيه، لكنني لم أوهمك بمعرفتي أسرارًا تخصك. فمقالتك في الهندباء مشهورة عند الناس ويتناسخها الورّاقون في القرى والمدن، ولقبك الذي تظنه مستورًا بين تلامذتك، شاع على الألسنة وسلَّم به كثيرٌ من العلماء والعارفين؛ لنبوغك منذ صغرك. لكنني أعرف عنك فعلًا أسرارًا مستورة عن معظم الناس، أبلغني بها العسسُ والبصَّاصون. عمومًا، ثق يا حكيم بأنك لست مسجونًا هنا، وإنما مُبعدٌ إلى حين. ولن يتم تقييدك ولا التضييق عليك، شريطة أن تعدني بعدم التفكير في الهرب.

ـ أعدك بذلك، لكنني أرجِّح أن يكون لك مطلبٌ غير ذلك.

ـ كل شيء سيأتي في وقته يا حكيم، ها ها ها، لا داعي للعجلة.

***

اقترب موعد الغروب فاستأذن ابن سينا من المزدوج، وعاد إلى غرفته ليستريح من مشقة سفره بالأمس مصفدًا، ومن أرق ليلته السابقة بسبب تبديل الفراش. وطارد في حجرته النعاس، حتى نعم بخطفات من الوسن، وكذلك استمر به الحال خلال الليلات التاليات، فكان دومًا مؤرقًا.

في الأسبوع الأول، لم يخفف من وطأة الأيام المملة إلا لقاءاتُ ابن سينا و«المزدوج» بحجرة الأخير، خصوصًا في وقت الغداء. وفي تلك الجلسات جرى بينهما خيلُ الكلام في كل مضمار، فارتفع بينهما حاجز الحذر رويدًا حتى صارا يتحدثان كأنهما صاحبان يتحاوران، بل يتسامران.

ربما ليطمئنه، حكى «المزدوج» لابن سينا عن مولده بديار بكر، ثم نزوحه طفلًا مع أسرته إلى الموصل حيث توفي أبوه ولحقت به أمه بعد خمس سنوات، وأعقب ذلك خروجُه وحيدًا من «الموصل» وهو في حدود الخامسة عشرة من عمره. وبطبيعة الحال، لم يذكر أن هروبه من «الموصل» كان في الليلة ذاتها التي قتل فيها زوج أمه الحقير، فقد أراد أن يعبث به عقب وفاتها ويجعل منه مأبونه، فأراحه من خبث مراده بالقتل خنقًا.. وبدلًا من سرد مثل هذه المآسي، وعوضًا عنها، كان المزدوجُ يحكي تفاصيل ارتحالاته وما رآه في البلاد البعيدة، وكان ابن سينا يستمع إليه بشغفٍ لأنه لم يسبق له رؤية تلك النواحي الغربية، ولم يعرف عن تفاصيل الحياة فيها إلا القليل. ولأن طريقة المزدوج في الحكي، كانت شيقةً ومسليةً وممزوجةً بالمازحات والوقائع المضحكة، ولغته ومفرداته الطريفة مزيجًا طريفًا يجمع بين العربية والفارسية والتركية.. وكان مما قصَّه على مسامع ابن سينا، أنه ذهب إلى «بغداد» للعمل مع البنائين، ونظرًا لقوة بدنه وضخامته كان ينجز في اليوم الواحد ما يستطيعه رجلان أو ثلاثة، ويأكل قوت رجلين، فأسموه هناك المزدوج. وأنه كاد يطيب له المقام في الجزء الجنوبي من بغداد، الذي يتحكَّم فيه البويهيون، وبدا له أنه سيقضي هناك بقية عمره. لكنه أراد أن يحترف الجندية، لأنها أجدى لمن كان مثله ضخمًا قويًّا، فترك بغداد.. وبطبيعة الحال، لم يذكر المزدوجُ لابن سينا أنه هجر بغداد لأن رجلًا تعرف عليه هناك وحدَّث الآخرين بما كان قد اقترفه في الموصل من قتل.

لا أحد، حين يحكي، يحكي كل شيء.

من بغداد ذهب المزدوج إلى بلده «تفليس» الشمالية، فلم يجد هناك ما يريد، فنزل منها جنوبًا إلى «تبريز» والنواحي الفارسية حيث انضم، وهو في عمر التاسعة عشرة، إلى الجند والمماليك العاملين في خدمة السادة والأمراء. وهناك اشتهر سريعًا بهذا الاسم العربي «منصور» ولقب «المزدوج» ورفض المقابل الفارسي للكلمة «المثنوي» لأنه وجد اللفظة العربية أقوى وأقرب إلى قلبه، ومبهمة عند العوام من أهل فارس.

ولما سأله ابنُ سينا عما دعاه للاستقرار في خاتمة المطاف بهذه القلعة النائية، أجاب المزدوج بأنه شارك في معارك صغيرة ومهام كثيرة، ثم عاف سفك الدم وأجواء الغدر والمؤامرات، وملَّ من الترحال فانزوى في هذه القلعة، وعمل عدة أعوام معاونًا لآمرها السابق، ولما مات الآمر تولى مكانه.. سأله ابن سينا إن كان قد رُزق عَبَل البدن عن أبيه، أم أمه؟ فأجابه وهو يضحك بأنه ورث ذلك عنهما معًا فكلاهما كان ضخمًا، وقد كانت أمه ابنة عم لأبيه، وأضاف باسمًا بأنه لو كان هو الآخر قد تزوج من ابنة عم له، لأنجبا أطفالًا من العماليق. هاهاها. وبعد مجيئه إلى

«فردقان» تزوَّج بامرأتين، لأنه مزدوج، ولأن زوجته الأولى الطيبة ذات الأصول الكردية لم تنجب إلا البنات، وهو يتمنى أن تكون زوجته الصغرى، فارسية الأصل، لا تنجب إلا البنين.. وختم كلامه الممزوج بضحكاته، بأنه قابع هنا منذ ثمانية أعوام، وقانعٌ بعمله كمسئول عن القلعة وأمور العسس والبصاصين الذين يأتون بالأخبار من الأماكن البعيدة والنواحي المحيطة. قال: تحت إمرتي اليوم بهذه القلعة قرابة مائة وخمسين، وفيهم مرضى كثيرون، ولا طبيب هنا ليدِّبرهم ويعالج أمراضهم التي استعصت، خصوصًا القولنج والزحير. فلو قمت بذلك أثناء إقامتك هنا، وأنت الحكيم البارع، فهذا فضلٌ منك وثواب لك في الآخرة عظيم.

ـ هذا مطلب لا مهرب منه، ولا يسعني التواني عن تلبيته، لكنني سأحتاج أدوية وأعشابًا وعقاقير.

ـ ليس في العسير توفير ذلك، وسأطلب من «شيخ الرُّستاق» المساعدة، وهو لن يتأخر.

ـ ومن هو شيخ الرُّستاق؟

ـ هذا الرُّستاقُ هو أقرب الرساتيق إلى القلعة، ويقع ناحية الشمال الغربي. وهو كبقية الرساتيق، عبارة عن سلسلة من القرى الصغيرة المتقاربة، المتناثرة هناك بين التلال العالية والجبال. عددها اليوم أربع وعشرون قرية. وهذا الرجل كالأمير المتولي الأمور، أو بالأحرى هو كبيرُ سكان القرى، وصاحب الكلمة النافذة فيهم. هو شيخ حكيم، ويقرأ في الكتب. اسمه «أبو الزهير». سأرسل غدًا لأدعوه للزيارة، وجلب الأدوية. وهو على كل حالٍ معتاد على التردد علينا، وحريصٌ على التودد إلينا. لاشتراك المصالح بيننا، وتشابكها.

ـ إذن، نأمل خيرًا. ولا أدري إن كان يجوز لي التماس طلب آخر مهم، فإنني لا أنقطع عن التأليف، وأحتاج دواة وكاغدًا من الورق. السمرقندي إن أمكن. وسراجًا لأكتب على ضوئه في تلك الليالي الطويلات، التي لا يعلم إلا الله متى سوف تنتهي.

ـ توقعتُ طلبك هذا وستجد مطلوبك هذا حاضرًا، اليوم أو غدًا، فقد أرسلتُ أول أمس من يأتي به. فقد قدَّرتُ احتياجك له، لمعرفتي بأنك تحب الكتابة، وأنك أثناء اختبائك بمنزل «أبي غالب العطار» بهمذان، كنت تؤلف كتابًا كبيرًا ولم تتمه بعد.

ـ وكيف عرفت بذلك.. أتراك أنت الذي دللت على مخبئي؟

ـ لا يا حكيم، الوشاة هناك هم الذين فعلوا ذلك. أنا لم يسألني أحدٌ لأخبره، ولو كان الأمير «سماء الدولة» أو القائد «تاج الملك» قد استخبرا مني عن موضع اختبائك لأخبرتهما. فهذا عملي. لكنهما لم يسألاني، فلم أبادر بالإخبار. وأنت يا حكيم، لا تتقن التواري عن الأنظار، ها ها. تلامذتك كانوا يترددون عليك منذ اليوم الثالث، ويجالسونك بمقر إقامتك الذي كنت تظنه مخبأً.. لكنني استغربت عنوان الكتاب الذي أخبرني الجواسيس بأنك كنت تؤلفه هناك، أهو حقًّا: الشفاء في الحكمة والإلهيات.

ـ نعم، وهناك كتابٌ آخر في الطب، كبير، لم أكمله بعد.

ـ أمرك عجيب يا حكيم، تسمِّي كتابك في الإلهيات والحكمة «الشفاء» فبأي عنوانٍ سوف تسمي الكتاب الكبير في الطب!

ـ لم أستقر بعد على عنوانٍ له. ولا أرى غرابة في عنوان «الشفاء» فالحكمة والعلم الإلهي والفلسفة، شفاءٌ للنفوس.

أشرق قلب ابن سينا وابتهجت روحه حين عاد لحجرته في اليوم التالي، بعد جلسة الغداء مع المزدوج، فوجد بوسط الطاولة الصغيرة محبرةً كبيرة ورزمةً من الورق والأقلام، وقنديلًا جديدًا بجواره إناء نحاسي قديم فيه رغيفٌ بخاريٌّ وقطعة جُبن.. وازداد بقلبه الابتهاجُ والإشراق حين تحسَّس الكاغد، فوجده من الورق السمرقندي بديع الصنع، ورفع ورقة منها فرأى بداخلها العلامات المائية الدالة على الجودة. ثم اختبر الحبر فكان من النوع النباتي الجيد الذي يدوم اسوداده ناصعًا، ولا تتقصَّف بسببه الأوراق مثلما يحدث مع الأحبار المعدنية.. لحظتها أحسَّ ابن سينا بالراحة وشعر بشيءٍ من الحرية، وكاد يشكر الله في سرِّه لولا أن الحارس أخرجه من البسط إلى القبض، بقوله: سوف أوقد لك القنديلين قبل إغلاق الباب، كيلا تبقى محبوسًا في الظلام، فالآمر منصور أمر بذلك.

تحدَّث إليه الحارس بشيءٍ من الشفقة، المؤلمة، فهزَّ له ابن سينا رأسه مستسلمًا بما يفيد الموافقة، فتقدم وأشعل فتيلة القنديل المعلق على الحائط ثم الآخر الكبير الذي فوق الطاولة، وخرج.. صريرُ المزلاج المعدني، أشاع القشعريرة في بدن ابن سينا عندما انغلق عليه الباب من خارج، فتأسَّى بأن همس لنفسه من دون صوت: مالهم يحتاطون ولا سبيل أمامي للهروب، وليست لديَّ نيةُ الفرار، وكيف أفرُّ من هنا، وإلى أين سأمضي في تلك الفيافي والقفار الممتدة لمئات الفراسخ. سوف أخايل نفسي بأنني لستُ حبيسًا، مادامت معي أدوات الكتابة. لكنني على كل حالٍ سجين، اعترفت بذلك أم أنكرته، ولا شيء بيدي الآن إلا الصبر حتى تنكشف عني هذه الغمَّة.. أقدارك محيرة يا مبدع الكون. لماذا خلقتني في هذا الزمان الرديء؟ ولماذا تعذِّب ما صنعته وأسبغت عليه صنائعك، خلقته بحكمتك وسويته بيدك ونفخت فيه من روحك، ثم تتركه في هذا الهوان وهذه الأهوال.. لماذا؟!

سكن ابن سينا على كرسيه لحظاتٍ، ثم قام متثاقلًا ليصلي فلم يستطع. فاستلقى على السرير عساه ينجو من الهمِّ بالنوم، ويخلِّصه النعاس من تماوج الأسى والحسرة على مرآته الثكلى. وبعد هنيهةٍ راح في نومٍ عميقٍ مكث فيه طويلًا على غير عادته، فلم يصحُ ويفارق مرقده إلا عندما تسلل إلى سمعه صوتُ المؤذن الأجشّ، الداعي لصلاة الفجر.. توضأ بقدرٍ من الماء يسيرٍ وأسرع في الصلاة، ثم وقف قبالة الكوَّة الضيقة يحملق مدهوشًا في انسحاب الاسوداد من السماء الغائمة، وسكن في وقفته مثلما كان يفعل في سنوات طفولته ببخارى، وفي رأسه تدور أفكارٌ متسارعة وتتدفَّق عباراتٌ تريد أن تُكتب.. أطال الوقوف حتى كثرت الأصوات في ساحة القلعة، وكان أنكرها صوت «الزعاق» الذي لا يفترَّ عن الأمر والنهي وسبِّ الخدم وشتم العساكر، فجلس ابن سينا إلى الطاولة وتهيأ للكتابة.

لم يكتب في ذاك الصباح شيئًا، لازدحام ذهنه واحتشاد خواطره وتردُّده بين تأليف قصيدة يجعلها على قافية قصيدته العينية في النفس، ويكون عنوانها: شجون المسجون. أم ينظم في الطب والتداوي أرجوزة ألفية يعتمد فيها على ما يحفظه، ويستهلها بهذين البيتين: يقول راجى عفو ربه ابن سينا/ ولم يزل بالله مستعينا/ يا سائلي عن صحة الأجساد/ اسمع صحيح الطب بالإسناد. أم يستكمل مسودات كتاب «الشفاء» بكتابة فصل في المنطق؟

ظهرًا، عندما دق عليه الحارسُ الباب وفتحه ليضع له على الطاولة طعام الغداء، كان ابن سينا شارد اللب

كالمأخوذ، وكانت عواصف الأفكار لا تزال تدور برأسه، فتديره كأنها كئوس الشراب المعتق. حرَّك في المكان نظراته الحيرى حتى خرج الحارسُ وأغلق عليه الباب، فأخذ ينظر إلى الطعام بعينٍ ترنو إلى الماوراء، ثم جلس بغتةً وأزاح الأطباق برفق، وهمَّةٍ، وفي الدواة غمس القلم ثم فرد الكاغد وكتب عليه بأول سطر: إنه قد تيسَّر لي، حين مُقامي ببلاد...

ـ يا سيدي الوزير، الآمر منصور يريد رؤيتك، فهيّا لنذهب إليه..

زعق «الزعاق» بذلك من خلف الباب، وهو يدق عليه، فتقطعت خيوط الأفكار في رأس ابن سينا وكف عن الكتابة وتهيأ للخروج. في طريقه من الدِّكَّة إلى الباب الذي فُتح عليه، لمس بأطراف أنامله خشونة الجدران الرطبة وهو يفكر في أمر «الآمر» الغريب الذي يعرف الكثير، ولم يفصح بعد عن كل ما يعرفه.. في ساحة القلعة، حيث ضوء الظهيرة باهرٌ للعين، وبرد الهواء لاسعٌ، كان المزدوج واقفًا مثل البرج وحوله اثنان من قصار عساكره، خلفهم من الخدم ثلاثة. وحين رأى ابن سينا مقبلًا نحوه بادره بالسلام والابتسام وسار به خطواتٍ حتى دخلا الحجرة الخالية المقابلة لحجرة محبسه، وأخبره بأنها حين تتوفر الأدوية ستكون محل لقائه بالمرضى من جند القلعة وخدامها. وأردف بصوت أخفض، إن هذه الحجرة لن تغلق من خارج. ثم ضحك وهو يقول لابن سينا محذرًا: ولكن لا تفكر يا حكيم في الهروب من هنا، فالنواحي المحيطة بالقلعة مهلكة وكلابُ المطاردة عندنا متوحشةٌ كالذئاب، ها ها ها، ويعلم الله أنني لا أريد أن يلحق بك أي مكروه.

ـ لن تجد مني أبدًا ما يسوؤك. وليس للإحسان جزاءٌ إلا الإحسان، وقد تقدم إحسانك وفضلك.

ـ عظيم، عظيم. والآن، اجلس هنا مستريحًا وسأرسل إليك المحتاجين إلى التدبير الطبي والمعالجات، لتشخيص أمراضهم ريثما تتوفر الأدوية.

***

توهَّم ابنُ سينا أن يومين بطولهما سيكفيانه لفحص المرضى من أهل القلعة. لكنه احتاج أكثر من عشرة أيام. وفور فراغه من تلك المهمة المجهدة، المملة، أرسل خادمًا ليخبر آمر القلعة «المزدوج» بأنه يود الالتقاء به. وكان الرجل كريم الطبع فأسرع بالمجيء وطلب من أحد معاونيه أن يأتي إليهما بوجبة الغداء، عقب الانتهاء من صلاة الظهر. وحين دخل عليه من الباب المفتوح، تهلل ابن سينا ورحَّب بالمزدوج معربًا عن سعادته لإسراعه بالمجيء، فردَّ عليه: وهل أقل من ذا، بعد كل ما رأيته من تعبك الأيام الماضية؟ والعجيب أنك في جوف الليالي لم تكن تنام إلا قليلًا، وكنت تكتب.. اندهش ابن سينا من كلامه، وسأله: وكيف علمت بذلك وبابي مغلق، أهناك من يتجسَّس عليَّ؟

ـ عرفتُ من خيط ضوء السراج البادي من تحت الباب، لا أحد يا حكيم يتجسَّس عليك هنا..

كان ذلك في اليوم الخامس عشر من أيام اعتقال ابن سينا، الشيخ الرئيس، الذي أنسته الممارسة الطبية أنه بهذه القلعة معتقلٌ. فانهمك نهارًا في فحص الأبدان، وليلًا في تسويد ثم تبييض «مقالة في القولنج».. سأله المزدوجُ: أخبرني عن أحوال الرجال؟ فأجابه وهو يتناول من فوق الطاولة ورقة، قال وهو ينظر فيها:

ـ جملة الذين فحصت أحوالهم من رجالك، أربعة وعشرون ومائة، وأخبروني بأن هناك ثلاثين غيرهم لم أرهم،

لأنهم لا يشتكون من شيء، ولا يحبون الأطباء. هه. وقد وجدت فيمن فحصتهم ثمانيةً وسبعين من الأصحاء الذين لا يحتاجون من الطب، إلا الأمور العامة واجبة المراعاة لحفظ حال الصحة. مثل المواظبة على الاستحمام، وتعريض فراشهم للشمس، وتنويع الطعام. ووجدتُ خمسةً يعانون من أمراض حادة، ولا بد من المبادرة إلى علاجهم لأن الإهمال قتّال في حالتهم، وفيهم خادمٌ أشيب اسمه «محمود النهاوندي» قد اجتمعت عليه علّتان، وعلاجه عسرٌ، وما وجدته بمخزن المؤن من المفردات الدوائية رديءٌ، ومعظمه فسد بسبب سوء الحفظ، بحيث لا يؤمَن استعماله في المعالجات.

ـ قريبًا ستأتيك الأدوية والعقاقير، فقد عاد «أبو الزهير» أمس إلى منزله بالرستاق وتسلَّم رسالتي، فوعد بالوفاء بالمطلوب. وهو رجل يُوثق بوعده. ولولا غيابه أيامًا للتعزية في «نيسابور» لكان ما نريده من صنوف الأدوية حاضرًا منذ أيام. وقد أخبرني مرسالي إلى أبي الزهير، بأن الرجل يحب أن يراك ويود أن يهديك شيئًا تحبه.

ـ تعزية.. هل مات أحدٌ من أعلام الرجال في نيسابور؟

ـ نعم. أبو عبد الرحمن السُّلَمي، المقرئ المتصوف. هل تعرفه؟

ـ سمعتُ به، عليه رحمة البارئ ورضوانه، وقد رأيتُ كراريس من تفسيره للقرآن الذي أسماه «الحقائق» وقرأت كتابه في سير الصوفية.. لكن هذا الرجل كان يسكن بمدينة البصرة، بجنوب العراق!

ـ نعم، ومات هناك ودُفن قبل أيام. لكن أسرته وقومه أقاموا له في دياره الأولى عزاءً آخر، اعتزازًا بسيرته، ولشهرته بين الناس بالصلاح والعلم. المهم، وكيف وجدت بقية رجالي؟

لمح ابن سينا ما كتبه بالورقة، ثم استكمل كلامه السابق فذكر للمزدوج أنه وجد في رجاله جماعةً، أكثرهم من الخدم، أبدانهم معتلَّة ببثور النملة الجاورسية والشَّرَى والخُراجات والنُّفاطات. وهؤلاء بادر فورًا باستفراغهم بالفصد، وسوف يكمل لهم العلاج بالبطِّ عندما تصل الأعشاب الطبية، اللازمة لعمل المطهرات والأطلية والمراهم. ووجد رجلين مصابين بورم الغدد التي خلف الأذن، وهي الأورام التي يسميها الأطباء «فوجثلا» وقد دبَّرهم مؤقتًا بالتدبير السابق، إلى حين توفر الأدوية النافعة لهم. وجماعة أكبر عددًا، وجدهم يعانون القولنج البارد وما يلحق به من الزحير واحتباس الطبيعة والقراقر.

قطع المزدوج استرسال ابن سينا، بسؤاله عن سبب إصابة كثيرين بهذا المرض المؤلم، الذي يعانى منه هو شخصيًّا. قال حانقًا: لماذا يلاحقنا هذا المرض المريع، لعنه الله؟ في تلك اللحظة جاء الخدمُ بطعام الغداء ووضعوه أمامهما على الطاولة، فابتسم ابنُ سينا وهو يشير للأطباق الثلاثة قاصدًا ما فيها من طبيخ: هذا جوابك قد حضر في وقته.. فتطلع إليه المزدوجُ مستغربًا ما سمعه، وقال: كيف، هذا والله أطيب طعام في نواحينا هذه، فما العيب فيه؟

أفهمه ابن سينا برفق، أن المعجَّنات والمطجَّنات من المطبوخات، وكذلك معظم الأغذية شديدة الدسومة مثل هذه «الإسفيذباجات» والبقول المطبوخة معها. كلها مما يعسر هضمه، ويكثر نفخه للقولون وللمعى الدقاق.. ثم وتمهَّل وهو يضيف: وكذلك هذه «الكواميخ» اللاذعة، وتلك «المضيرة» بما فيها من اللحم السمين واللبن، كل هذا مضرٌّ جدًّا بالمعى وبالقولون، وبالتالي فهو رديء لأصحاب القولنج.

كان المزدوجُ يستمع لابن سينا ويومئ برأسه وهو يأكل بشهيةٍ شتويةٍ لقماته الكبيرات، وكأن كلام الشيخ الرئيس هو همسُ منفردٍ في قاع بئر سحيقة. وأدرك بذكائه الفطري ما يدور برأس ابن سينا، فقال وهو يضحك: يا حكيم الزمان، دعنا الآن نلبي الاشتهاء لهذا الغداء الشهي وفيما بعد نبدأ في العلاج، عندما يأتي الدواء. ها ها ها. ولكل داء دواء، تفضَّل. إسفيذباجة اللوبياء هذه لذيذة المذاق جدًّا. تفضل..

بتمهلٍ يلائم طبيبًا يعاني هو الآخر من القولنج، أكل ابن سينا على هونٍ لقيمات يقمن بالكاد الأود، تجنبًا لما يعرفه من النتائج ومسايرةً لمضيفه النهم الذي يلتهم ما أمامه، كأنه ذاهب في الغد لساحات القتال. وبعدما انتهيا، قام المزدوجُ فتمطَّى ثم فتح باب الحجرة ومال للأمام برأسه ليصيح في الخدم كي يسرعوا بإحضار «الفالوذج» وما يجدونه حاضرًا من حلو الفواكه.. وأضاف: وقنينة الشراب.

***

الغرفة فاحت أجواؤها برائحة الطبيخ الذي بقيت منه في الأطباق مقادير، يحوطها فتاتُ الخبز الذي تناثر من بين أصابع المزدوج. ابن سينا لا يحب هذه الرائحة، بل هو يعافها منذ صغره. لكنه لم يُظهر ذلك، وتمنى أن يسرع الخدم بالشراب والفاكهة فيرفعوا ما تبقى على المائدة فتذهب رائحته، أو يدعوه المزدوج إلى الخروج للساحة حيث الهواء النقي.. سرح لحظةً مع خواطره، فأخذته إلى زمن طفولته وتذكر ضيقه من رائحة الأرز البخاري، بالغ الدسومة، الذي كانت أمه تداوم على طبخه مخلوطًا بلحم الضأن والطازج من الخضراوات. كانت رائحته مقبولة عند الجوع وقبل الأكل، أما بعده وعند الشبع، فهي مما لا يطاق. لأنها تُشعره بضيق الصدر وما يشبه الاختناق. وكان كلما أخبر أمه بذلك، لا تهتم، وتعد كلامه تدلُّلًا. وكان أبوه يضحك من تبرُّمه، ويكرِّر عليه قوله إن هذا دليلٌ على أن الروائح، تُدرك بأشكالٍ مختلفةٍ، بحسب حال من يشم!.. أبوه كان رجلًا أفغانيًّا نحيلًا، حاد الملامح، لكنه طيبُ القلب شديدُ الذكاء محبٌّ لمطالعة الكتب. تعلم منذ صغره، وحصَّل المعارف الشرعية النقلية وبعض العقلية، وكان شديد الاعتزاز بنفسه وبمذهبه الإسماعيلي. رحل من بلدته الأولى «بلخ» وهو في حدود العشرين من عمره، طلبًا للرزق وأملًا في الحصول على وظيفة ديوانية تضمن له جريان الراتب، فوجدها في قرية كبيرة قريبة من «بخارى» اسمها «خرمثين» فصار هناك من العمال التابعين لديوان السلطان نوح الثانى بن منصور، الساماني، الذي ظلت النواحي مستقرة تحت سلطانه حتى وفاته. لكن ابنه «منصور بن نوح الساماني» فشل في الحفاظ على مملكة أبيه وأجداده، وفقد إرثهم. إذ ثار عليه العسكرُ فاستعان بمملوكهم السابق «سُبُك تكين» الذي كان آنذاك قد صار حاكمًا لناحية «غزنين» الأفغانية، التي يسميها الناسُ اليوم غزنة. وبدلًا من نصرة المستجير به، استولى محمود بن سُبُك تكين على السلطة وأزال دولة السامانيين، وحلَّ محلهم، وأعطى لنفسه لقب: سلطان بخارى ونيسابور وخوارزم.. ثم اتجه نحو الهند غازيًا، وسمى نفسه: ناصر السُّنة وقامع البدعة.

وفي زمن استقرار دولة السامانيين، كان «عبد الله بن سينا» مسئولًا عن إحصاء التركات وتسجيلها في الدفاتر، وضبط أمور الخراج على المسلمين، والجزية على النصارى والصابئة واليهود. وكان عمله هذا يقتضي الطواف أحيانًا على القرى الصغيرة المحيطة ببخارى. وفي قرية اسمها «أفشنة» رأى الفتاة اليتيمة التي اسمها «ستاره» وهي كلمة فارسية تعني «النجمة» فتزوجها وأنجبت له اثنين من الذكور. فأعطاهما اسمين يشيران من بعيد إلى عقيدته الشيعية

الإسماعيلية «الحسين، وعليّ» تيمنًا بسبط النبي من ابنته فاطمة، وأبيه الإمام عليّ.. كان زمان السامانيين يسمح بذلك، ولا أحد يجد فيه غضاضةً أو خطرًا، مثلما صار الحالُ بعد سلطنة محمود الغزنوي واستيلائه على النواحي.

أما أمُّ الشيخ الرئيس «ستاره» فكانت امرأة خوارزمية متينة البنيان، مثل معظم الريفيات، وكانت مليحة الملامح قوية القسمات. وقد ورث عنها عينيها الواسعتين، وحاجبيها العريضين العاليين اللذين يوحيان بالاندهاش، وشعرها الأسود الكثيف، ورقَّة القلب العطوف على الفقراء. ومن أبيه ورث أنفه الأقنى، والصلابة، والصبر على الشدائد. والشغف بالكتب. أمه لم تكن تقرأ، فكانت تفهم ما حولها بقلبها الذي انقبض عندما انتقلت الأسرة من قريتها الهادئة، إلى بلدة «بخارى» قصبة الإقليم وعاصمته، إذ تخلَّى زوجها هناك عن الحذر الواجب المسمى «التقية» وجهر بمذهبه الشيعي، بل صادق الداعي الإسماعيلي، وصار يدعوه كثيرًا للمنزل الذي كانوا يسكنونه ببخارى.. كان أبوه يأمل أن يصير من دعاة الشيعة الإسماعيلية الذين نجحوا في حكم مصر، إذ دخلها «المعز لدين الله» باعتباره الخليفة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة للهجرة، قبل ثماني سنوات من ميلاد ابن سينا.

ومثلما كان أبو «ابن سينا» إسماعيليًّا صريح التشيع، سوف يكون أخوه «عليّ». أما أمه فهي مثل معظم الناس في بخارى وما حولها، على مذهب أهل السنة. وكانوا في فروع الفقه إما شافعية وإما أحناف، وفي أصول الدين وعلم الكلام إما معتزلة وإما أشاعرة. لكن هذه المرأة الطيبة ما كانت تعرف معنى المذهب أو الفقه أو علم الكلام، وكان زوجها يحدثها كثيرًا في تلك الأمور التي كان يهتم بها، وهي لا تكترث، بل تملُّ من كلامه وتنهيه بعبارتها المعتادة: المهم أننا جميعًا مسلمون، الحمد لله.. وحين سقطت دولة السامانيين المتسامحة مذهبيًّا، عقب استيلاء سيوف «ابن سُبُك تكين» على الأنحاء، اضطربت الأحوال وتبدَّلت، ولم تعد لأسرة ابن سينا المكانة التي كانت لها. ومات أبوه وهو في سن الثانية والعشرين، سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وهي السنة التي ذهب فيها محمود بن سُبُك تكين لغزو الهند..

ـ أراك شارد اللب يا حكيم!

ـ آه.. نعم.. عفوًا أخي منصور، ربما ذكرني طعامك الشهي هذا بالأرز البخاري الذي كانت أمي تطبخه لنا أيام صباي، فالشبيه يستدعي الشبيه.

ـ إذن، فليكن غداؤنا في الغد هو الأرز البخارى، وسوف...

ـ لا، مهلًا. يجب علينا من الغد البدء في التدبير الغذائي الواجب لك، فالأطعمة والأشربة نصف العلاج.

ـ هاها، لقد سمعتك تقول وأنت تفحص الرجال إن التشخيص ومعرفة العلة هما نصف العلاج، وما دام الطعام هو النصف الآخر، فما حاجتنا إلى الدواء! هاها ها.. أين الفالوذج؟

***

دخل عليهما خادمان رفعا من فوق الطاولة الأطباق الفواحة، ووضعا مكانها قدحين من الخزف المزخرفة حوافه، فيهما «الفالوذج» البراق ماؤه العسلي الرقراق، المطيَّب بماء الورد. وبوسط الطاولة وضعا طبقًا كبيرًا فيه رمانٌ حلو، وعناقيد كبار من عنبٍ لونه قانٍ وحباته لامعة. من أين تأتيهم هذه الطيبات. ثم خرج الخادمان الصامتان، وعادا

ليضعا على الطاولة القنينة والكأسين.. كان ابن سينا يسمع في طفولته القروية عن الفالوذج، ولا يراه، ولما انتقل في صباه مع أسرته من قرية «أفشنة» الفقيرة إلى بلدة «بخارى» العامرة، حضر مع أبيه ولائم، فتذوقه هناك واستطابه. وفي زمن وزارته الأولى، كان ببيته الهمذاني مملوكٌ يجيد صنعه ويداوم على عمله كل أسبوع، فيتناول منه بعد الوجبات مقدارًا. لكنه في السنوات الأخيرة صار يتوقاه، لأنه مع فوائده وحلاوته الجلاءة للصدر عسرُ الانهضام، وقد يهيِّج أوجاع القولنج.. لمح «المزدوج» نظرة ابن سينا إلى القدحين، وقرأ ما فيها من اشتهاءٍ وتوقٍ وتوقٍّ، فقال مشجعًا إياه على تناول الفالوذج: هذا مقدار قليل، نافع، فعليك الآن بقدحك قبل احتساء نبيذ الفانيد، فإن هذا لن يصلح بعد ذاك.

«نعم، كلامك صحيح».. قال ابن سينا ذلك وهو يمسك بيسراه القدح ويضع فيه الملعقة بيمناه، ثم يدسها في فِيهِ ملتذًّا. ضحك المزدوجُ وهو يقول ممازحًا، إن رجلًا من بدو العرب الأجلاف ذاق «الفالوذج» لأول مرة، فانبهر بطعمه اللذيذ وأراد أن يلتهم منه طبقًا كبيرًا، فحذَّروه من ذلك بقولهم إن الجائع إذا شبع من الفالوذج، مات! فتردد الرجل لحظة، ثم أقبل على الطبق بنهم وهو يقول: أوصيكم خيرًا بأولادي.. ولما التهم كل ما فيه وهو يبتهج، قالوا له: قد حذرناك! فقال: كذبتم، حين نزحت من البادية إلى الحضر سكنتُ قرب المقابر سنوات، فما سمعت يومًا بميتٍ أهلكه الفالوذج.

عاد الخادمان يحملان جمرًا يتقد في طستٍ نحاسي قديم، فشاع الدفء في الغرفة، والرضا في قلب الجالسَيْن المتسامرَيْن الذين نسيا مع المؤانسة أنهما حابسٌ ومحبوس.. كانت المرة الأولى التي تطيب فيها نفسُ ابن سينا، ويشعر بالرضا، منذ يوم اعتقاله.

خلال هذه الجلسة تحادثا بمودةٍ، حتى انتصف الليل وثقل رأس المزدوج واحمرت عيناه. وكان مما تكلَّما فيه سؤال ابن سينا عن ذلك الرجل المسمى «شيخ الرستاق» ومن أين سيأتي بالأدوية المطلوبة؟ فأجابه المزدوجُ بأن هذا الرجل لا يعجزه شيء، وهو من خيرة الناس بتلك الناحية. يتودَّد إلى الجميع ولا يعادي أحدًا، بل ولا يعاتب، فأحبه أهل القرى وارتضوا بكلامه فيهم. ورضي عنه الحكام وفوَّضوه في حل الخلافات التي تنشب بين سكان القرى، حاشا حوادث القتل، وهي نادرة الوقوع. وهو يتوسط بين الجُبَاة والناس في أمور المكوس والخراج والجزية، ويُقرض المحتاج من دون ربا. هو ميسور الحال ومعدود من كبار الأثرياء، ولديه بساتين مثمرة وتجارات رائجة.. سأله ابن سينا عن عمر الرجل، فأجابه: هو شيخ نيَّف عمره على السبعين سنة، لكنه صحيح البدن ونشيط كالشبان. وسيكون غالبًا من المعمرين، فأبوه تُوفي صحيح البدن وقد تعدَّى عمره التسعين عامًا، ويقال إن جده لأبيه مات بعدما تجاوز المائة بأعوامٍ.. الأعمار لا ضابط لها يا حكيم، أليس كذلك؟

ـ بلى، لكن الصحة لها ضوابط كثيرة. منها عدم الإفراط في الأكل، خصوصًا ما كان منه شديد الدسومة، ومنها أيضًا عدم الإفراط في الشراب.

ـ هاهاها. والله إنك لمن ألطف الحكماء، فإشاراتك كلها ذكاء. وأراك تقلق عليَّ، لأنني أخبرتك بمعاناتي لأوجاع القولنج.

ـ هذا صحيح. وأنا أعرف مقدار وجعه المفرط، فقد صرت مؤخرًا أعاني منه.

ـ لعنة الله عليه. هذا فعلًا مرض وقح، لا يتورع عن إصابة رئيس الأطباء. أخبرني يا «بوعليّ» بسرِّ هذا المرض الوضيع، ومن أين يأتي، وكيف يكون علاجه؟ وهل له صلة بأنني نهمٌ، وشديدُ الاشتهاء للشهي من الطعام؟

بأيسر المفردات وألطفها، أفهمه ابن سينا أنه لا غضاضة في شهيته هذه، مع ضخامة بدنه. فالجسم يحتاج من الطعام والشراب، ما يتناسب مع حجمه ويكفي للقيام بمئونته. فلا بأس في قوة الشهية مع عَبَل البدن، إلا في حالة الاختلال المرضى المسماة باليونانية «بوليموس»... قاطعه المزدوج ممازحًا بقوله: بوليموس ابن بطليموس!

لم يسايره ابن سينا في المزاح واستكمل كلامه بجدية، كأنه بالمجلس يلقي على تلامذته درسًا. قال شارحًا: هو مرضٌ يسميه معظم الأطباء «الجوع الكلبي» وبعضهم يسمونه «البقري» وفيه يتناول المريض ما لا يقدر بدنه على

القيام بهضمه، فيضطره ذلك إلى القيء المستمر. ثم تبطل شهوة الطعام وتسقط، لشعور المعدة كذبًا بالشبع، مع جوع الأعضاء وافتقارها إلى الغذاء، وقد يؤدي ذلك بالمريض إلى الإغماء والغشى. أما القولنج يا أخي منصور، فهو ألم معوي يعسر معه خروج ما يخرج من الثُّفل، فيعاني المريض من الإمساك. وإذا كان سببه في المعى الدقاق فهو المعروف عند الأطباء باسم «إيلاوس» وإن كان في القولون، أى المعاء الغلاظ، قيل له «قولنج». وهو أكثر الأمراض انتشارًا في نواحينا هذه، ومن مسبباته الكثيرة برودة الجو، وكثرة البقول في الطعام، والشراب القوي... مجددًا، قاطعه المزدوج وهو يضحك كطفل عملاق، قائلًا: أنت يا حكيم تصف حالنا ومأكولنا وما نحن فيه.

ـ سنرى حقيقة الحال غدًا، عندما أفحصك على الوجه الصحيح، لنتأكد من طبيعة ما تعانيه. ولا تقلق، فأنا خبير بهذه العلة، وقد بدأت أول أمس في تأليف كتابٍ عن القولنج وأنواعه وعلاجاته.

ـ ليتك تهدي هذا الكتاب إليَّ في مقدمته أو عنوانه، ليشتهر بين الناس اسمي. هاها. فتجعل عنوانه مثلًا «البطل المنصوري في القولنج» أو «الرسالة المزدوجة في القولنج» أو «القولنج الفردقاني» نسبة إلى هذه القلعة التعيسة.

ـ يا أخي العزيز، لا يصح أن نقرن في العناوين بين شخصٍ ومرض. وحين نهدي لرجلٍ كتابًا فلا بد أن يكون في علمٍ نافعٍ، لا علة، ليتشرَّف به المهدى إليه. واللطيف هنا، أن لي قصيدة طويلة اسمها «المزدوجة».

ـ زوجتي!

ـ لا، هي منظومة في المنطق.

ـ منظومة، ومنطق. نحمد الله على قلة العلم والفهم، وراحة البال.

برفقٍ، أفهمه ابن سينا الذي غلبت عليه فجأة طبيعة المعلِّم، أن الشعر منه نوع تعليمي يسهل على التلاميذ حفظه، تسمَّى قصائده المنظومات. مع أن كل الأشعار نظمٌ. ومن هذه المنظومات التعليمية، ما يكون فيه كل شطرين على قافية واحدة، وهذا يسمى بالفارسية «المثنوي» وبالعربية المزدوج. وأما المنطق فهو آلةُ العلوم وضابطُ الفكر.. صاح «المزدوج» بشكل صبيانيٍّ لاهٍ، لا يناسب ضخامته وملامحه القوية، لكنه يعبر عن طيبة قلبه، فقال: إذن تكون هذه من اليوم قصيدتي.

ابتسم ابن سينا وهو يخبره بأنه كتب هذه القصيدة قبل سنوات في جرجانية خوارزم، كركانج، وأهداها إلى رجلٍ فاضل هناك اسمه الوزير أبو الحسن سهل بن محمد السهلي. قال ذلك ثم نظر إليه متردِّدًا، وسأله إن كان يريد أن يسمع منها أبياتًا؟ فقال المزدوج من فوره، وقد أحسَّ بحنين ابن سينا للكلام في العلم: طبعًا، طبعًا..

ـ بعد أبيات البسملة والحمدلة، أقول فيها:

وفِطْرَةُ الإنسانِ غيرُ كافية

في أن يَنَال الحقَّ كالعلانية

مَا لم يؤيَّد بحصولِ آلة

واقيةٍ للفكر من الضلالة

وهذه الآلةُ، علمُ المنطقِ

منه إلى جُلِّ العلوم يَرْتقي

ـ لم أفهم شيئًا.

ضحك ابن سينا بصوت مسموع، وأراد أن يعرج بالكلام إلى ناحية أخرى، فسأل المزدوج: ولكن، ما أدراك بأن علتك هي القولنج؟

ـ أخبرني بذلك الذين شكوت أمامهم مما أعاني.

ـ هل فيهم طبيب؟

ـ لا والله، كلهم كالبهائم.. ولكن يا حكيم، لماذا ننتظر إلى الغد؟ يمكنك تشخيص علَّتي الآن، وخيرُ الطبِّ عاجله.

تردد ابن سينا لوهلةٍ، ثم طلب من المزدوج أن يستلقي على السرير، وبعدما جسَّ نبضه سأله عن عمره فأخبره بأنه في حدود الخمسين، واستخبر منه عن موضع الوجع فقال إنه يبتدئ من خلف ثم ينحدر إلى أسفل، ويسبقه دومًا عسرٌ في البول وأحيانًا سلسٌ وانتثار.. كان ابن سينا يعلم أن هذه الأعراض تخالف أحوال المقولنج، بيد أنه أراد أن يتثبت فضغط بأطراف أصابعه على موضع الكلى اليسرى، فصبر المزدوج على ذلك. وحين ضغط على موضع اليمنى، صرخ وهب منتفضًا من استلقائه ثم مال متألمًا إلى جهة اليمين.. قال له الشيخ الرئيس: قد صدق حدسي، هذا ليس من أنواع القولنج إنما هو حصاة في الكلى، وقريبة الموضع من الحالب. هل الوجع الذي تشعر به الآن شديد؟

ـ نعم، وجع شديد جدًّا. كان يجب فعلًا أن نؤجل الأمر إلى الغد.

ـ لا بأس، استرح. سيهدأ الوجع رويدًا، وسيكون علاجك بالأدوية المدرَّة للبول والمفتتة للحصاة.

بعدما هدأت أوجاعه ذهب المزدوجُ، فأغلق ابنُ سينا عليه باب غرفته، واستلقى على السرير وراح يحدق في الظلام، حتى انزلق رويدًا في الهوة السحيقة الفاصلة بين الصحو والنوم، حيث تثقل الجفونُ وتترى الرؤى بغير انتظام، وأضغاث الأحلام.. رأى أمه عاكفةً أمام قبة الفرن الكبير الذي كان فوق سطح بيتهم القديم ببخارى، تخبز الفطائر المرققة المطيَّبة بالزُّبد زكي الرائحة، ثم تدسُّها في جوف التنور.. ورأى نفسه صبيًّا يتطلع مشدوهًا نحو النجوم في ليلةٍ صيفية، قد بدت فيها السماء قريبة جدًّا من الأرض.. وسمع أصواتًا خافتة كأنها الأنين تأتيه من موضع بعيد، وبعدها علا اصطخابُ جنودٍ غلاظٍ يستبيحون بلدةً فريسةً، كانت قبيل قدومهم نائمة.. فجأة، سكن الكون وخمد.. ما هذه العتمة التامة؟ وما تلك الأضواء الخافتة التي تلوح من بعيد، ومَنْ هؤلاء الرجال.. ومَنْ أنا؟

بدأ التاسع عشر من الأيام «الخمسة عشر ومائة» التي أمضاها ابنُ سينا معتقلًا في قلعة «فردقان» بدايةً هادئةً، كانت تبشر بالسكون والسكينة. لكن تلك البشرى أطاح بها الصخبُ الذي ملأ ساحة القلعة أوان الضحى، مع صيحات «الزعَّاق» العالية. إذ وصل «الركابي» الذي يأتي بالزيت والمؤن على ظهور البغال والحمير، ومعه خمسة من معاونيه، فسنحت الفرصة للزعاق كي يطلق حنجرته فيمن حوله ليحثهم على إفراغ ما جاء به الركابي، وإدخاله إلى المخازن الخلفية التي لم يكن ابنُ سينا قد رآها بعد.

كان المعتقلُ قد استفاق من نومه باكرًا، وبقي رهين فراشه يتفكَّر في تقلبات أحواله حينًا، وحينًا في «كتاب القولنج» الذي كان يرجو أن يتمه في الأيام المقبلة، وينوي اختتامه بفصلٍ خاصٍّ يناقش فيه ما قاله أحدُ الأطباء القدماء من أن هذا المرض، قد يقع عن طريق العدوى الوبائية الوافدة من خارج الجسم، فيتعدَّى مع فساد الهواء من بلدٍ إلى بلد آخر، ومن إنسانٍ مصاب به إلى الآخرين. وهو قول عجيب، لم يعاينه المعاصرون ولا المحدثون من الأطباء.. مَنْ كان هذا الطبيب؟

حاول ابنُ سينا أن يتذكر اسم صاحب هذا الرأي، وعنوان كتابه، فلم يستطع. ولم يطمئن إلى ظنه بأنه «روفس» الحكيم الذي عاش قبل «جالينوس» بفترةٍ وكان يسكن ببلدة أفسُس. أتراه هو؟ محاولًا أن يتذكر اسم الطبيب القديم، أغمض ابنُ سينا عينيه وعصر جفنيه بظهر كفَّيه، فلما لم تطاوعه الذاكرة اغتاظ من نفسه. إذ استحضر في ذهنه تلك الظهيرة التي كان جالسًا فيها يقرأ الكتاب، في خزانة الأمير «نوح الساماني» سلطان بخارى، وكان لحظتها بالحجرة الصغيرة التي قرب بوابة المكتبة الفسيحة العامرة. هو يتذكر أنه قرأ ذلك في بداية الصفحة اليسرى، من ورقةٍ مليئةٍ بالحواشي بوسط المجلد، ويكاد يستحضر شكل الحروف. لكن اسم المؤلف غاب عن ذهنه، وعنوان الكتاب. هل كان «نوادر الحكماء» لحنين بن إسحاق، أم كان «كتاب القولنج» ليوحنا بن ماسويه. وهل قائله هو روفس، أم تيطس السكندري؟ مَنْ منهما.. أم تراه شخصًا غيرهما.

تطايرت الأفكارُ من رأس ابن سينا بسبب اقتراب «الزعاق» من نافذة غرفته، إذ قرعت أسماعه عبارات: هيا أيها الكسالى. أنت يا كلب المجوس، أسرع. أين عليقة البغال والماء! هِمْ.. ويبدو أن واحدًا من حمير «الركابي» انزعج من علو صوت الزعاق، فأخذ ينهق ليجاوب الأجش بالأجش منه.

قام ابن سينا من سريره مستنفرًا من الضجة، وخرج من الغرفة مُستثفرًا الدثار الذي كان يلتحف به أثناء نومه. رآه «الزعاق» فتهلل وألقى عليه تحيةً وإليه سؤالًا: صباحك خير يا حكيم، هل نأتيك الآن بالفطور؟ على مضض، ابتسم له ابن سينا ففهم الزعاقُ من ذلك أنها الموافقة، وأسرع إلى غرفةٍ قريبةٍ جاء منها بطبقٍ خزفيٍّ كبير، فيه قطعة جبن وثلاث بيضات مسلوقات سلقًا يسيرًا، وفوق ذلك رغيف سمرقندي مرقَّق.. وضع الزعاقُ ما معه فوق الطاولة التي بحجرة ابن سينا، ودعاه إلى الأكل.. وجلس!

متحرجًا، أخذ الشيخ الرئيس من الرغيف لقيمةً وضغط بها قطعة الجبن، ولاكها بمللٍ وبطء. قال الزعاقُ وهو يشير إلى البيضات: إنه نيمبرشت، فإن أردت أن يكون سلقه تامًّا أو كنت تفضل المشوي، فلا مشكلة، أنا في خدمتك يا سيدي الحكيم.

ـ شكرًا، لكنني اعتدتُ تأخير الفطور، ويكفيني فيه قدح من السويق الدافئ.

ـ سيكون حاضرًا من الغد، هل تحب سويق الحنطة أم العدس أم الشعير؟

ـ كلهم عندي في الصباح سواء، فلا تشغل بالك بذلك. ولكن، هل تعامل كل الذين يُعتقلون هنا، بمثل هذا اللطف؟

ـ أنت تختلف يا أمير الحكماء، طبعًا.

ـ أمير الحكماء! وكيف تراني مختلفًا؟

احتار الزعاق لحظةً وتردد، فظهر على وجهه النحيل مزيدٌ من علامات الغباء، ثم انفرجت فجأة أساريره وضحك فصار كالبُلهاء، وبسرعة قام فأغلق باب الغرفة وعاد إلى جلسته مضطربًا كمن يوشك على البوح بسر خطير. بلع ريقه قبل أن يقول بصوتٍ لزج، اجتهد قدر طاقته أن يجعله خفيضًا: هذه يا حكيم، أوامر..

عقدَ ابن سينا ملتقى حاجبيه، فازدادا تقوُّسًا، وزرَّ عينيه وهو يحدق في «الزعاق» بنظرةٍ مستفهمةٍ، فابتسم الرجل ثم أفاض بعدما استوثق من ابن سينا بأنه سوف يحفظ السر، ولا يخبر أحدًا بما سيخبره به. قال: الأمير «سماء الدولة» والوزير «تاج الملك» أرسلا سرًّا إلى الآمر «منصور المزدوج» برقعةٍ، وصلت يوم وصولك، وكان المكتوب فيها كلمتين فقط: أكرمه ولا تهنه.

ـ هذا عجيب. الأمير يحبسني، ثم يأمر بإكرامي!

ـ نعم، لأنه يريد إرضاء العسكر.

بدا ابنُ سينا غير مقتنع بما يسمع، فبدأ الزعاقُ في الإبانة وإبداء الرأي، وقد اطمأن واكتسى بالثقة بسبب حُسن إصغاء الشيخ الرئيس إليه. قال إن أمور الحكم مضطربة في عموم النواحي، وسوف يدور قتالٌ وشيك بين الأميرين البويهيين «سماء الدولة» و«علاء الدولة» ولا بد بالتالي من ترضية الجند والعسكر، واستمالتهم..

على غير عادته، قاطع ابن سينا محدثه سائلًا إياه بانزعاج: وما شأني أنا بالقتال الوشيك، وبالجند والعسكر؟ فأجابه الزعاقُ من دون زعيق: يا سيدي، الأمير «سماء الدولة» يعلم أن العسكر لا يحبونك منذ كنت وزيرًا لأبيه، وهم مغتاظون من كتابك الذي ألفته وقتها وجعلته بعنوان «تدبير الجند والمماليك والعسكر»؛ لأنك نصحت فيه الحاكم بإبعاد العسكر عن المدن، وعدم الإفراط في عطاياهم. فكانت النتيجة أن الأمير تجهَّم في وجوههم، وقلَّل من قدرهم، وقلَّص أرزاقهم. وأنت تذكر ما فعلوه بك أيامها، ولا يريد الأمير أن يتكرَّر مثل هذا الفعل الذي لا تؤمن عواقبه، خصوصًا أنه على أبواب حرب مع «علاء الدولة» الذي يحبك ويقدِّرك. وهو أيضًا يحبك ويقدرك. فوجد من الأصوب إبعادك عن همذان في هذا الوقت، حتى لا تتفاقم الأمور.

أثار إسرارُ «الزعاق» بالأسرار غبار الذكريات في صدر ابن سينا، فضاق وتألمت روحه لفقد المقدرة وقلة الاستطاعة. فذهب بنظرته بعيدًا مستعيدًا بعضًا من مآسي ذكرياته، وفزع ذاك اليوم المريع الذي اقتحم فيه رعاع العسكر منزله بهمذان، وخطفوا «روان» من حضنه.

***

قبل اعتقال الشيخ الرئيس بسنوات، حنق عليه كبارُ العسكر والمماليك وهيَّجوا جمهور الجند ضده، فلم يكترث. زادهم ذلك غيظًا منه، فأكثروا من الشائعات للتشنيع عليه والنيل من مكانته كوزير للأمير شمس الدولة أبي طاهر البويهي، أبي الأمير الحالي «سماء الدولة» واحتالوا للإيقاع به عند الأمير. فلم يكترث. زادهم ذلك غيظًا منه، وظنوا أنه يحيك مؤامرة للإطاحة بهم، فحاكوه وحاكوا ضده مؤامراتٍ عديدةً لكنها باءت بالفشل.. واستمر الأمرُ والحالُ المرير، وتفاقم، حتى بلغ الثورانُ في نفوس الجند غايته وبلغ آخر مداه، فاجتمعوا ثائرين وجلبوا معهم طغمةً من أراذل العوام، واقتحموا منزل ابن سينا بهمذان ونهبوا ما فيه، واقتادوه إلى السجن. وصخبوا عند الأمير «شمس الدولة» كي يصرح لهم بقتله، وكان الأمير يخشى بأسهم إذا انفلت أمرهم، ولكنه من ناحية أخرى يقدِّر مكانة ابن سينا وفضله. ففاوضهم في الأمر حتى وصلوا إلى الحل الأوسط، وهو نفي ابن سينا من البلاد وإبعاده عن «همذان» وما حولها.

أطلقوا ابن سينا من حبسه ليرحل من فوره، فلم يبدِ أمامهم أى اعتراض، لكنه لم ينفذ حكم النفي. فقد اختبأ في منزل صديقه «ابن دخدوك» وتوارى عن الأعين أربعين يومًا، وبعدها أصيب الأمير «شمس الدولة» مجددًا بأوجاع القولنج التي كان ابن سينا سابقًا قد عالجه منها قبل فترةٍ بألطف المعالجات حتى برأ. فانطلق رجال القصر الأميري يفتشون عن الشيخ الرئيس، لعلاج الأمير الذي زادت عليه وطأة المرض، حتى أشرف على الهلاك. ولما أظهر ابن سينا نفسه اعتذر له الأمير عما جرى وأعاد إليه الوزارة، وأمَّنه من سطوة العسكر وهمجية الجند، واسترضاه بكل السبل حتى عادت الأحوال إلى سابق عهدها. وعالج ابن سينا الأمير «شمس الدولة» حتى شفي من علته إلى حين، لكن الأمير عاد بعد فترة إلى إهمال المعالجة وأساء التدبير الطبي اللازم له، فعاوده المرض. فلما مات وتولى ابنه «سماء الدولة» أراد أن يستوزِر ابن سينا، فاستعفى منه واعتذر. ثم اختفى عن الأنظار، وأراد أن يرحل إلى أصفهان ليكون في صحبة أميرها «علاء الدولة بن الكاكويه».. لأنه كان آنذاك قد يئس تمامًا من العثور على محبوبته «روان».

***

استأنف الزعاقُ كلامه بعد لحظةٍ ثقيلةِ الصمت، فقال ما فحواه إن الحال اليوم بهمذان صار أسوأ مما سبق، وسطوة العسكر أمست أنكى وبات الاحتياج إليهم أشد. وقد شاع بين الناس هناك أن ابن سينا يراسل صديقه الأمير «علاء الدولة» ويحسِّن له فكرة الاستيلاء على المدينة وما حولها.

ـ أنا لم أراسله لهذا.

ـ عفوًا يا حكيم. لقد راسلته، والمرسالُ خانك وسلم رسالتك إلى القائد «تاج الملك» وعلم بها جنده، فاهتاجوا..

ـ لم تجر بيننا مراسلات، بعثتُ إلى «علاء الدولة» خطابًا واحدًا مع ركابي، استأذن في القدوم إليه والإقامة عنده. هربًا مما ألاقيه في «همذان» لأنهم لا يريدونني فيها، ولأن الطقس في أصفهان أنسب لي. ولم يكن في رسالتي أيُّ شيءٍ غير ذلك.

ـ أعرف يا حكيم. والأمير «سماء الدولة» وقائد جيشه «تاج الملك» يعرفان ذلك، فكلاهما قرأ الرسالة. لكنهما لا يريدان الآن أن يخوضا مع الجند في الجدال، فوجدا الأصوب إبعادك حتى تتضح الأمور. فإن انهزما أمام «علاء

الدولة» فاوضاه عليك، وإن انتصرا عليه استقوى الأميرُ وقل احتياجه للعسكر، فأعادك.. يعني يا سيدي أنت فائز في الحالتين، وليس عليك إلا الصبر إلى حين.

ـ إلى حينٍ، غير محدَّد المدة.

ـ لن يطول انتظارك، فالحرب وشيكةٌ وبعدها سوف تنحسم الأمور. المهم، أن تتذكرني بفضلك حين يستقيم معك حال الزمان، وأنا يا سيدي خادمٌ مخلص. وسأكون لك من خير الحاشية وأطوع الأعوان.

ـ حسنًا، سنرى ما سوف يكون.

ـ سيكون كل الخير. وسأتركك الآن في سلام، فقد اقترب وقت الظهيرة، وسيعود «المزدوج» من الصوامع في أي لحظة.

ـ الصوامع!

بسرعة، همس «الزعاق» للشيخ الرئيس بأن سور القلعة تلتصق به من الجهة الجنوبية حجرات، كانت سابقًا تسمى الصوامع لأنها سكن كُهَّان معبد النار المجوسي، وقد بقيت زمنًا مهملةً حتى قام «المزدوج» بإصلاحها، واتخذها منزلًا وأسماها مازحًا «دولت كوچك». وله فيها اليوم زوجتان وأولاد وخدم وإماء. وهو يذهب إلى هناك ليلًا، ليرى أهله ويلتقي خفيةً بالمخبرين والبصاصين والعسس.. وختم وسوسته بقوله: لا تخبر أحدًا يا سيدي بأنني أخبرتك بهذا، أستودعك الله.

رحل الزعاقُ عن الحجرة مبتهجًا، وهو يظن أنه اتخذ خطوة كبيرة في طريق طموحاته، وما كان يدري أن خطاه الطامحة هذه سوف تطيح به بعد أسابيع.. وساكنًا مثل قلب الإعصار، جلس ابن سينا حينًا مديدًا بعد خروج الزعاق، ثم استفاق من غيابه السادر مع شوارد الخواطر، وقام إلى أوراقه والمحبرة عازمًا على استكمال رسالته في القولنج، وكتب: والمقولنج إذا استدامت عِلته، يضعف استمراؤه للطعام فلا يلتذ بشيء منه، ويعاف الدسومات والحلاوات. وهذه الأعراض قد تظهر عند ابتداء القولنج، ثم تمتد معه وتشتد مع اشتداده واستحكامه، وتقترن بها أعراض أخرى مختلفة.

ـ يا رئيس الحكماء، جاء أبو الزهير.

من خلف الباب المغلق لاتقاء برد الهواء، أتى صوت «المزدوج» الجهير، مبشرًا بوصول الرجل المنتظر مجيئه بالمفردات الطبية والأدوية.. عند استماعه للنداء، ترك ابن سينا أفكاره والمحبرة والأوراق، وقام متلهفًا لرؤية ما أتى به «أبو الزهير» شيخ رُستاق القرى.

***

لحظة خروجه من باب الحجرة لمح ابنُ سينا «المزدوج» والذين معه، يصعدون درجتي السلم الحجري متآكل الحواف، الصاعد من ساحة القلعة إلى حجرة الآمر. ووجد لدى باب حجرته حارسًا نحيلًا ينتظره، ولدى بوابة القلعة بغلة شيخ الرستاق وحولها ثلاثةٌ من مماليكه، ولدى أنحاء السماء سحبًا داكنةً تُنذر بنزول البَرَد.

سار ابن سينا ببطء وراء الحارس الذي كان بانتظاره، فارتقى الدرجتين ثم عرج يمينًا فوجد المزدوج جالسًا، وإلى

جواره شيخ الرستاق، على الدكة الخشبية العتيقة. وعلى مقربة منهما يجلس «الزعاق» متصنعًا الأدب، وشابٌّ صبوحُ الوجه حسنُ الهندام. في حدود الثلاثين من عمره. ألقى ابنُ سينا عليهم السلام فوقفوا مرحبين به، ومستقبلين إياه بما يليق بمكانته.

شيخ الرستاق رجلٌ طويلٌ، لطيف اللحية وملامح الوجه، أنيقُ المظهر، فاخر العباءة والطيلسان. وعيناه الواسعتان تلمعان ذكاءً. وهو يسلم عليه يدًا بيد، قال لابن سينا مجاملًا وهو يبتسم: أخيرًا التقيتُ بك، الحمد لله، لكنني أراك شابًّا في منتصف العمر، فلماذا يسمونك «الشيخ الرئيس» وأنت بالكاد في الأربعين من عمرك! الأوفق أن يلقّبوك «الشاب الرئيس» خصوصًا أنك نبغت في شبابك المبكر.

ـ شكرًا لك يا سيدي، لكنني ما عدتُ اليوم شابًّا. وقد تخطيت الأربعين بعامين، إذ كان مولدي سنة سبعين وثلاثمائة.

ضحك المزدوجُ وهو يقول لشيخ الرستاق، مازحًا: مهلًا يا سيد الناحية، ولا تحسد الشيخ الرئيس فأنت أولى منه بالحسد، ولن نتركك اليوم حتى تفصح لنا عن سر شبابك يا شيخ الشباب!.. ردَّ عليه بقوله: ما عاد لديَّ شبابٌ ليكون له سر.. ثم أنشد بالعربية البيت الشعري المشهور:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولًا لا أبا لك يسأمِ

كان ابن سينا في تلك اللحظة يتهيَّأ للجلوس، بعد مصافحته الشاب مُشرق القسمات الذي جاء بصحبة شيخ الرستاق، فاندهش مرتين؛ مرة من نُطق الشيخ البليغ بالعربية الفصيحة، وسرعة بديهته، ومرة من نظرة الشاب إليه بعينٍ مفعمةٍ بمعانٍ كثيرة، وابتهاجٍ وقلقٍ.. وفور جلوسهم جميعًا، جاء خادمٌ فوضع على الطاولة طبقًا كبيرًا فيه فواكه مجففة وكستناءٌ مشوي، وأمسك شيخُ الرستاق بكيسٍ كان يحمله الشابُّ مشرقُ القسمات، وقدَّمه لابن سينا وهو يقول بنبرةٍ مهذَّبة: هذه يا حكيم هديةٌ صغيرةٌ لك، لعلها تنال رضاك.

الكيس قماشه من الكتان الأبيض الخفيف، حجمه أقل من حجم المخلاة وأكبر من أكياس النقود، ومربوط بأنشوطة حريرية لونها مثل لون السماء. آسمانجوني. فتح ابن سينا الكيس فوجد فيه ثلاثة كتب: نسخة من كتاب شاناق في السموم والترياق، ورسالة فيها مختارات من كلام الحكيم الهندي المسمى في العربية «كُنكه»، ومجلدة فيها كتاب أبي بكر الرازي المشهور «بُرء ساعة».

ابتسم ابنُ سينا وهو يشكر شيخ الرستاق على هديته النفيسة، ولم يخبره بطبيعة الحال أنه يعرف الكتب الثلاثة، بل يكاد يحفظ ما فيها عن ظهر قلب. قال شيخ الرستاق وهو يشير إلى الشاب الذي جاء معه: مَاهْيار، هو الذي اختار لك الكتب وأكَّد لي أنها سوف تعجبك.. وسكت وهلةً قبل أن يضيف: مَاهْيار هذا، وأخته، هما عندي كأحبِّ أبنائي إلى قلبي وأكثرهم مودةً.

ـ أدام الله المودة والمحبة.

***

في ابتداء الجلسة، سُرَّ ابن سينا وابتهج قلبه حين أخبره «شيخ الرستاق» بأنه طريقه إلى هنا، التقى بجماعةٍ من القادمين إلى قرى الرستاق، فيهم أخو ابن سينا «عليّ» وزوجته وأطفالهما، ورجلٌ لطيف الهيئة قال إنه تلميذ الشيخ الرئيس.. سأله ابن سينا، وكأنه يريد أن يتأكد:

ـ أبو عبيد الجوزجاني؟

ـ نعم، هو. وقد اهتممتُ بهم، وأرسلتهم إلى القرية الوسطى حيث يتوفَّر لهم مقر إقامة، ووعدتهم باستئذان «الآمر منصور» في زيارتهم لك غدًا..

ـ وهل أذن؟

ـ نعم، من فوره.

ـ شكرًا لكما.

خلال الجلسة، التزم معاونو المزدوج والشابُّ مشرق القسمات بالصمت تأدبًا، ودار في سماء الغرفة الكلام العموميُّ عن أحوال البلاد وتقلبات الطقس، وجرت لطائف المجاملات بين المزدوج وشيخ الرستاق والشيخ الرئيس. فلما استطال بينهم الكلام المعتاد، أخذ ابن سينا قياد الجلسة إلى وجهة أخرى، بأن سأل عن الأعشاب الطبية والعقاقير.. أشار شيخ القرى إلى «ماهيار» فأخرج من مخلاته كراسةً لطيفة الحجم والشكل، وأعطاها لابن سينا الذي نظر فيها مستغربًا، وتصفَّحها فوجدها جدولًا بأسماء مفردات طبية وعقاقير ومراهم وأطلية. قال شيخ الرستاق إنها محتويات دكانٍ كان يؤجره لعطَّارٍ.. قال: كان رجلًا طيبًا عطر السيرة، ولكنه لسوء حظه حاصرته عاصفة ثلجية أثناء عودته إلى الرستاق من «تبريز» فسقطت من شدة الصقيع أطرافه، ووصل قريته بعد معاناةٍ وقد انهارت قواه، فلم يلبث إلا يومين ومات في الثالث.. سكت برهةً ثم أضاف أن ذرية هذا العطَّار صغارٌ، ولا رزق لهم من دونه ولا عائل لهم من بعده. ولو تُرِك الدكان مغلقًا، فسوف تفسد مع الوقت محتوياته. ولهذا، فهو يريد شراء ما تركه الرجل ثم يهديه إلى القلعة لعلاج المرضى، كصدقة، ويكون بذلك قد أعان الأيتام وأمهم الأرملة.. سأله ابن سينا:

ـ وما المطلوب مني؟ ومتى يمكنك إرسال هذه الأدوية؟

ـ لن تتأخر، ربما بعد غد. والمطلوب منك هو تقدير أثمانها، حتى لا يُظلم الأيتام.

ـ لا علم لي يا سيدي بالأسعار، بدقة، لكنها إجمالًا وبحسب المقادير المذكورة في هذا الكرَّاس، ربما تتراوح أثمانها ما بين ستمائة وثمانمائة درهم.

ـ إذن، سأعطيهم ألفًا، واحتسب الباقي عند الله.

«بارك الله لك وفيك».. قال المزدوجُ ذلك لشيخ الرستاق، وقال الأخير لابن سينا إنه سوف يُسرع بقدر الإمكان لإتمام الأمر، فتساءل ابن سينا وهو ينظر إلى المزدوج: وأين ستوضع؟ فأجابه بأن عليهم الآن القيام للغداء، وبعد ذلك سوف يخبره.. «هيَّا إلى الطاولة».. صاح بذلك كأنه يدعو جنودًا إلى القتال، وهو يضحكُ، وكان مطمئنًّا إلى الفكرة التي خطرت له لحظتها، وبدأ تنفيذها مع ابن سينا في الصباح التالي.

وهم يتناولون الطعام الساخن الشهي، أشار شيخ الرستاق إلى الشاب المشرق المسمَّى «ماهيار» وتحدَّث على مهلٍ مُخبرًا ابن سينا بأن أصله من «شيراز» وبأنه زوج ابنته الصغرى، وقد تتلمذ حينًا على يد أبي الريحان «البيروني» الملقَّب بالأستاذ، وصحبه لسنوات، وهو يودُّ أن يبقى بقرب الشيخ الرئيس ليخدمه ويتعلم منه.. قال ابن سينا: لكنني هنا محبوس.

تدخل المزدوجُ قائلًا بين الهزل والجد: القلعة ترحب بمن يريد حبسه فيها، خصوصًا إن كان من طرف أبي الزهير.. سأل ابن سينا الشاب: ما المدة التي أمضيتها مع أبي الريحان، وماذا قرأت عليه؟ فأجابه باقتضاب: أربع سنوات يا سيدي، وقرأتُ عليه المجسطي والآثار الباقية.

صخب «المزدوج» كعادته حين يصفو، وقال مبتهجًا بصوته الجهير: والله إنكم يا معشر الحكماء لمن غرائب هذا العالم، ولا يوجد ما هو أغرب من كلامكم، ها ها ها، ما هذه المجسطة وما تَلك الآثار التي بقيت.. ابتسم ابن سينا بوقارٍ، ووضع كفَّه على فمه ليحجب ضحكته التي اتسعت، والتفت إلى المزدوج فأفهمه بألطف المفردات أن «المجسطي» عنوانُ كتاب شهير في الفلك والرياضيات وحركة الأفلاك، ألَّفه قبل قرابة ألف عام عالمٌ كبير اسمه بطليموس، وأما «الآثار الباقية عن القرون الخالية» فهو أحد مؤلفات أبي الريحان... قاطعه المزدوج ممازحًا: أبو الريحان! لا بد أنه يتعطر كثيرًا.

مال شيخُ الرستاق بعمامته الأنيقة ناحية المزدوج، وقال له بودٍّ: كفاك مزاحًا يا منصور، أبو الريحان البيروني رجلٌ جليل القدر، وهو من حاشية السلطان محمود بن سُبُك تَكين الغزنوي.. فجاوبه المزدوج من فوره: الغزنوي، يا ستَّار، اللهم احفظنا من الفواجع، ما ظهر منها وما بطن، وابعد عنا هذا الغزنوي برحمتك يارب العالمين.

ـ وما الذي يخيفك منه يا منصور، بعدما تعاملت مع جميع أنواع الحكام.

ـ هم نوعٌ واحدٌ يا أبا الزهير، وكلهم في طلبهم السلطة قساة، ولهم في القسوة مراتب ودرجات. وقسوة هذا الرجل مريعة، وبطشه بالشيعة معروفٌ وبالحكماء وبجميع مخالفيه. فكيف سنفعل معه؟

ـ إذن، دع عنك القلق لهؤلاء المخالفين، فلست واحدًا منهم.

ـ يا شريكي الحبيب. تعلم أن زوجتي الجديدة شيعيةٌ، وأهلها في «أصفهان» مشهورون بالتشيع. فماذا سيفعل الغزنوي بهم وبها، إذا جاء إلى هنا؟

ـ اطمئن، لن يأتي. فهو مشغول بالهند، وقد لا ينتهي منها قبل وقتٍ طويل.

بدت على وجه ابن سينا علاماتُ الضيق، مثلما يحدث له كلما سمع بالغزنوي، واستغرب مناداة المزدوجُ لشيخ الرستاق بكلمة «يا شريكي».. لكنه كتم ما به ولم يفصح لجلاسه عما يجول بجوَّانيه، وسَتَر ما في سرِّه بأن استدار إلى حيث يجلس «ماهيار» وسأله عما يريد أن يدرسه من العلوم، فأجابه من فوره: الطب.. هزَّ ابن سينا رأسه مستحسنًا، فظهرت على وجه «ماهيار» علاماتُ الرضا واستبشر شيخُ الرستاق.

ساعة العصر دخل عددٌ من الخدم يتقدَّمهم «الزعاق» وهو يلذعهم بالأوامر، فرفعوا الأطباق المبعثرة وفتات الخبز من فوق الطاولة التي أمست مثلما تُمسي أرض المعارك. أثناء ذلك نهض المزدوج وتمطَّى وهو يدعو الذين معه

إلى الصعود، للجلوس على البسطة التي بين البرجين كي يستمتعوا بالهواء النقي والشراب، فقد أشرقت أخيرًا شمسُ العصر الدافئة. حسبما قال. وافقوه وخرجوا خلفه، بعد أن أكَّد شيخُ الرستاق وهو يبتسم أنه لن يستطيع المكوث طويلًا، كيلا يهبط عليهم الليل في طريق عودتهم. وقاموا جميعًا مبتهجين، يحوطهم حالُ الرضا.. وكان «ماهيار» صامتًا، هائمًا في تأملاته.

السلم الحجري الضيق، درجاته مكسوة بألواح سميكة من الخشب، خشية الانزلاق على حوافه التي حتَّ الزمانُ أواسطها. صعد المزدوجُ متقدمًا، واتجه من فوره إلى الدِّكَّة وتكوَّم عليها متربعًا، وصعد خلفه شيخ الرستاق الذي أخذ يتحدث إلى ابن سينا الصاعد خلفه بصوت صافٍ خفيض، ثم سار به إلى أقصى البسطة من الناحية الشمالية وهو يستكمل الحكي، وابن سينا يسمعه باهتمام.. ماهيارُ والزعاقُ، وخادمان، اتجهوا إلى حيث جلس «المزدوجُ» فجاوره الأوَّلان، ووقف الآخران على مقربةٍ ليكونوا رهن الإشارة.

جاءهم الهواءُ الشتويُّ منعشًا. وكانت الشمسُ ناعمةُ الضياء، تكسو بكسلٍ أعالي الهضاب البعيدة صُفرةً ذهبية، تشيع في النفوس الرضا. عند الحافة الشمالية للسطح، كان شيخ الرستاق يقول لابن سينا إنه دخل هذه القلعة أول مرة مع أبيه، أيام كان صبيًّا، وكانت أيامها تابعة لإمارة الريّ وحاكمها البويهي. ولما سأله ابن سينا عن سبب وجود قلعة عسكرية وسط هذه القفار، قال إنها بُنيت في قديم الزمان وربما يبلغ عمرها اليوم ألف عام. وفي زمن بنائها كانت النواحي المحيطة بها خضراء؛ لأن النهر الذي كان يأتي من جبل «قزوين» القائم في جهة الشمال، لم يكن قد تقاصر وصوله إلى هنا.. عندما سمع ابن سينا اسم «قزوين» اضطرب قلبه وعلا به الوجيبُ مع مس أطياف الذكريات، لكنه لم يُظهر شيئًا لشيخ الرستاق الذي استكمل كلامه حاكيًا أنه في ذاك الزمان البعيد، كان هذا المكان ملتقى طريقين من طرق التجارة، فيه تستريح القوافل القادمة من أقصى الشرق بالحرير والتوابل، وتلك الآتية من العراق والشام بالتمر والزيوت وسائر البضائع والمنافع، فكان لا بد من حفظ الأمن بهذه البقاع بتلك القلعة. وقد أقاموا هنا معبدًا للنار من تلك المسماة «آتشكده» كان يأتيه الحجَّاج للتبرك، أو يعرِّجون عليه في طريق حَجِّهم إلى جبل النار المقدسة، المطل على بحر قزوين.. قال ابن سينا: عندما كنت في قزوين سمعتُ بهذا الجبل، لكنني لم أذهب شمالًا لأشاهده، يقال إن نيرانه لم تنطفئ قط.

ـ ولن تنطفئ أبدًا، يمكنني تأكيد ذلك. فقد رأيته مراتٍ، وفي كل مرة يأخذني العجب من النار التي تخرج من بين ثنايا أحجاره، حتى حين تكتسي الأنحاء بالثلوج الكثيرة في الشتاء.

ـ لا بد أن لذلك سببًا طبيعيًّا، كأن يكون تحت تلك الأحجار زيتٌ نفطيٌّ، من ذاك النوع الذي يظهر في بعض البقاع على سطح النقائع المنخفضة. وهذا يشتعل لهبه لأهون سبب، بل تكفي شمس الصيف اللاهبة لإيقاد ناره. ولكن أين ذهب معبد النار الذي كان هنا؟

ـ بقيت منه أطلالٌ، منها الحجرات اللصيقة بجدار القلعة من الجهة الجنوبية، فقد كانت مسكنًا للكهنة وكبيرهم. لكن ذلك كله اندثر. فقبل أكثر من مائة عام، قام حاكم مدينة «قم» بهدم المعبد وإحراقه، بعد أن خلع بابه الذهبي المطعَّم بالجواهر، وأهداه للخليفة العباسي فأودعه بالكعبة في مكة. وأخبرني جدي الذي حضر الواقعة أيام طفولته، أن حاكم «قم» أخرج من معبد النار هذا أقدم نسخة من كتابهم المقدس «الأبستاق» وأحرقها، فظلت النار تأكل فيها ثلاثة أيام، لأنها كانت مدوَّنة على عشرة آلاف رقٍّ من الجلد.

ـ ولماذا تلك الشنائع؟

ـ نكايةً في المجوس، ونصرةً لدين الله..

ـ الله لم يأمر بنهب معابد غير المسلمين، وتهديمها، وإحراق كتب الأولين.

ـ لكن المهووسين من الحكام يأمرون بذلك ما دام يناسبهم، وهم يفعلون ما يطيب لهم.. أليس كذلك يا حكيم؟

ـ بلى، صدقت.. كذلك يفعلون.

تذكر ابن سينا الحوار الذي جرى مع تلميذه «بهمنيار بن المرزبان» في أول لقاءٍ جمع بينهما، وشرد ذهنه بعيدًا لبضع

ثوانٍ ثم استفاق وعاد إلى الكلام مع شيخ الرستاق، سائلًا إياه: ولماذا تراجع النهر عن هنا؟

ـ لأنهم في نواحي الشمال، راحوا يحفرون المسارب عند ضفافه، لينحدر إليهم الماء اللازم للزراعة. فتراجع النهر عامًا من بعد عام. حتى إن القرى الجنوبية من الرستاق، وهي التي تبعد عن هنا مسيرة ساعتين، صارت تعاني اليوم من شُح الماء.. وقد جفَّت الأرض التي تحيط بأول قُرى الرستاق من جهة الجنوب، تمامًا، فصارت اليوم قريةً تعيسة. مع أنها كانت في الماضي تُعرف بقرية «الزواهر» من كثرة المزاهر الطبيعية حولها، فتغيَّر اسمها إلى...

نادى المزدوج عليهما بصوته الجهير، فذهبا إليه ولم يتم الكلامُ الذي ودَّ ابن سينا لو يمتد بينهما، حتى يحيط بجغرافية هذا المكان المنسي والنواحي المصاقبة له.. وبعدما انتظم المجلس السطوحي، حاول ابن سينا أن يوصل ما انقطع، فسأل عما يوجد بالجهة الجنوبية من القلعة. فردَّ عليه «المزدوجُ» بطريقته المرحة قائلًا: زوجتاي وأطفالي، هاهاها.

دارت بينهم كئوس الشراب وأكواب العصير، وجرى الكلامُ مهرولًا بين الموضوعات، وظل «ماهيار» ملتزمًا بصمته وهيمانه في تأملاته. مال إليه ابن سينا وهمس في أُذنه بسؤالٍ عما يدور الآن في ذهنه، وطلب منه أن يَصدُقه القول. فأجابه بقوله: لا شيء يا سيدي، كنت أفكر في أن الإحساس بالوحدة قاسٍ، وهو وسط الناس أشد قسوة.

هزَّ ابن سينا رأسه مُستحسنًا إجابة «ماهيار» ومعجبًا بها، وفي تلك اللحظة جاءهم خادمٌ يحمل حلوى غير متقنة الصنع، التهم منها الزعاق قدرًا كبيرًا، متلذِّذًا.. وبعد هنيهة من هدوءٍ قام شيخ الرستاق متهيئًا للذهاب فقاموا معه، وعند توديعه في ساحة القلعة قال له ابن سينا: أرجو أن أراك قريبًا، ونكمل كلامنا عن قرية الزواهر.. فانفجر ضحكُ المحيطين بهما، ولم يعرف ابن سينا السبب في انفجار ضحكهم، إلا في الصباح التالي.

***

وقت الغروب مَرَّ «المزدوج» منفردًا بحجرة ابن سينا، وتهامسا بحديث قصير.. قال المزدوج: حين خرجتُ صباح اليوم للترحيب بشيخ الرستاق، انتحى بى جانبًا وأخبرني بلقائه بأخيك «عليّ» وصاحبك «الجوزجاني» واستأذن لهما في زيارتك غدًا، ومن فوري وافقت.

ـ شكرًا لك.

ـ لكن لي عندك رجاء.. أغلب سكان القرى في الرستاق، من أهل السنة، وفيهم بعض المتعصبين وأخوك معروفٌ عنه أنه يدعو للأئمة الفاطميين، ولو فعل ذلك هناك فستحدث بين الناس جلبةٌ نحن في غنى عنها، وسوف نُحرج جميعًا. فأرجو أن تنهاه عن ذلك، فلن يأتي من ورائه خير..

ـ سأفعل، ولك الشكر على تلك النصيحة.

ـ بارك الله فيك يا سيد الحكماء، أراك على خيرٍ صباح غدٍ.

عقب خروج المزدوج إلى عياله في «دولت كوچك» هدأتْ جنبات القلعة وأجواؤها وساد المكان السكونُ، وباطن ابن سينا السكينةُ، فكاد ليلتها يتم تأليف مقالته في «القولنج» لولا أن رأسه ازدحم بالمتفرِّق من الأفكار. فأخذ يكتب مسوَّدات متباعدة المواضع في كتابه الكبير في الطب، وراح يسرح بخواطره بين ذكرياته مع «روان»

ومع أخيه «عليّ».. حتى أخذته سكراتُ النعاس، فقام وهو منهكٌ لينام.

صبيحة اليوم التالي، نادى المزدوج على ابن سينا من وراء الباب المغلق، فقام إليه وترك الكتابة.. أخذه المزدوجُ ليريه المكان المقترح لتخزين الأدوية التي ستأتي، فدخل به في الممر الضيق الواصل بين الساحتين؛ الأمامية والخلفية للقلعة، حيث تفوح رائحةٌ غير طيبة. الممر مقبَّب السقف، وفوقه غرفٌ، من فوقها غرفٌ مبنيةٌ بوسط القلعة من حجارةٍ أصغر وأرق من تلك المبني بها الجدران والحجرات الملتصقة به. في منتصف الممر، رأى ابن سينا الدرج الهابط إلى أسفل، فسأل المزدوج عنه باندهاشٍ وشغف. فأجابه بلا اكتراث بأنه يؤدي إلى «السرداب» حيث يُحبس المسجونون، وهَزَّ رأسه الضخم ثم أضاف: وترتعُ فيه الفئرانُ الكبارُ.. فانقبض قلبُ «ابن سينا»، ومسَّته سخونةٌ فيها مرارةٌ، وتحسر على مصائر البشر.

الساحة الخلفية نصفان بينهما جدارٌ عازل، ولكلا النصفين بابٌ. أشار المزدوجُ إلى الباب الأيسر، الشمالي، وقال إن خلفه إسطبل الخيل وحظيرة المواشي وأقفاص الكلاب. كانت رائحة الروث الخانقة تدل على ذلك. في النصف الآخر الجنوبي، خلف الباب، مساحة خالية بآخرها حجرة مستطيلة واسعة، فيها أرففٌ خشبية تغطيها غلالات بيت العنكبوت، وبجوارها حجرة أخرى أقل اتساعًا وأكثر رفوفًا.. وإلى اليمين من الحجرتين باب مفتوح في جدار القلعة، صغير، مغلق بمزلاج نحاسي يوصل بين الساحة ودولت كوچك. قال «المزدوج» إنه سيأمر الخدم بتنظيف الحجرتين والساحة، فقال ابن سينا: وأرضية الحظائر إن أمكن، لتذهب عنها شناعة رائحتها.

قهقه المزدوجُ وهزَّ رأسه موافقًا، وأعطى أوامره لمن خلفه من الخدم والجند، ثم دعا ابن سينا إلى الجلوس على الدكة الحجرية التي عند باب الحجرة الأوسع، ولما تجاوروا عليها سكت المزدوجُ لحظةً كأنه يستجمع أفكاره، ثم قال: يعلم الله يا سيد الحكماء أنني رجلٌ فيه عيوبٌ كثيرة، لكنني صادق ولا أكذب أبدًا، وأصدقك القول بأنني أحببتك واحترمتك من قبل أن أراك. وبعدما رأيتك ازداد احترامي لك ومحبتي. وقد كانت أخبارك تصلني فأجدها في المجمل منصفةً لك ومؤكِّدة لمكانتك المرموقة. ولما قرأوا لي قبل سنواتٍ كتابك عن تنظيم أمور الجند والعسكر، قلتُ في نفسي: هذا رجلٌ حكيمٌ ومخلص للحق، لكنه لا يعرف قبح هذا العالم.. كان المزدوج يتحدث بنبرة صادقة، فجاوبه ابنُ سينا صدقًا بصدقٍ وقال: عرفت جانبًا من قبحه ولكنني جعلت الجمال وجهتي، وكلامك على كل حالٍ صحيح، فهذا الكتاب جلب إليَّ الويلات.

ـ كان يجب أن تتوقع ذلك، وأنت الرجل الحكيم. فهؤلاء المماليك والمسالحة حين يبتعدون عما اعتادوه من خوض المعارك وسُكنى الحصون والثغور، ويساكنون الناس في القرى والمدن. يصبحون من الأراذل وشرار الخلق، وينسون ضوابط الجندية. ثم يرون الناس غنيمةً، فيسعون إلى مزيدٍ من تحصيل المنافع ولو بالظلم، ويتمنون الإمارة والسلطة والسلطنة. ويعلم الجميعُ أن الخلافة في «بغداد» عندما اتسعت رقعتها، قلَّت قوة قبضتها على النواحي الشرقية والغربية، فاستقل كل صاحب عسكرٍ وقائد جيشٍ بناحية..

ـ تقول ذلك، وأنت منهم!

ـ كنتُ في بداياتي كذلك، وطمحتُ كغيري إلى القوة اللازمة للإمارة، بل بدأت فعلًا في جمع الجند واستجلاب العساكر للقيام بالمهام التي يكلِّفني بها حكام النواحي، آملًا أن أتمكن من الأمر مع مرور الوقت وقوة الشوكة،

فأكون واحدًا من جملة الحاكمين والمتحكمين. ولكن في منتصف الطريق إلى ذلك، كرهتُ سفك الدم ومللتُ من المؤامرات، وعافت نفسي المخادعات. فقنعتُ بانزوائي هنا وعملي آمرًا لهذه القلعة التي هي في واقع الأمر سجنٌ ومعتقلٌ تابع لإمارة همذان، وبعيدةٌ عنها وعن صخب السياسة. وصرتُ أخدم أي حاكم يملك همذان وما حولها، بلا ولاءٍ خاص أو تمييزٍ بين حاكمٍ وآخر. فإذا جاء «ابن الكاكويه» ومَلَك النواحي، سأكون في خدمته. وحتى لو جاء «محمود الغزنوي» أو غيره من الأمراء المتحاربين فيما بينهم كالكلاب المتهارشة، سأكون بالتبعية في خدمته. وهكذا. فاليوم ولائي لسماء الدولة وقائد جيشه تاج الملك، وقد يكون غدًا لغيرهما ممن سوف يحكمون. وأعرف أن ذلك ليس الاختيار الأفضل، لكنني وجدته هو أسلم الطرق وأكثرها اتقاءً لرذائل الأعمال. فاخترت هذا الطريق.

«لعله فعلًا، الاختيار الأفضل لك..»، قال ابن سينا ذلك ثم شرد بخواطره، فرأى لوهلةٍ أن دولة الإسلام قد صارت شذرات ممزقة. فالخلافة في بغداد أمست منذ فترة طويلة اسمًا بلا رسم، وشكلًا لا دلالة له. الخلفاءُ يتنعمون بالملذات في قصورهم، وينتظرون الفيء والهدايا من أمراء استقلوا بالبلاد شرقًا وغربًا. ففي الجانب الشرقي البويهيون وبنو الكاكويه، ومن قبلهم السامانيون وقابوس ومأمون بن مأمون، والآن «محمود بن سُبُك تَكين» ناكح الغلمان، ناهب الهند، قاتل أخيه. وفي الجانب الغربي الحمدانيون في حلب، والخلفاء الفاطميون في مصر والقاهرة، وآل زياد في زبيد، وأمراء الطوائف في المغرب والأندلس.. الكيان الذي كان كليًّا، يتفكَّك، لكن الناس تعيش في ظلاله دون أن تدري أنه يذوي ويزوي، وسوف يسقط قريبًا ويضمحل.

ـ أراك كثير الشرود.. هل تسمعني يا حكيم؟

ـ نعم، نعم يا أخي منصور. عفوًا، سرحت بأفكاري في أحوال دولة الإسلام. فاعذرني، واسمح لي بسؤال: لماذا قلت لشيخ الرستاق بالأمس «يا شريكي»؟

ضحك المزدوجُ ضحكته المعتادة، إذ بوغت بالسؤال، فعاد بكتفيه ورأسه الكبير حتى استند إلى الجدار وقال: لأننا يا «بوعلي» نتشارك في المهام ذاتها، فأنا أحفظ النظام في هذه القلعة وما حولها، وهو يحفظ قرى الرستاق من بطش الجيوش المتحاربة، ومن الخراب، بأن يؤدي من ماله المال المطلوب كجزيةٍ على غير المسلم، أو خراجٍ واجبٍ على المسلمين. ويسدِّد ذلك دفعةً لمن يبسط سلطانه على الناحية. من دون تمييزٍ بين حاكمٍ وآخر، ثم يحصِّله برفقٍ من الناس. وكذلك كان يفعل أبوه وجده. وبهذه السياسة الحكيمة، حفظوا حياة الناس ومعايشهم في القرى، ونظر الحكام إلى الرستاق كأنه الخزانة التي لا يجب تخريبها، خصوصًا أن المتولي أمرها ليس صاحب عسكرٍ فيُخشى بأسه، وليس طرفًا في نزاع سلطةٍ بحيث تجب مكافأته أو معاقبته. فهو مثلي، يلتزم بالطاعة لمن يحكم، من دون ميلٍ أو ولاءٍ خاص لواحدٍ من الحاكمين.. وبهذا المعنى نحن شركاء.

ـ نعم، هذه سياسة حكيمة منكما. ولكن أخبرني، لماذا ضحكتم بالأمس حينما ذكرت قرية الزواهر.

ـ هاهاها.. لأن هذه القرية هي الأقرب إلى الصحراء، وإلينا، وقد أسماها العربُ حين ملكوا هذه النواحي قبل مئات السنين «مرج قرية الأزهار» من كثرة المروج المحيطة بها، المليئة بالزهور البرية. ولكن بعد حين، نقصت مياه النهر فانقطع عنها الرِّيُّ، وقلَّت الأمطار بلا سبب معلوم، ولهذا جفَّت أرضها وطمرتها الرمالُ فما عادت تزرع. وأهلها صاروا مع مرور الوقت من فقراء المسلمين واليهود والمجوس، ونساؤهم حسناوات، فصرن مِلك يمينٍ لمن

يستطيع الإنفاق عليهن، وعلى عوائلهن.. ولكل جنديٍّ بهذه القلعة امرأةٌ هناك، يذهب إليها كل عشرة أيام فيقضي عندها يومًا وبعض يوم، ويقضي وطره ويعود راضيًا. فصار معظم الناس يسمونها «قرية العواهر»، والمهذبون وهم القلة يقولون لها «قرية الزواهر».

ـ هذا عجيب فعلًا، ولا يصح. فإن مِلك اليمين يجب شرعًا أن تكون في بيت مالكها.. فكيف...؟

ـ لا علم لي بهذه الأمور الشرعية يا حكيم، ويمكنك سؤال أبي الزهير عنها حين يأتي، فهو رجلٌ مُتفقِّه ويعرف أحكام الدين. أما أنا، فلا أعرف إلا أحوال الرجال وطبائعهم، وأنهم حين يُحرمون من النساء يلعب الجن برءوسهم فيتهوَّسون، ويكثر فيهم الميلُ إلى الشغب والعراك. ها ها. فهم ليسوا حكماء مثلك، فيتحكمون في ميولهم.

أحسَّ ابن سينا أن المزدوج يلمح إلى شيءٍ بعيدٍ، لا يريد الإفصاح عنه، أو يريد لكنه متردِّد بين الكتم والإفصاح، فسأله مترفقًا عما يعرفه ويخفيه. أجابه المزدوج بجديةٍ وهو يقلِّب كفَّه، فقال بعد لحظة تدبُّرٍ، إنه يعرف عن الشيخ الرئيس الولع بالنساء الجميلات وأنه لا يحتمل خلوَّ فراشه من امرأةٍ حسناء، لكنه في هذا الحبس يصبر الصبر الجميل.. ابتسم ابن سينا، خجلًا، وهو يقول:

ـ الشدائد تُذهلنا عنا. وللضرورة أحكام. ولكن كيف عرفت ذلك عني؟

ـ وهل تخفي أخبار من هو مثلك، على من هو مثلي! وقد صارحتك بأشياء كثيرة، وحكيتُ لك الكثير عني، فأخبرني يا حكيم هل ما تزال تبحث عن «روان»؟

ـ ماذا.. روان، تقصد مَنْ.. روان جاريتي! مَنْ أخبرك بها، وكيف..؟

ـ رأيتها..

عندما سمع منه اسم روان، دُهش ابن سينا وطاشت نظراته حتى بدا لحظتها مثل طفلٍ سقطت على وجهه أثناء النوم رُتيلاءُ، ولدغته، فجمد من فرط الرعب.. أشفق عليه المزدوج، فسكت، ونظر إلى الناحية الأخرى تأدُّبًا.. لم يستطع ابن سينا الحفاظ على وقاره المعتاد وهدوئه فهبَّ فجأةً واقفًا، مذهولًا، وقد عصفت بصدره هوجاءُ الأعاصير واعتصرت قلبه قبضةٌ من حديدٍ صدئٍ قديم.

ما كان ابنُ سينا قبل بلوغه السابعة عشرة من عمره، يتخيَّل أنه سوف يضطر يومًا إلى ترك مدينة «بخارى» التي احتوت كلَّ ما يحتاجه من الحياة.. أسرته، المنزل الفسيح الدال على بحبوحة العيش وثراء ساكنيه، سوق الكتب العامرة بدكاكين الوراقين والدلالين. الطوافين طيلة النهار، بالنسخ النفيسة والمستنسخات الخطية من أشهر المؤلفات في شتى أنواع العلوم.. وكان له هناك آنذاك كل ما يتمناه: أبوه المهتمُّ بتعليمه، أمه الحانية، احترامُ المحيطين به.

ولكن لأن الحياة لا أمان لها، وليس لأحوالها دوام، سرعان ما توالت الاضطراباتُ والمزعجاتُ تباعًا عند بلوغه الثامنة عشرة فاضطر لهجر بخارى. وكان الاضطرابُ الأول الصادم له، يوم تعلَّق قلبه الأخضر بجارتهم الفاتنة الفاتكة «سندس» التي شوَّشت عليه أوقاته، وأبقته شهورًا متحيِّرًا يحاول الإمساك بالمستحيل، حتى كان منها ما سوف نحكيه بعد حين.

وما كاد الشابُّ النابهُ يخرج من اضطرابه الجوَّاني، بسبب سندس، حتى تعاقبت عليه الأمورُ البرانية المزلزلة. إذ توفي سلطان بخارى ولم يستطع وريثه الإمساك بزمام الأمور، فانفلتتْ. ثم توفي أبوه «عبدالله» ولحقت به أمه بعد عامٍ أو أقل، ثم ثار الأمراءُ البخاريون على مليكهم الجديد الضعيف. ثم خرج أخوه الأصغر «عليّ» مع زوجته وطفله الصغير إلى النواحى البعيدة، آملًا أن يصير يومًا داعيةً للأئمة، فخلا البيت الكبير من سُكانه وسكنه الأسفُ، وسكتت جوانبه فصارت حزينةً موحشة.. وفي خاتمة المطافِ البخاريِّ، جاء محمود الغزنوي بجيشه طامعًا في التهام النواحي.

وقبل وصول الغازي الغزنوي إلى «بخارى» خرج منها ابن سينا في سنِّ الثانية والعشرين، ورحل متحسِّرًا على زمانه الأول الهادئ، الهانئ. هرب أولًا إلى مدينة الجرجانية بخُوَارَزم، وهي البلدة العامرة المسماة بالفارسية كركانج، يحدوه الأمل في الاستقرار بجوار أميرها «مأمون» ورعاية وزيرها «أبي الحسين السهلي» المحب للعلوم، المحدودب على العلماء والنابهين في كل مجال. ولكن، ما كاد المقام يستقر به هناك في صحبة النخبة من خيرة عباقرة الزمان، حتى جاء أمرُ محمود بن سُبُك تكين الغزنوي للأمير «مأمون بن المأمون» بشحن جميع العلماء والعارفين الموجودين عنده بجرجانية خوارزم، وإرسالهم إلى عاصمة مملكته «غزنين» الأفغانية التي صار الناس يسمونها غزنة، كي يتباهى بهم الجاهل «ابن سُبُك تكين» في بلاطه. وقد تردَّد جميع العلماء وتحيَّروا في الأمر حين عرضه عليهم الأمير مأمون بن المأمون، أما ابنُ سينا فقد حزم أمره من فوره بقوله إنه لن يكون زُخرفًا في بلاط ابن سُبُك تكين، وفرَّ منه مجددًا، فلم يجد لنفسه مستقرًّا آمنًا.. فكتب بمداد الروح ونزف القلب، قصيدته التي منها قوله:

لما عظمتُ فليس مصرٌ واسعي

لما غـلا ثمني عـدمتُ المشتري

وفي ارتحالاته التي توالت لعشرين عامًا، طوف الشيخ الرئيس بأنحاء خوارزم وبلاد فارس، ولم يطب له المقام في البلدات والمدن التي دخلها تباعًا، على ما بينها من تباعُد: نَسَا، أَبِيْورد، طُوس، شَقَّان، سَمَنْقَان، جَاجَرْم، جُرْجَان، دِهِسْتان، الري.. وكانت «الري» وما حولها، تحت حكم الأميرة الديلمية الفارسية «سيدة» وابنها مجد الدولة،

ويدين لهما بالولاء ابن خالها «علاء الدولة بن الكاكويه» أمير أصفهان. والكاكويه في كلام الفرس، تعني الخال.

وخلال تجواله الطويل واستقراره القصير، لم ينقطع ابن سينا يومًا واحدًا عن الكتابة والتأليف. اللهم إلا في الأسبوع الذي مرض فيه مرضًا شديدًا، وبرَّحت به أوجاعُ القولنج فما كان يقدر على القيام، بل لا يستطيع الجلوس معتدلًا، لكنه عالج نفسه حتى برأ من هذه العلة إلى حين. كان ذلك ببلدة «دِهِستان» النائمة بين جبال الشمال، شديدة البرد، فاضطر للعودة إلى «جرجان» وتداوى حتى برأ. وفي جرجان التقى بابن سينا تلميذه وصاحبه المخلص الذي سيلازمه بقية حياته، في حِلِّه وترحاله وحبسه، أبو عبيد الجوزجاني.

وكان بجرجان رجلٌ محبٌّ للفلسفة والحكمة، اسمه أبو محمد الشيرازي. فلما عاد إليها ابن سينا لمداواة نفسه، احتفى به هذا الرجل واشترى منزلًا يليق بسكنى فيلسوف ووهبه لابن سينا، فكان بعد شفائه من العلة التي هجمت عليه ببلدة دهستان، يعقد المجالس العلمية بهذا المنزل، ويلتقي بالتلامذة، وينهمك في التأليف. وعرفانًا بالفضل لأبي محمد الشيرازي، أهدى إليه ابن سينا كتاب «الأرصاد الفلكية» الذي أتمه في جرجان، وكتاب «المبدأ والمعاد» الذي انتهى منه بعد رحيله عن جرجان واستقراره في عاصمة البويهيين، الري.

وأثناء إقامة ابن سينا في «الرَّيِّ» قام بمعالجة أميرها «مجد الدولة» من الوساوس السوداوية التي كانت تعبث برأسه، فارتفع بذلك قدره عند أمه: الحاكمة، السيدة، الخاتون. كان اسمها سيدة، وكلمة «السيدة» يقابلها في الفارسية لفظ: الخاتون. كما عالج ابن سينا في الرَّيِّ مرضى كثيرين من الأمراء وكبار رجال الدولة، وما لا حصر لهم من الفقراء. وكان كثيرًا ما يتصدَّق على المعدمين من المسلمين وغير المسلمين، ويسير بين الناس على هونٍ، فارتفع بذلك قدره عند الجميع وأسعدهم وجوده في بلدتهم العامرة. لكنه كان آنذاك يفكر في الرحيل إلى بلدة جنوبية مثل «أصفهان» هربًا من برودة الطقس في نواحي الشمال، وما يؤدي إليه من تهييج أوجاع القولنج. بيد أن القدر كان يخفي له شيئًا آخر، إذ استدعته حاكمةُ الري «السيدة» ذات يوم صباحًا، وتلطَّفت في الحديث إليه والاستخبار عن أحواله، ثم طلبت منه الاجتهاد في علاج قريبٍ لها، إن استطاع إلى ذلك سبيلًا. استغرب ابنُ سينا كلامها وسألها عن تفاصيل الأمر، فقالت إنه شابٌّ يافعٌ كان قرَّة عين أمه وأبيه وإخوته، حتى لحق به حالٌ عجيب واعتلَّ بعلَّةٍ عجيبةٍ، لم يُسمع بها من قبل. تمهَّلت «السيدة» وهي تقول بعد لحظة صمتٍ ممزوجةٍ بالأسى، إن أبيه واحدٌ من أقارب بني «بويه» المرموقين، فهو ابن عم خالها الداعم لها «الكاكويه» علاوة على كونه رجلًا فاضلًا. وقد رُزق بابنه هذا، بعدما أنجب خمسًا من الفتيات، وكاد ييأس من ذرية الذكور.. بدا لابن سينا أن «السيدة» توشك أن تبكي أمامه، وهذا لا يجوز، فبادرها بالسؤال عن أعراض المرض الذي أصاب الفتى، فقالت:

ـ صار مؤخرًا يحبو على أربعٍ، ويصدر أصواتًا كالخوار. ويقول لمن حوله إنه بقرةٌ، وعليهم أن يذبحوه ويطبخوا لحمه.

ـ هذا حالٌ عجيب فعلًا يا سيدتي، وسوف أجتهد في علاجه. كيف يمكنني أن أراه؟

ـ عليك بالذهاب إليهم في «قزوين» فهو مقيمٌ هناك مع أسرته، ولا يُستأمن أن يؤتى به إلى هنا.

حين سمع ابن سينا اسم «قزوين» اضطرب، واجتهد كيلا يظهر عليه ما اعتراه من وَجَل، وما طاف في ذهنه من أفكار قلقة.. قزوين.. جبال الشمال ثانيةً، ونحن على أبواب الشتاء! يارب العالمين.. أنوي الذهاب جنوبًا من أجل

الدفء، فتقذف بي المقاديرُ إلى برودة الشمال التي تُهيج عندي العلة. ولكن، لا يجوز الاعتذار للسيدة والتواني عن تلبية ما تطلبه، بعدما أكرمتني وأحسن البويهيون وفادتي.. ماذا أفعل؟ ليس أمامي إلا الإسراع بالذهاب، عساني أستطيع العودة سريعًا قبل اشتداد البرد.. أتراك تختبرني يا مبدع الكل، أم تدبر لي أمرًا لا أعلمه:

ـ ما قولك يا «بو عليّ»؟

ـ حاضر يا سيدتي، سأكون من الغد مستعدًّا للسفر.

ـ بارك الله فيك يا حكيم، وسوف يكون سفرك مريحًا بقدر المستطاع.

لم ينم الشيخ الرئيس تلك الليلة، لاحتمال أن يكون سفره إلى قزوين في الغد. وقد كان فعلًا. كان يريد إتمام الكتاب الذي بدأ تأليفه بجرجان، وجعله بعنوان «المبدأ والمعاد»، وقد انتهى من المقالة الأولى فقط وهي ثلث الكتاب، وجعل عنوانها دالًّا على محتواها «إثبات المبدأ الأول ووحدانيته وصفاته»، وميَّز فيها بين الوجود الممكن والوجود الواجب، وبين واجب الوجود بغيره وواجب الوجود بذاته. سبحانه. مبدع الكل، الخير المحض، التام، العاشق المعشوق، مدبِّر السماء. وكانت المقالة الثانية من الكتاب تدور حول ترتيب الفيض في الكون، من أول وجود إلى آخر موجود، ومعنى الإبداع والعلة الأولى. وبقيت فقط المقالة الثالثة الأخيرة، التي عكف عليها من عصر ذاك اليوم إلى فجر اليوم التالي، وجعلها مختصرة في ثلاثين صفحة من قَطْع الكاغد المعتاد. وفرَّق فيها بين نفس الإنسان وبدنه، مشيرًا إلى جملة حقائق عقلية منها خلود النفس، ومعنى السعادة الأبدية الحقيقية والشقاوة الأزلية الأخروية. وختمها بكلامٍ خطيرٍ في النبوة والولاية الروحية، وخوارق العادات التي يسميها الناس المعجزات.

* * *

برَّت «السيدة» بوعدها فوهبت لابن سينا خادمين وخمسة من الخيل القوية، وأمرت بأن يصحبه في الرحلة حرسٌ من العسكر الأميري.. خرجت الرواحلُ بهم فجرًا، فاستقبلت وجوههم لسعات البرد المبكرة وهم يسلكون الدروب المتجهة شمالًا، ويمرون على القرى التابعة لمدينة الري حتى بلغوا قرية اسمها «تهران» عرجوا بعدها نحو شواهق الجبال التي اقتربوا منها عند الظهيرة، ثم توجهوا غربًا في الطريق الذي سيقودهم بعد مسير ثلاثة أيام، إلى قزوين. وخلال الطريق الطويل، كان ابنُ سينا لا يفتأ يلتفت كل حين إلى ناحية اليمين، متأملًا في الجبال الرواسي البادية من قريب، وفي رأسه تدور أفكارٌ كثيرة.. حدَّث به نفسه بأن ضيق الأنفاس في النواحي الجبلية المرتفعة هذه، دليلٌ على نقص القوى التي يسميها الأطباء الأرواح، في الهواء. وهو ما يُحوج سكان الجبال، إلى أن تكون صدورهم أوسع من صدور سكان الوهاد والبلاد الجنوبية الحارة. ولا بد أن تكون آلات التنفس وحركة النبض عندهم، أجود: وهذا لا سبيل إلى التأكد منه إلا بطريق التشريح، ولسوف أمارسه سرًّا فأفحص جثث المتوفين وذبائح الحيوانات الكبيرة، كلما سنحت الفرصة، لأرى ما سوف يظهر لي من فروقٍ بين أجسام سكان الجبال الباردة، وأهل السهول الدافئة..

ساعة الظهر، توقف الركبُ سويعة لإراحة الخيول، وتناول ما يسد الرمق. أكلوا كلهم صامتين، وبعد معاودتهم المسير عاد ابن سينا لحواره الجوانيِّ مع نفسه: إلى متى سأبقى في هذا الترحال الدائم؟ وها هي ذي سني تقترب بسرعة من الأربعين عامًا، ولم أعرف بعدُ القرار بأرضٍ أو السكينة بناحية. هذه النواحي لا قرار فيها ولا سكينة، ما دامت المعارك تدور بين الملوك والأمراء منذ مائة سنة، وسوف يستمر دورانها الطاحنُ لمائة سنةٍ تالية. والعمر قصير. فأين المفر؟ لا بد أن أقرّ بمكانٍ لأنتهي من كتابين كبيرين، أحدهما في الحكمة والإلهيات والأمور الفلسفية، وسوف أسميه «الشفاء». والآخر في الطب، وسيكون كالمدوَّنة الجامعة لكل المتفرقات.. نعم، لا بد من كتاب جامع في أمور الطب كلها، الكلية والجزئية، وألحق بها أبوابًا في خواص المفردات وفنون العلاج. أحتاج زمنًا لإنجاز ذلك، على ما يوجبه الرأيُ الصحيح والعلمُ المجرَّب، فهذه المتفرقات والرسائل التي كتبتها وأكتبها لا تشفي الغليل، وليست بكافيةٍ للمبتدئ ولا وافيةٍ عند العارفين. كان يجب على ابن زكريا الرازي أن يفعل ذلك قبل مائة عام، بدلًا من ذلك المتفرق المشتت من كلامه المجموع، بلا نظام، تحت عنوان «الحاوي». رحمه الله، فقد عانى في دنياه الدواهي، وأظنه كان ينوي العكوف على هذه المسودات وإخراجها منسَّقةً في كتاب كبير. لكن اضطهاد حاكم «الري» له أيامها بسبب آرائه الفلسفية، حال بينه وبين الإتمام. لا أمان للعلماء والفلاسفة في كنف الأمراء والحكام، ولكن لا غنى لأولئك عن هؤلاء.. فما الحل؟ تُرى ما حال أبي الريحان البيروني اليوم، وهو في صحبة السفاح ابن سُبُك تكين؟ أبو الريحان رجلٌ رقيق المشاعر وعالمٌ بحق، ومع أنه أخطأ في حقي مؤخرًا وأنا الذي أدخلته أول مرة على الملوك. ولكن، هو في النهاية مسكين ومن ذوي العلم الغزير. فكيف حاله مع هذا الحاكم الذي كان مثل أبيه مملوكًا، فصار ملكًا، ويريد اليوم أن يكون سلطانًا. بلغني أنه يصطحب معه أبا الريحان في الأسفار العسكرية والغزوات التي لا تنتهي، ويريق فيها الدماء سفحًا بحجة نُصرة الإسلام ومذهب السنة. عجيب. ألا يُنصر الدين ويَشيع المذهب، إلا بسفك الدماء! كان الله في عونك يا بيروني، وفي عوني، وعون الخلائق أجمعين.

.. مَرَّ الركبُ ساعة العصر، بمنزل واسع عند سفح الجبل القريب من الطريق، فرأى ابن سينا أطفالًا يلعبون في باحته، ولمح امرأةً تتوارى عن الأعين مسرعةً إلى خلف الباب. لوَّح الأطفال للركب متهللين فانتزعوا من شفتَي

ابن سينا ابتسامةً، ورفع كفه اليمنى محييًا لهم، فتضاحكوا وكادوا يقتربون من الطريق لولا أن رجلًا نادى عليهم من أمام البيت، فعادوا مسرعين إلى اللعب. وعاد ابن سينا للسباحة في سماواته والغوص إلى أمانيه، وسأل نفسه: ماذا لو انتهيت من علاج هذا الشاب الذي غلبت عليه المالنخوليا فتخيَّل أنه بقرة، ثم رحلتُ عن تلك النواحي كلها. نعم. أترك فارس كلها وخوارزم، وأعبر «ديار بكر» كي أتجنَّب المرور بالعراق المضطرب، ثم أهبط إلى الشام ومنها إلى مصر، دافئة الطقس، فهي تحت حكم الخلفاء الفاطميين. الناسُ هنا ينسبونني إلى مذهبهم، بسبب أبي وأخي «عليّ» ولا يعلمون أنني خَلُصتُ بالفلسفة والمنطق من المذاهب كلها، والفرق العقائدية المتناحرة جميعًا. وربما ظاهر الدين بجملته. استمساكًا بما أراده مبدعُ الكل وواهبُ العقل سبحانه، من خيرية الوجود وكمال النفس الإنسانية وأفضلية العلم والمعرفة.. هنا، الجُهَّال من عموم العوام وبعض الحكام يتوهمون أنني من أهل التشيع، ويتهمونني بأهوالٍ أهونها الميل لرأي الأئمة. ولا ميل عندي، إلا لما يُمليه العقل ويقرُّه المنطق. في مصر لن يتهمني أحدٌ بشيء، مادمتُ مقربًا من الأئمة الحاكمين، وهم يحترمون العلماء. الحاكمُ بأمر الله، صاحب مصر، خرج من قصره إلى خارج سور القاهرة ليستقبل العلامة «ابن الهيثم» الذي جاء من البصرة ملبيًا دعوته لزيارة مصر، وهذا تشريفٌ ما بعده تشريف. ولن أجد مثله هنا ما حييتُ.

لكن الحاكم بأمر الله يأتي بأفعالٍ متناقضة، وتصلنا من أخباره عجائبُ يصعب تصديقها، وإن صحت فهي دليلٌ على غلبة السوداء عليه، وميله إلى مهاوي الوساوس.. هل يمكنني علاجه؟ لا، هذه مخاطرة. فهو غير مأمون الجوار، ويستسهل القتل عقابًا على أتفه المخالفات، حتى إنه قتل قبل أعوام الرجل الذي كان وصيًّا عليه، برجوان. ما هذا الاسم الغريب. لا، لن يطيب لي المقام في مصر مع حاكمٍ عنيفٍ حادِّ التناقض، والمصريون في عمومهم لا يحبون العلوم الفلسفية وما عادوا اليوم يحتفون بها، مع أنها وفدت إلينا أصلًا من عندهم، أيام كانت العلوم كلها مزدهرةً في الإسكندرية. الزمان اختلف، والناس.. لن يرحبوا بي في مصر، فأين أذهب؟

***

مع مغيب الشمس خلف أعالي الجبال، وصل الركبُ إلى معسكرٍ أميريٍّ مسوَّرٍ بحوائط عالية، تجعله يبدو كالقلاع. حطّوا هناك الرحال وتهيَّئوا للمبيت، وكان الشيخ الرئيس ينوي النوم ساعتين ثم يصحو فيشرع في تأليف رسالة في «الأدوية القلبية» بيد أن ذلك تأجل، إذ عرف من أحد الحراس فور إفاقته من غفوته القصيرة، أن تلميذيه أبو عبيد الجوزجاني وبهمنيار بن المرزبان، لحقا به ووصلا إلى المعسكر عقب الغروب.. خرج من غرفته ليجلس معهما، وطال بينهم الكلام عن المقولات وغيرها من أبواب المنطق، حتى تعدَّت الليلةُ المنتصف فناموا استعدادًا لاستكمال الطريق فجرًا.

بعد يومين وصلوا إلى قزوين فوجدوا الرجل البويهي المبتلى بمرض ابنه، قد خرج مع بعض أقاربه ليستقبلهم عند ظاهر البلدة. رحَّب بهم الرجل وأكَّد تقديره لمجيء الشيخ الرئيس حين سلَّم عليه، بأن شبَّ وقبَّل رأسه.. ولاحت في عينيه دموعٌ، فأخذه ابنُ سينا ومال به مبتعدًا عن الآخرين، وهمس له بالفارسية قائلًا ما ترجمته: هوِّن عليك يا سيدي.

ـ كيف يا حكيم، والمصاب فادح. قد صرت من فرط الألم أتمنى موت ابني الوحيد، الذي كان فرحتنا الوحيدة

وعزائي في شيخوختي هذه.

ـ لكل داءٍ دواء، فلا تفرط في اليأس. وأخبرني بكل ما كان مع ولدك، وكيف ابتدأت معه هذه العلة، وما حالها معه الآن؟

قبل وصولهم إلى المنزل الفسيح الأنيق، كان البويهيُّ قد أخبر ابن سينا بمأساة ابنه.. كان الشابُّ على ما يرام قبل بضعة أشهر، لكنه فجأةً ومن دون أي مقدماتٍ اعتزل الناس، وبعد ذلك احتجب بغرفته ورفض الطعام حتى هزل بدنه وجحظت عيناه وبدت فيهما علامات الذهول، وصار أمره رويدًا إلى الجنون المطبق، وراح يصرخ في الليل والنهار حتى تخور قواه ويغلبه الإعياء فيسقط مغشيًّا عليه. والشهر الماضي بدأ يصيح في أمه وإخوته وكل من يراه، قائلًا إنه بقرة تريد أن تذبح! وأخذ يردِّد: اذبحوني واطبخوا لحمي، اذبحوني واطبخوا...

أجهش البويهيُّ بالبكاء فانقطع صوته، ولم يستطع استكمال الكلام. فأخذ ابن سينا برأس الشيخ المكلوم وضمه إلى صدره وقبَّله، فكاد الرجل يسقط إلى الأرض من فرط الإعياء. عند باب منزله، طلب منه ابن سينا أن يستجمع قواه ويُكمل ذكر ما جرى، وما قاله الأطباء الذين سبقوه.

ـ لم يعد لدينا اليوم أطباءٌ مهرة، وكل ما فعلوه أنهم نصحوا بتقييد الفتى كيلا يؤذي نفسه، ودسِّ الطعام في فمه، كيلا تنهار قواه تمامًا، فيهلك.

ـ وهل فعلتم ذلك؟

ـ نعم. ولكن إطعامه عنوةً، يزيد من اهتياجه.

همَّ البويهيُّ بالدخول من بوابة بيته التي فتحها خادمان، فاستوقفه ابن سينا خارجًا وطلب منه أن يوفر له ولتلميذيه وخادميه مكانًا للمبيت خارج المنزل، لأنه يريد أن يراقب الفتى المريض من حيث لا يراه ولا يفطن إليه. فقال البويهيُّ إن الحجرات الجاهزة لاستقبالهم تقع خلف حديقة المنزل، وهي بعيدة عن غرفة الفتى التي ما عاد يبرحها منذ اشتد به هوسُ الجنون.. هزَّ ابن سينا رأسه موافقًا، ودخلوا جميعًا صامتين هادئين حتى لا ينتبه الفتى لمجيئهم.

ظل الشيخ الرئيس يراقب مريضه يومين، ثم طلب من أبيه أن يريه أشهر القصابين والجزارين بقزوين.. استدعى الأب أشهرهم فجاء القصَّاب يرفل في ردائه المبقَّع بدماءٍ متخثرةٍ فوق الدماء، ومن حزامه الملفوف حول وسطه تتدلى السكاكين متفاوتة الأطوال. وجاء خلفه تابعه؛ الشبيه به في بشاعة المنظر. طلب ابن سينا من القصاب خلع ما يلبسه، وارتدى أسماله وسط دهشة الحاضرين، وطرح عنه عمامته. وطلب من تلميذه «الجوزجاني» أن يلبس ما كان يرتديه معاون القصَّاب، ويتشبه بمنظره! وهمس إليه بالحيلة العلاجية.

صاخبًا، دخل ابن سينا غرفة الفتى الفسيحة في هيئة الجزارين ومن خلفه التابع المزيف، وهو يلوِّح بسكينٍ طويلٍ أشار به إلى الفتى معتلِّ العقل، وسأله: أنت البقرة التي جئنا لذبحها؟ فقال الفتى بلسان الاستسلام: نعم.

أشار ابن سينا للجوزجاني فتقدَّم إلى الفتى وتلَّه للجبين استعدادًا للذبح، ووضع ابن سينا السكين على رقبة الفتى المستسلم فبدا أنه يوشك على ذبحه، لكنه قام عنه فجأةً وقال بصوتٍ جهير: هذه البقرة هزيلة، ولا بد من تغذيتها

وتسمينها حتى يمكن ذبحها..

عندما خرج ابن سينا والذين معه من الغرفة، أخذت الفتى نوبةُ صراخٍ وعويل كاد قلبه معها أن ينفطر، حزنًا منه وأسفًا على عدم ذبحه. وعندما علا نشيجه دخلت عليه أمه بطاولة طعام وتركتها في متناوله، ولم تتكلم بشيء.. رويدًا، كف الفتى عن نواحه والنحيب ثم توقف بكاؤه وراح ينظر إلى الطعام بعين مشدوهٍ، وبعد حين قام إليه والتهمه كله بشهوة مهووس. إذ كان يريد للبقرة أن تسمن. ولما ثقل عليه الطعام تثاقل رأسه، وغلبه النعاسُ فنام نومًا عميقًا.

في الصباح دخلوا عليه بفطورٍ وفيرٍ فأكله كله، دون كلام أو صياح، وعاد مجددًا إلى الخمود والنوم. وبعد مرور أسبوع على هذا المنوال، استرد الفتى عافيته وعاد عقله رويدًا إليه، لكنه ظل مستوحشًا ممن حوله وصامتًا طيلة أوقاته ومستعصمًا بسريره غير راغب في مفارقته. وفي عينيه المنكسرة، يسكن الأسى مع حزنٍ شفيف. دخل عليه ابن سينا وأخذ بيده ليجسَّ نبضه، فلم يعرفه الفتى، وسأله بصوتٍ خفيض:

ـ أنت الحكيم الذي عالجني؟

ـ نعم أنا الطبيب الذي يداويك..

ـ ما الذي جرى لي؟

ـ لا شيء، اضطرابٌ ذهنيٌّ عارضٌ بسبب هزال جسمك وإهمالك لبدنك. فما الذي أدّى بك إلى هذه الحالة؟

ـ ...

سكت الفتى وذهبت نظراته إلى بعيدٍ ثم دمعت عيناه، فعرف ابن سينا أن الفتى مصدوم، أو هو عاشق. ولم يحب أن ينقطع معه الكلام الذي ابتدأ، فأفهمه بيسرٍ أن أحوال الإنسان الجسمية والنفسية بينها ارتباط، وأنه حين أهمل لسببٍ ما طعامه والشراب، تداعت قواه للسقوط فاختلت المدركات في ذهنه ومال عقله للجنوح الذي يحدث للممرورين، ثم استسلم للوساوس القاهرة التي تجسَّدت في توهُّمه أنه بقرة تود لو تُذبح.. قال له ابن سينا، برفق: كنت ترغب في الموت، ولا تجرؤ على الانتحار.

خفَّض الفتى رأسه مستسلمًا لما سمع، ومسح عنه دموعه التي انسكبت، ثم رفع عينيه نحو ابن سينا بنظرةٍ خجلى. فتأكد الشيخ الرئيس من صحة ظنه بأن الفتى عاشق، بل هو هائمٌ متيمٌ، وتفكَّر في الكيفية التي يمكنه بها معرفة معشوقته.. تُرى، هل كان ابن سينا يقيس حال الفتى المفتون، على أحواله هو، في زمن صباه وأيام مأساته مع سندس؟

وهما يتناولان طعام الغداء في حديقة المنزل، طلب ابن سينا من البويهي أن يستدعي أم الفتى وأخواته، وحين حضرن طلب منهن أن يتعمدن سرد أسماء النسوة والفتيات المحيطات، على مسمعٍ من الفتى العليل عندما يمسك ابن سينا برسغه لجسِّ نبضه. واقترح عليهن أن يكون ذلك، في سياق الحديث عنَ الأعراس والأعياد التي يجتمع فيها الناس، كأن الأمر غير مقصود.. ودار الأمر مساءً على هذا النحو، وفي الصباح التالي، حين ورد في ثنايا كلامهن اسم «زهوة» فاختلف نبضُ الفتى، واضطرب. وفي الجلسة التالية، راحت إحدى أخوات الفتى تحكي عن «زهوة»

تنفيذًا لطلب ابن سينا، إذ لاحظ أن الفتى يتغير حاله ويرتبك كلما تواترت على مسامعه أخبار هذه الفتاة التي اسمها «زهوة».

في المساء، عرف ابن سينا منهن أن البويهي له بستانٌ بأطراف قزوين، يجاوره بستانٌ لرجلٍ من أصولٍ عربيةٍ له ابنةٌ وحيدةٌ، هي الوحيدة في الجوار التي اسمها «زهوة». وكانت الأسرتان تتزاوران دومًا ويجتمع أفرادهما، حتى نشب قبل شهورٍ خلافٌ بين العربي والبويهي، بسبب جدالٍ جرى بينهما عن الحروب التي وقعت بين صحابة النبي، وتطوَّر الأمر بينهما فانقطعت الصلات وحلت الوحشة مكانها. وما كان أحدٌ يدري بأن ابن هذا، هائمٌ بابنة ذاك. فلما اتضحت أمامه الأمور، سأل ابنُ سينا البويهي: ألا يمكن فض هذا الخلاف، تمهيدًا لتزويج العاشق الموله بمن يحب؟

ـ لا مانع عندي يا حكيم، لكن الخلاف خلفه خلاف. فهو من أهل السنة وعلى مذهب الماتريدي، وأنا كما تعلم شيعي.

ـ وما دخل ذلك بالعشق والزواج!

ـ التزاوج بين أهل المذهبين مكروه عند كثير من الناس، وممجوج.

ـ ما مجَّه إلا جهلهم يا سيدي. ولا يوجد مانعٌ عقليٌّ أو شرعي، يحول دون هذا الزواج الذي سينقذ ابنك من تعاسته، ويأتي إليك بالأحفاد.

ـ لا أدري يا حكيم.. وإن قبلت أنا، هل سيقبل العربي؟

ـ أخبره بأنني أود رؤيته واتفق معه على موعد، ونذهب إليه معًا. أو الأفضل من ذلك، سوف أكتب إليه رسالة وأطلب لقاءه.. أحضروا لي الحبر والورق.

في غمرة حماسته المفاجئة، كتب ابن سينا للرجل العربي رسالةً لطيفة. فقال البويهي لإحدى بناته، وبالأحرى لواحدةٍ من فتيات بيته، كان ابن سينا يظنها إحدى بناته: اذهبي أنتِ يا «روان» برسالة الحكيم، وسلميها لأبي قاسم التغلبي يدًا بيد..

بعد ساعة، عادت «روان» بالرد الذي لم يزد على كلمة واحدة، كتبها العربي على ظهر الرسالة: مرحبًا.. فاستبشر الشيخ الرئيس خيرًا، وابتهج أهلُ البيت وصاحبه، وفي الصباح التالي ذهب مع البويهي إلى بيت صديقه القديم.

دامت الجلسة ساعات، سمع فيها العربي بما جرى للفتى الولهان، فظهر عليه التأثر. شرد ذهنه لحظاتٍ بدا فيها متحيِّرًا، وبعد تردُّدٍ حزم أمره بقوله: يعلم الله أنني طالما أحببتُ هذا الفتى ونظرت إليه كأحد أحب أبنائي، والآن أحببته أكثر من ذي قبل، لأنه طاهرٌ في عشقه. وقد بذل من معاناة الكتمان ما كاد يودي بعقله، وهذا صار اليوم نادرًا، ولن أجد زوجًا لابنتي خيرًا منه. بشرطٍ واحد، أن يعدني أبوه بألا يقع في الصحابة مجددًا، ولا يعيب أبدًا أم المؤمنين «عائشة» أو طلحة أو الزبير، على الأقل في وجودي.

ـ أعاهدك يا أبا قاسم على ذلك، في وجودك أو في غيابك، لن أذكرهم أبدًا بسوء. فتلك أمةٌ قد خلت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

ـ بارك الله فيك، ونرجو من الله أن يجعلها زيجة وفاقٍ ومودةٍ ورحمة..

في طريق عودتهم إلى منزل البويهي، طلب منه ابنُ سينا أن يتمَّهل في إخبار ابنه بما تمَّ الاتفاق عليه، كيلا يطيش الفرحُ بعقل الفتى مثلما أطاح به الحزنُ سابقًا. فالتزم البويهي ونقل لابنه الأخبار منجمةً خلال يومين، كان ابن سينا خلالهما يسقي الفتى مع الأدوية المقوية، بعض المهدئات اللطيفة. ويواليه بالأشربة الممزوجة بالمفردات المفرِّحة للقلب والمعينة على انتظام النبض، كالنعنع والفوتنج.. وجرى الأمر على خير، وبعد أسبوعٍ عمَّ الفرح وابتهج الجميع.

كان ابن سينا خلال أيام المعالجة وإصلاح الحال، يلمحُ شغف الفتاة التي اسمها «روان» به، فيغض النظر وفق ما تقتضي الأصول، ويتحيَّر في تعلُّق عينيها بسكناته وتحركاته، وتسعده مسارعتها في تلبية ما يريد من قبل أن يطلبه. وكاد يميلُ، لكنه دفع عنه الخواطر فاندفعت، وبدا له أنها مجرد خواطر عابرة سرعان ما سوف تصير ذكريات شاحبة، وتنطوي صفحتها.. لكنها لم تنطوِ.

قبل عُرس الفتى الولهان ومحبوبته«زهوة» بأيام، تهيَّأ الشيخ الرئيس لمفارقة «قزوين» خشية دخول الشتاء الذي بدت بوادره. ويوم رحيله، قدَّم له البويهي بيد العرفان بالجميل، جملة هدايا وعطايا جزيلة، كان أهمها قوله لابن سينا: والله يا حكيم، لو وهبتك كل ما أملك، ما كان ذلك كثيرًا عليك ولا موفيًا حقَّك عليَّ، وزوجتي تقول إنها شعرت بأَنَ «روان» تعجبك، وهي تستحق بالفعل الإعجاب. هي مولَّدةٌ في هذا البيت، من أمٍّ أَمَة وأبٍ مملوك، وكلاهما من قبائل «جكَل» التركية، الشهيرة بحسن نسائها وطيب أخلاقهن. وقد نشأت «روان» بين بناتي كواحدةٍ منهن، وهي عذراءُ طاهرةٌ لم يمسَّها رجلٌ، ولم تختلط بأهل سوء قط. وقد وهبتها لك، لعلِّي أكون قد وفيتُ ببعض فضلك. وهاك رقّها..

***

بعد عودته إلى الري، ظل ابن سينا أيامًا يراقب «روان» ولا يقربها، فكان فقط يتابعها بناظريه من بعيد، كلما خطرت أمامه بخطوها الغزلاني الرشيق. هي تبدو في حدود العشرين من عمرها، وحُسنها هادئٌ.. قوامها منسرحٌ كالرماح السمهرية، وممشوقٌ مهفهفٌ، ونهداها عبقريان. وهي تميل إلى النحافة لا البدانة، وكان ابن سينا يظن أنه يميل إلى الممتلئات المكتنزات.. كان يظن في نفسه ذلك منذ أيام مراهقته وشبابه المبكر في بخارى، يعني منذ أيام «سندس» سامحها الله.

وما كاد يمر أسبوع، حتى ظهر أثر «روان» في المنزل الواسع الذي يسكنه ابن سينا في الريِّ، إذ سكبت عليه كثيرًا من رونقها ومما تعلمته من لطائف التزيين في بيت البويهي بقزوين. كان المنزل من قبلها بارد الزوايا، شاحب الأنحاء، فجعلته مزدانًا بالألق، ودافئًا يفوح دومًا بعبق البخور. وكان فراشه جافيًا فجعلته وثيرًا، معطرًا كل ليلة برحيق الرياحين وقطرات ماء الورد التي ترشها على الفُرُش. وكانت الشجرتان اللتان في ساحة البيت مُهملتين، يغطي فروعهما الورق الذي يبس في الخريف واصفرَّ، فشذبتْ وهذَّبتْ شكلهما.. سألته بصوتٍ خفيض فور عودته عصرًا من حيّ الوراقين: ما رأيك في الشجرتين الآن يا سيدي الحكيم؟

ـ هاه. قد صارتا رشيقتين مثلك، وجميلتين.

ـ كلامك عذبٌ يا سيدي.

ودَّ ابن سينا لو يطيل معها الحديث، حتى يطول استمتاعه بسطوع ابتسامتها ولمعان عينيها، لكنه تراجع وآثر الإسراع إلى غرفته المفتوحة على ساحة البيت.. بعد هنيهةٍ دخلت عليه «روان» وهي تحمل طبقًا فخاريًّا مستطيلًا، فيه ما يُستطاب من طعام الغداء. وحين انتهى من طعامه وجلس إلى الطاولة القريبة من شباك الغرفة، ليسطر مُسوَّدات قسم الطبيعيات من كتابه الكبير «الشفاء» جلست «روان» في مكانها المعتاد على الدكَّة التي بزاوية الغرفة، قرب الباب، وراحت ترمقه خلسةً مستغربةً سكونه وانكبابه على الأوراق.. قام لصلاة العشاء، فقامت وأعدت له الشراب الذي يحتسي منه رشفات في الأمسيات، ثم انزوت مجددًا في موضعها السابق. سألها عن سبب بقائها ساهرةً هنا كل ليلة، فأجابته بأنها تخشى أن يحتاج شيئًا في الليل، فلا يجدها. وهي حسبما قالت له، لن تستطيع النوم وهو مسهَّدٌ.

ـ لستُ مسهَّدًا، هذا انهماكي المعتاد في الكتابة.

ـ ومتى ترتاح؟

ـ راحتي في الكتابة. وهذه حياتي طيلة ما سبق من عمري، وما سيأتي.

ـ بارك الله في عمرك يا سيدي. وإن كان جلوسي هنا، لا يضايقك، فاتركني بقربك.

ـ كما تشائين. ولكن ماذا عليك من هذا، ما دام بإمكانك أن تستريحي بغرفتك!

ـ أخاف من نومي هناك، وحيدةً، وهنا أشعر بالأمان.

ابتسم لها ابنُ سينا ابتسامةً باهتةً، متردِّدةً، تفصح عن أنه لا يجد بأسًا في السماح لها بالنوم على الدكة القريبة من باب غرفته الفسيحة، وأنه راضٍ عنها لِمَا لمسه في الأيام السابقة من سكونها الهادئ وقُربها المريح.. وسرعان ما ردع نفسه، ولم يرد أن يتشوَّش ذهنه وتتوقف أفكاره عن التدفق، فقطع معها الكلام واستكمل ما كان يكتبه في المسوَّدات، عن حركة الأجسام في العالم الطبيعي. وكتب متمهِّلًا: الحركة القسرية يكون محرِّكها من خارج، وليس بمقتضى طبع المتحرك. ومنها ما يكون مضادًّا لهذا الطبع كما يحدث عند تحريك الحجر إلى فوق، ومنها ما يكون خارجًا عن الطبع في الكم. مثلما هو الحال في زيادة حجم الأورام، أو في الذبول والهزال الذي تُحدثه الأمراض، وأما الذبول الحادث بسبب التقدم في السن، وهو المسمى دِقُّ الشيخوخة، فإنه...

وهو يضع القلم في الدواة، التفت ابن سينا عَرَضًا ناحية «روان» فوجدها تنظر إليه باسمةً بعين الرضا، وقد غطَّت كتفيها بالدثار وشدَّته إلى صدرها. سألها إن كانت تريد بعض الشراب الباعث إلى الدفء، فاعتذرت شاكرةً ومؤكدةً أنها لا تعرف طعم هذه الأشربة، ولم تذق الخمر في حياتها.

ـ كم عمركِ الآن يا روان؟

ـ سبعة عشر عامًا يا سيدي، وبضعة أشهر، أنا لستُ صغيرة.

ـ ظننتكِ في العشرين.. هل تروق لكِ الإقامة في «الرَّيِّ»؟

ـ نعم، ما دمت يا سيدي تسكنها..

ساد صمتٌ تبادلا خلاله نظرات سريعة، حيرى، ثم كسر ابن سينا السكون بأن سألها إن كانت تشتاق إلى «قزوين» فقالت برقةٍ بالغةٍ وانكسارٍ يحتاج احتواءً وحضنًا: طبعًا أحنُّ إليها، لكنني كنتُ أعرف أنني سأفارقها يومًا، وقد لا أعود إليها أبدًا..

أثار قولها اهتمامه فاستدار بكرسيه إلى ناحيتها، وضحك بلطفٍ وهو يسألها: وكيف عرفت ذلك؟ أجابته وعيناها الحائرتان ترتاحان على أرضية الغرفة، قائلةً بصوتٍ خفيضٍ فيه حيرة: لا أدري يا سيدي، لكنني كنت أشعر بذلك وأراه في أحلامي طيلة العامين الأخيرين، وخصوصًا من بعد وفاة أمي..

ـ يرحمها الله.. وماذا عن أبيكِ، أهو حيٌّ؟

ـ لا أدري. أنا لا أتذكره، فقد ذهب إلى «أصفهان» أيام كنتُ رضيعة، ولم يعد من بعدها.

ـ وما الذي دعاه للذهاب إلى هناك؟

ـ قالوا لي في طفولتي إنه ارتحل عن «قزوين» بعدما أعتقه سيدي البويهي، ليعمل جنديًّا في جيش «الكاكويه»، وقالوا إنه انضم بعد ذلك إلى العسكر الأكراد، ثم انقطعت الأخبار وما عاد أحدٌ يعلم عنه شيئًا.

كان ابن سينا ومعظم الناس يعرفون أن «دشمنزيار» حاكم أصفهان الذي عُرف بلقب «الكاكويه» لأنه خال «السيدة» حاكمة الري، قد عانى لتثبيت دعائم حكمه الذي ورثه عنه ابنه «علاء الدولة» الحاكم الحالي لأصفهان.. وفي خضم حياة الكاكوية المليئة بالقلاقل، ثار عليه عسكرٌ من الكورد فقمعهم وقطع شأفتهم، ويقال إنه لم يترك منهم أحدًا حيًّا. روان إذن يتيمةٌ من الجهتين. وعندئذٍ لم يجد ابن سينا ما يقوله لها، وليس أمامه للمواساة سبيل، فقام ليحرك ساقيه بالمشي خطوات في ساحة البيت، فلحقت به «روان» بانسيابٍ مثلما يلحق بالسحاب الربابُ.

كان طقسُ الأمسية دافئًا على غير العادة في هذا الوقت من السنة، وكانت صفحة السماء أشد سطوعًا من المعتاد.. جلست «روان» على عتبة الحجرة، وراحت عيناها تدوران مع ابن سينا الذي راح يسري صامتًا، ثم اقترب منها بعد دورتين وجلس بجوارها. قالت: يا سيدي، لا تجلس على الأرض، سأحضر لك كرسيًّا.

ـ لا يا روان، لا أريد كراسيَّ. أريد أن تخبريني بصراحة: هل شعرت بخوفٍ، حين وهبك البويهيُّ لي؟

ـ يا سيدي الحكيم، كيف أخاف مما كنت أتمنى حدوثه.. وقد راجعتني سيدتي قبل أن تقترح على زوجها ما فعله، وسألتني إن كنت أحب أن أذهب معك، فخجلتُ ودسستُ نفسي في حضنها، وهمستُ لها قائلةً: ياليت.

ـ وما الذي دعاك إلى ذلك، وأنتِ تعرفين أنني رجلٌ تحوطه الكتب والمرضى، ليس لديه شغفٌ بالنساء.

ـ لأنك حنون، وسيدي البويهي قال لنا إنك أحكم أهل الأرض. فأحببت أن أكون معك، ولك، لأنني لن أجد لي سيدًا أفضل منك.

أحسَّ ابن سينا برغبةٍ في احتضانها، وشعر بأنها تود لو يفعل ذلك وما هو أكثر، لكنه لم يدر سببًا لتردُّده في الإقبال عليها. فهي مِلكُ يمينه، وحسناء، وحضورها يبهج الروح، وفي صوتها الرخيم رقةٌ فاتنة.. ومع ذلك كله، آثر

التريث.. مسكين.

***

خلال الأيام التالية والليلات، أخذ قلب ابن سينا يلين وينساب رويدًا إلى بستان «روان» وراحت روحه تنساق إليها وتميل شيئًا فشيئًا. فهو يرى في ملامح وجهها البريء الوضَّاح، تماوج الحب والحياء، وتدافع البراءة والرغبة، واضطراب الندف الثلجي حين تلعب به ريحُ الشتاء القارس.. كان ابن سينا مثل سماء شاسعة الاتساع، لا محدودة المدى، وروان هي السحاب الخفيف. النقي. الطاهر. غير أن الشيخ الرئيس كان يهاب اشتداد العشق، ويتوقَّى أعاصيره الهوجاء العاصفة بالتعقل الذي يستعصم به من النساء، وكيدهن، ومكرهن، ونعومة استبدادهن بالقلوب إذا احتدم الحب واشتدَّ فصار عشقًا قد يمتد ويعمق فيكون هُيامًا.. فقد مَرَّ بذلك مرةً ونجا، ولا يريد بعد مرور عشرين عامًا أن يعيد الكرّة مجددًا. بيد أنه اندهش من هذه المصادفة العددية، فهو حين تدلَّه وهام في حب «سندس» كان في عمر «روان» وكانت معشوقته في مثل عمره الآن. عجيب. وبعد إمعانه في تأمل الأمر، قال في نفسه: كلتاهما طرفا نقيض، فقد كانت «سندس» فاجرة النظرات والحركات، وروان حييَّة.. تلك كانت متينة البنيان يميل بدنها الملززُ ذو البشرة الخلاسية الساحرة، إلى الامتلاء المثير. وهذه بيضاءُ من غير سوء وآسرة الحسن، ورشيقة كأغصان زهر الياسمين. كلتاهما خطيرة، مع اختلافٍ تامٍّ فيما بينهما في الحسن والفتنة. وقد دلت التجاربُ على أن العلم يضيع والمعرفة تنسلب، بسبب محاسن النساء والفتنة الساكنة فيهن. كل فاتنٍ خطير. هذا ما توَّهمه الشيخُ الرئيس قبل إفاقته من خيالات الخرافات، ثم إدراكه أن كل فاتنةٍ حسناء هي مغامرةٌ، تستحق المخاطرة.

في الليلة الرائقة التي أسفر صباحُها عن يوم الأربعاء، سابع أيام شهر شعبان من سنة أربعة وأربعمائة للهجرة، كان ابن سينا جالسًا بغرفته على الدكة القريبة من الباب، حيث تنام «روان» في الأسحار. وأثناء غرقه واستغراقه التام في القراءة دخلت عليه «روان» باسمةً بإبريق الشراب، وعليها رداء بلون السماء. شفيفُ الحريرية، مزركشُ الأطراف، مؤطرٌ بشريط كحليٍّ لامع. وعن غير قصد أو بقصد، تركت ستر رأسها ينسلُّ من مشبكه، فكشف عن لمعان شعرها المذيل على كتفيها بضفيرتين. بياضُ وجهها ينير، واسوداد شعرها مبهج، وجميلٌ مثل كل ما فيها وشهيٌّ.. هل كانت تغويه؟

جلست قبالته فعاد بنظره إلى الكتاب، واستكمل قراءة أشعار «رودكي» من نسخته النفيسة المكتوبة بقلم نسخيٍّ جميل، ومضبوطة الأحرف بحركاتٍ رُسمت بحبرٍ أحمر قانٍ شديد النصوع، من النوع النباتي الفاخر، وكذلك كان الحبر الأزرق الذي كُتبت به الأبياتُ الرقيقة، القائلةُ بالفارسية ما ترجمته:

هام قلبي بعيون سلمى،
مثلما هام المجنونُ بضفائر ليلى.
حَلْواك يا حبيبتي
تذوب في فِيَّ، وتُذيبني مع الآهات وُحسنك، فاق جمال ملكة بابل الفاتنة
وعلى شفتيك، يتفتَّح زهر العُنَّاب
كأنه معجزة جرت على يد عيسى المسيح.

عاد ابن سينا بظهره إلى الوراء، وابتسم وهو يقول لروان إنها فعلًا أبياتٌ شعرية ساحرة.. سألته: ماذا تقول هذه الأشعار يا سيدي؟ أنشدها الأبيات بالفارسية فازدادت ابتسامتُها إشراقًا، وتقدمت إليه حبوًا وقبَّلت بحنوٍ قدميه. أدهشه ذلك منها، ورآها كالقطة حين تطلب الحنان بإلحاح، فأخذها من تحت إبطها وأجلسها إلى جواره. بدا وجهُها أبهى وأجمل حين اقتربت من ضوء القنديل. عيناها تبوحان بأنها مستسلمةٌ تمامًا، ومستأمنةٌ، وآمنة. لا خطر يُخشى منها. فالسحاب الخفيف، لا خطر منه على الأرض التي عطشت حتى تشققت واشتاقت للرِّيِّ. هي غديرٌ، ماؤه رقراقٌ صافٍ، وهو الآن ومنذ سنواتٍ ظمآن.. ببراءةٍ طفليةٍ قالت:

ـ ماذا تريد يا سيدي..

ـ لماذا صرتِ فجأةً أجمل!

ـ لا أدري. سيدتي بقزوين، كانت تقول إن الأنثى حين تحب، تصبح أجمل.

ـ هاه، قولها بليغ.. وماذا تقولين أنتِ؟

ـ أقول، يا سيدي، كيف تتمنى ما هو حاضر بين يديك؟!

رأى ابن سينا أنه قد صار يهوى وتتهاوى حصونه غير الحصينة، فيميل ويكاد ينهل، فتمهَّل. لم يعجبه إحساسه بأن أمره صار فُرطًا، وحاله يتشظى بين التشهِّي والتوقي. شرد لحظةً ثم قام من جوارها فوضع ديوان الشعر فوق الطاولة التي تحت النافذة، وعقله الوثاب يتأرجح وسط أسئلةٍ لا رابط بينها: كيف شَعَرَ «رودكي» بجمال محبوبته، وهو ضرير؟ وقصيدته هذه التي كُتبت قبل قرنين من الزمان، كيف تصف حُسن روان؟ لو أن «سندس» الآن حية، لكانت قد بلغت من عمرها الثامنة والخمسين، وترهَّلت جنباتها. جوهر الجمال واحد، والحسنُ هبةٌ منه يمنحها مبدعُ الكل للحسناوات، ليسحر بهنَّ عقول الرجال ويسلب رشدهم ويذهلهم عنهم. ما هذه السفسطة؟ وما الذي يمنعني الآن عن «روان» وهي مِلكُ يميني ومالكةُ زمام اشتهائي، وراغبةٌ فيَّ؟ إشباع مشتهاي منها، لن يجرفني مجددًا إلى منحدر الشلالات العشقية الهادرة. الحرمانُ هو الذي يقدح شرر العشق، ويشعل بالتمني أوار ناره فتلتهب، فتتحول حياة المحروم جحيمًا.. أما النوال، فهو مطفئ لهذا اللهب، وهو الماء العذب الجاري برقةٍ آسرةٍ بين البساتين وروضات الجنات. الماء سرُّ الحياة. لن أتحيَّر ولن أتمهَّل، فقد احتدم أمري واحتكم ولا معنى لأي تأخير.. جلس ابن سينا على طرف سريره، ودعاها بصوتٍ رقيقٍ قائلًا: تعالي إليَّ يا روان.. فأجابته هامسةً بصوتٍ أرق:

ـ طوع أمرك يا سيدي.

* * *

لم يفارق ابن سينا منزله لمدة ثلاثة أيام، لم يخرج خلالها من غرفته إلا نادرًا. وكذلك روان. عرف معنى النوال الذي لا يعقبه ندمٌ أو ألم، وأدرك معنى السعادة التامة، واكتشف فتوته التي كانت كامنةً تتوق إلى الاستعلان.. روان.. بحارٌ من تحتها بحار، وسماواتٌ فوق سماوات. حسنها بعضه ظاهرٌ، ومعظمه مخبوءٌ خلف الأردية، والحياء. فإذا تجرَّدتْ، وتجرأت، سلبت العقل بفرط الليونة والنعومة والبهاء. كل ما فيها فاتنٌ وساحرٌ بقدرٍ لا يقدر قلب المحب على الصبر عنه، ولا يكتفي منه بنوالٍ. خصوصًا وهي المُحبة، المانحة، السكرى بالكئوس وبالأنفاس الساخنة السابحة بشفتيه فوق حناياها، وكل أنحائها.

ما عاد ابنُ سينا وهو مفتونٌ، يدري إن كان ينهل من نهرها أم أنه ذاب في مياهه، فكلما ارتوى من رحيق حضورها الآسر في حضنه، وجد نفسه عطشانًا ومشتاقًا إلى النبع. والعجيب من أمرها معه، أنها كانت تفتح مغاليقه بغير مفاتيح، وتتفتح زهورها الخجلى إذا مسَّ أوراقها أو غصنها المتمايل بين ذراعيه، ومع ذلك لا تناديه إلا بسيدي الحكيم. حتى في لحظات التمام. ولا تنظر نحوه، إلا بعينٍ تستحي من تحرُّقها، ومن مَنْحها، ومن أنها تريد دومًا مزيد ذوبان.

ولأن الرجال مهما كانوا حكماء فإنهم لا يبرءون من الطيش الطفولي، أخذ ابن سينا يفكر في هذا المسرى الذي يسير إليه ويسري، باختياره، فتوهَّم أنه قد يتخفّف من شغفه المفاجئ هذا، بتفريق نظره.. وبعد شهر من غوصه المتوالي في بحار «روان» والتقاط اللآلئ، اقتنى ثلاث جاريات من القيان الحسان اللواتي يُجدن العزف والغناء. واختارهن مثلها من المولدات العائدات بأصولهن إلى القبائل التركية التي تسمى «جكَل» ويكتب اسمها بالعربية شجل. وكان فيهن فتاةٌ تلعب بمهارةٍ بأوتار العود والرباب، واثنتان تجيدان الغناء بالفارسية والعربية. والثلاث عذراوات. وظن أنه سوف يميل إليهن بعد حين، فيغترف من المناهل الأعذب، لكنه عرف مع مرور الأيام أن روان لا مثل لها ولا شبه، لأنه من حيث لم يتوقع.. عشقها، وهام.

وخلال الشهور التالية، الأهنأ، سكنت السكينة قلبه وامتلأ منزله بالبهجة. وصارت أوقاته موزعةً على منوالٍ واحد، في الصباح يعود المرضى ويصف العلاجات، ومن أوان العصر إلى أول الليل يجالس تلامذته ويُملي عليهم كتاباته، ويناقش معهم قضايا المنطق والفلسفة والإلهيات. وبعد صلاة العشاء، ينعقد مجلس الشراب والألحان والغناء. وقرب انتصاف الليل، يقوم منفردًا إلى غرفته، فينكبُّ على الكتابة وتبييض المسوَّدات والأمالي. ثم يختتم يومه بسويعاتٍ سريرية في حضن «روان» التي لا يمكن الارتواء التام من عذوبة نبعها، أو الاكتفاء.

أيامها، سألها مرةً ملاطفًا إياها، عن السِّرِّ في أنه لا يشبع منها ولا يرتوي. فدسَّت نفسها في حضنه، وضحكت خجلى. وسألها: وأنت، أما مللتِ مني؟ فأجابته بنظرةٍ تستحي، وبقولها: وهل يملُّ العصفور الهواء والطيران! واستخبرته يومًا إن كان يشتهي قيانه المملوكات، فضحك وقال: فيك كفاية. فانكسرت نظرتها وقالت برقةٍ آسرة: لك ما يحلو لك يا سيدي الحكيم، فأنا يكفيني منك أقل القليل..

وامتد هذا الحال قرابة سنة كاملة، كانت الأطيب أوقاتًا في السنوات الست والخمسين التي عاشها الشيخ الرئيس. وكان آنذاك يتردَّد كثيرًا على القصر الأميري بالريِّ، لمتابعة مداواته لحاكمها الرسمي الأمير «مجد الدولة» ابن الحاكمة الفعلية «السيدة خاتون» إذ كان يعاني من غلبة الوساوس السوداوية ونوبات الاكتئاب. فأخذ الشيخ

الرئيس يعالجه بألطف التدبيرات الدوائية والحيل الطبية والنفسية حتى تماثل للشفاء، وبعد برئه، أو بالأحرى في الفترة التي سكنت فيها علَّته، صار الأميرُ محبًّا لمجالسة ابن سينا ومؤانسته. وكانا يتكلمان أحيانًا في الحكمة والفلسفة، وأحيانًا في الإلهيات والأمور الأخروية. وفي يوم صيفيٍّ حار، عاد ابن سينا من عند الأمير مشغول الخاطر، فاستقبلته «روان» بلطفها المعتاد، وبالثياب الخفيفة.. تخفف مما يلبسه، وأزاح العمامة عن رأسه وجلس على سريره شاخص البصر إلى سقف الغرفة. راح يحدِّق في اللامرئي، وراحت «روان» تمرِّخ قدميه بزيت اللوز، وتختلس النظر إليه فتجده هائمًا في أفقٍ بعيد:

ـ ما الذي يشغل بالك يا سيدي الحكيم. أهي أحوال الدنيا؟

ـ لا، يا روان أحوال الآخرة.

ـ ماذا تقصد يا سيدي؟

ـ الأمير مجد الدولة، طلب مني تأليف رسالة عن المعاد، أشرح فيها فكرتي وما أراه صوابًا.

ـ وما هو «المعاد» يا سيدي؟

ـ يوم القيامة..

انقبض قلب «روان» وتلاشت ابتسامتها الطفولية الطيبة، ونظرت نحوه نظرةً وجْلى مليئة بالحيرة. فابتسم لها مطمئنًا، وأخذها بيده من تحت إبطها وأجلسها لصيقةً به وبأصابعه اليمني راح يجسُّ النبض من يدها اليسرى. ولما وجده مضطربًا، ضمَّها إليه فكادت تسكن في حضنه وتهدأ، لولا أنهما سمعا صوت التلامذة قد وصلوا، والخدم يدخلونهم إلى حجرة الدرس الواسعة، القريبة من بوابة المنزل. وقبل أن يفارق ابن سينا سريره لصلاة العصر والخروج إلى طلابه الخمسة، قال لروان: يمكنك الانضمام إلينا إذا أحببت.. فردَّت من فورها: أحب طبعًا.. وهمَّت لترتدي ثوبًا مناسبًا للجلسة، فلم تجد أنسب من عباءة سوداء من تلك التي يسمونها «الشادور».

جلس ابن سينا على كرسيه المعتاد وجلست «روان» عند قوائمه، وقبالة الشيخ الرئيس جلس أبو عبيد الله الجوزجاني وبجواره بهمنيار بن المرزبان، وخلفهما «ابن زيلة» وتلميذان آخران.. تأمَّل ابن سينا وجوههم المشرقة وألق الذكاء في عيونهم، وأخبرهم باسمًا أن «روان» ستحضر معهم هذه الجلسة، وقد تحضر غيرها إذا راق لها الأمر. ضحك «بهمنيار» ضحكةً لطيفة وقال مداعبًا: احذر يا شيخنا الرئيس، فقد ضمَّ الحكيم «فيثاغورس» النساء إلى مدرسته في «ساموس» فثار عليه أهلها وأحرقوا المدرسة.

ـ ليس عندي مدرسةٌ لتُحرق يا بهمنيار. المهم، صباح اليوم طلب مني الأمير «مجد الدولة» تصنيف رسالة مختصرة في الأُخرويات وما يتعلق بالبعث والمعاد.. وأفكِّر في كتابة مذهبي المستور في ذلك، لا المشهور. فما رأيكم؟

استغربت «روان» أنهم ابتهجوا جميعًا وتحمَّسوا للأمر، كأنهم لا يخافون مثلها من الكلام عن الموت وما بعده. وفرك «أبو عبيد» كفيه وابتهج كطفلٍ أُتحف بهديةٍ، وقال وقد جرفته الحماسة: إذن، سيكون كلامك بحسب المذهب المشهور المناسب للعوام، في كتابك «المبدأ والمعاد» ويكون مذهبك الفلسفي المستور في تلك الرسالة.. فلم تفهم روان من كلامه هذا أيَّ شيء، ونظرت باندهاشٍ نحو «بهمنيار» وهو يقول: أرى يا سيدي، قبل الكتابة، أن تكون جلستنا اليوم لبحث رؤاك الفلسفية فيما يتعلق بالمعاد، وما يمكن أن يثار ضد تلك الآراء من الاعتراضات،

والردود التي يمكن إيرادها على المعترض. فما رأيك يا سيدي؟

وافق ابن سينا على المقترح، وراح يورد لهم قبل عرض أفكاره مقدمات، منها أنه لا يجوز الاحتجاج بالنقل لدحض الحجج العقلية، لأن العقل مقدَّمٌ بالضرورة على النقل، باعتبار كونه الأعم في النوع الإنساني وكونه مناط التكليف وشرطه الأول.. احتارت «روان» من هذا الكلام لكنها بقيت ساكنةً، وأضاف ابن سينا ما فحواه أن النصوص النقلية وردت في الشرائع لخطاب العوام والجمهور، لا الخواص والعلماء، فأوجبت الضرورة ضرب الأمثال وإيراد التشبيهات لتقريب المعنى إلى الأذهان. لكن كثيرًا من الفقهاء والمتكلمين في الأمور الاعتقادية قطعوا على العوام طريق الترقي في الفهم، بإيهامهم أن النقل مقدَّم على العقل، وأنه لا اجتهاد فيما ورد فيه نص. وهذا يعني منع العقل عن النظر في ظاهر النص وباطنه، وهو ما ترتب عليه الخلطُ والتخليطُ في الاعتقادات، فتوهم الجهالُ أن ظاهر الشرائع حُجة. وهذا مزلقٌ خطير.

توقعت «روان» أن يعترض السامعون أو يطلبوا مزيدًا من الشرح والتوضيح، لكنها وجدتهم يهزُّون رءوسهم موافقين، فاندهشت منهم وهي لا تدري أن كل ما سبق، كان مجرد مدخل.. وخلال الساعات الثلاث التي امتد فيها الدرس، نفى ابن سينا القول بتناسخ الأرواح والاعتقاد بالميلاد المتجدِّد عقب الممات، وأورد أدلة عديدة على بطلان القول بالتناسخ. ثم عرض أمامهم رأيه في استحالة حدوث البعث الجسماني، انطلاقًا من أن المعقول الذي يؤكده المنقول ويتوافق معه، يؤكد أن النفس الإنسانية هي الأهم والأدوم وهي الجوهر الذي لا يعتريه التغير ولا النقصان، فقد يشيخ الإنسان وتتبدل أحوال بدنه وقد يفقد من جسمه أجزاءً طرفية كبيرة كالساقين والقدمين والذراعين والكفين، ولكن تبقى نفسه واحدةً غير منقوصة ولا متبدِّلة. ولا يعقل الأخذ بظاهر النصوص المخبرة عن التنعم البدني في الآخرة، فهذه صورٌ تشبيهية لتفهيم العوام، ومجاز لتقريب المعنى إلى عقول غير المتعلمين. ويبقى من قبل ذلك ومن بعده عدة حقائق، منها أن اللذات العقلية أعلى وأرقى من الجسمانية. وأن مبدع الكل سبحانه، لا يجوز في حقه التشفِّي من المخطئين، بالإمعان في تعذيبهم جسديًّا. فهذا محالٌ على البارئ، ولا يستقيم مع اعتقاد الخيرية فيه، وهو تعالى الخير المحض. والنيل فالحشر لا يكون للأجسام وإنما للنفوس، إذ الإنسان يكون إنسانًا بصورته النفسية، وليس بمادته الجسمية المشتركة بينه وبين سائر أنواع الحيوان. ولهذا خاطب البارئ النفوس لا الأجسام، بقوله في القرآن: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية.. ولم يقل يا أيها الإنسان، جسمًا ونفسًا! وعلى ذلك فالمعاد روحاني، وكل الأمور الأخروية إنما تتعلق بالنفس الإنسانية وليس بأجسام الناس.

ما كاد الشيخ الرئيس ينتهي من كلامه حتى احتدم النقاش وتفرعت المسائل عن الأصول والمجملات السابقة، فاختتموا الجلسة بوعدٍ باستكمال الكلام في الغد. وكانت «روان» الجالسة على الأرض عند قدمَي ابن سينا، تمسك سرًّا بطرف ثوبه وتقبض عليه بقوةٍ من حيث لا يشعر بها أحدٌ، كأنها بذلك تستعصم من خوفها الغامض على مالكها الحكيم المنهمك في الكلام، وهو غافلٌ عما يضطرب بداخلها.

تُرى، هل أدركت «روان» على نحو مبهم، بأن أقوال الشيخ الرئيس هذه، ستكون سببًا في إلصاق تهمة الكفر به؟ وسوف تصبح دومًا دليلًا عند العوام والكارهين له، يؤكد عندهم خروجه عن ملة الإسلام.

* * *

في أواخر شهر شعبان من سنة خمس وأربعمائة، تقلَّقتْ «روان» فجرًا فأقلقتْ نوم ابن سينا الذي ضمَّها إليه

وسألها عما بها، فهمست إليه بأنها رأت حلمًا غريبًا.. كأنها عادت إلى غرفتها في بيت سيدها البويهي بقزوين، فكانت فرحةً بذلك، ثم فزعتْ عندما تزلزلت الأرض تحتها وتهدَّمت الجدران، فوجدت نفسها وحيدةً وسط صحراء قاحلة، والريحُ من حولها تصرخ فتصم أذنيها وتذيب من الرعب قلبها.

كانت ترتجف وهي تهمس إليه بحُلمها، فأحاطها بذراعه اليسرى وقال لها بصوتٍ خفيض إن الأحلام صورٌ خياليةٌ لا يجب الخوف منها أو الفزع بسببها، فهي نشاطُ القوة المخيِّلة التي تتحرَّر حين تخمد القوى والحواس الظاهرة، وهي تعمل بلا ضابط أحيانًا، وأحيانًا تكون انعكاسًا للحالة الجسمية.. ثم قال: جسمك دافئٌ يا روان، وأظن أن ارتفاع حرارته الليلة وهذه الوساوس وأضغاث الأحلام، هي بسبب الطمث الشهري الذي أزف عندك موعده، فلا داعي للقلق من ذلك، وعليك في الصباح أن تُكثري من شراب الدارصيني دافئًا، وإن شعرت بوجعٍ أسفل بطنك فاستلقي على ظهرك، وضعي على موضع الوجع قربة ماءٍ ساخن، فهذه أمورٌ نافعة..

ظهيرة ذاك اليوم، وردت للشيخ الرئيس رسالتان إحداهما جاءته من مكانٍ بعيد، والأخرى أرسلته إلى مكانٍ بعيد. الرسالة الأولى بسيطةٌ، بعث بها البويهيُّ الساكن في «قزوين» يسلم فيها على ابن سينا ويستخبر عن حاله وحال «روان» معه، ويبشِّره بأن «زهوة» زوجة ابنه حُبلى وسوف تلد بعد أسبوعين، ودعاه إلى حضور احتفالهم بالمولود. قالت «روان» إن هذه الرسالة هي تأويل رؤياها، ولكن بالعكس. فابتسم ابن سينا.

بعد ساعة وصلت إليه الرسالة الأخرى من القصر الأميري، وفيها أن «السيدة خاتون» تستدعيه على الفور، فأسرع ملبيًا. جلس معها من العصر إلى ما بعد أوان المغرب، ومهمومًا عاد عِشاءً إلى «روان» ليخبرها بأن «السيدة» اختارته لأداء بعض المهام العاجلة في قزوين وهمذان. ولم يخبرها بالتفاصيل، تفاديًا لإثارة خوفها مما أخبرته به «السيدة». فقد وردت إليها أخبارٌ تؤكد نية «محمود الغزنوي» اجتياح الممالك البويهية، في الري وأصفهان وهمذان، والتهامها تباعًا. مستغلًّا حالة التناحر وعدم الوفاق بين الأمراء البويهيين، واختلال الأمور الأمنية في أطراف «قزوين» بسبب غارات المغامرين وقُطاع الطرق من الكورد والأتراك. ولهذا أرادت «السيدة» أن ترسل ابن سينا برسائل إلى البويهيين، والمرموقين من رجال الديلم، تدعوهم فيها إلى نبذ ما هو قائم بينهم من الخلاف اتقاءً للخطر القادم إليهم جميعًا. وأخبرته «السيدة» بأن محمود الغزنوي يراسل الخليفة العباسي في بغداد سرًّا، عارضًا عليه أن يرفع راية «السُّنة» التي تدين بها دار الخلافة، في وجه البويهيين الشيعة الذين أذلوا الخلفاء العباسيين وتعالوا عليهم. وقد أكَّد له الغزنوي في تلك الرسائل، أنه سوف يقضي على دولتهم التي دام سلطانها في فارس والعراق، لأكثر من مائة عام. وهذا كلامٌ يحبه الخليفة ويتمناه، ويجعل من «الغزنوي» الداعم الأول والساعد الأيمن للخليفة، وبالتالي يصير هو السلطان الوحيد للأنحاء الخوارزمية والفارسية والأفغانية والتركية، وأي مواضع أخرى يستطيع ابن سُبُك تكين بسط سلطانه عليها بقهر السيف.. سألته:

ـ هل ستأخذني معك إلى حيث تذهب؟

ـ طبعًا يا روان، طبعًا.

ـ ومتى سنرحل يا سيدي؟

ـ من الغد نحزم متاعنا وأمورنا، ونرحل يوم الأربعاء، فهو سيوافق الثالث والعشرين من هذا الشهر، لنضمن الوصول إلى «قزوين» قبل ابتداء شهر رمضان.

ـ وكم سنبقى يا سيدي هناك؟

ـ لا أدري الآن. ربما نقضي هناك ثلاثة أسابيع أو شهرًا، ثم يكون سفرنا من «قزوين» إلى «همذان» بعد عيد الفطر، وقد نستقر فيها لفترةٍ أطول إذا لزم الأمر.

***

لم تنجح جهود «السيدة» ولا تحققت أمانيها في توحيد البويهيين، ودفعهم للوقوف في وجه الغزنوي وأطماعه السلطوية التي لا حد لها. لكن محاولتها هذه أجَّلت المقدور إلى حين، وأُرجئت الأمور المحتومة سنوات معدودات، بعدها غزا الغزنوي بسيفه «الري» واستولى عليها وعلى ما حولها، بالخديعة، فدمَّر المكتبات وقتل العلماء ونشر رايات الظلام والظلم، ثم التهم بقية الممالك البويهية تباعًا.. وشاء القدر لابن سينا، أن يرى معظم هذه الويلات قبل وفاته.

***

في الصباح الباكر امتلأت جنبات البيت بالحركة، مع أول ضوءٍ للشمس، فقد راحت «روان» تحزم مع الجواري والخدم ما هو ضروري من المتاع، وتربط الكتب وتعدُّ العدَّة للرحيل الأخير عن الري. وتدور في رأسها الصغير كثيرٌ من الأفكار المتدفقة المتعارضة إلى حد التناقض، فهي فرحةٌ بزيارة موطنها الأول وقلقةٌ من اضطرارها للارتحال عنه مجددًا والذهاب إلى «همذان».. وبقدر ما هي متوثبةُ القلب نحو قزوين، هي آسفة على انتهاء أيامها الهانئة في الري، متوجسة مما ستجد في همذان.

في طريقه من غرفته إلى الحجرة التي كانت تنعقد فيها جلسات الدرس، سأل ابن سينا «روان» عن سبب شرود نظراتها، إذ وجدها تنظر إلى الشجرتين بذهول.. أعاد عليها سؤاله، فأجابت بأدبها المعتاد: لا شيء يا سيدي، أودِّع هذا المنزل الذي قد لا نعود إليه، وأخاف أن أنسى هنا شيئًا مهمًّا قد نحتاجه لاحقًا.

ـ ولماذا أرى دموعًا حبيسة في عينيكِ؟

ـ يا سيدي.. الفراق يُحزن القلوب، وقد عرفت البهجة الحقة هنا، ولا أدري ماذا ينتظرنا هناك.

ـ نأمل خيرًا يا روان، نأمل خيرًا.

كان «الجوزجاني» جالسًا في حجرة الدرس يفكر في سبب استدعاء ابن سينا له مبكرًا، ويتأمل الأحوال المحيطة به. وعندما أخبره الشيخُ الرئيس بأنه ذاهبٌ عن هنا إلى قزوين ثم همذان، لم يندهش، لأن استدعاء القصر الأميري على عجلٍ وعدم انعقاد جلسة الأمس، وتلك الرواحل التي أُنيخت في صحن الدار والحركة الكثيرة. كلها دلائل وعلاماتٌ على عزم الرحيل، وعدم الإياب في المدى المنظور.. ولم يسأل «الجوزجاني» عن الدواعي، لإدراكه أن أستاذه ما دام قد سكت عن التصريح إليه بسبب الرحيل المفاجئ، فالأمرُ لا يجب الكلام فيه على الأقل الآن، فاكتفى بسؤاله البسيط:

ـ هل أذهب معك إلى قزوين؟

ـ لا، الأفضل أن تسبقني إلى همذان وتنتظرني عند أخي عليّ، المقيم هناك..

ـ وماذا عن هذا المنزل، والجواري الثلاث والمماليك؟

ـ المنزل مُكترى، وسأعيده لمالكه. والمماليك والجواري، سأعتقهم.

ـ وماذا عن بهمنيار، هل يذهب معي إلى «همذان» وننتظرك هناك؟

ـ له أن يفعل ما يريد.

بعد صمتٍ مشوبٍ بالشرود، رأف ابن سينا بحال «الجوزجاني» وحيرته البادية، فأخبره باختصارٍ أنه مكلَّف بمهام أميرية توجب الرحيل. فلم يستطع «الجوزجاني» معه صبرًا، وسأله وهو متحرِّجٌ: هل لرحيلك يا سيدي، دخلٌ بما يتردَّد عن نية «محمود الغزنوي» غزو الريِّ؟ أومأ ابن سينا برأسه موافقًا، ثم نظر بعيدًا كمن يريد رؤية الآتي المتواري خلف ستائر المستقبل، فقال الجوزجاني بنبرةٍ فيها حسرة: سبحان الله، ألن يكف هذا الرجل عن الحرب وسفك الدماء، ما له لا يكتفي بما عنده؟

ـ من يجعل السلطة مُناه، والمال. لا يكتفي أبدًا.

ـ والعلم يا سيدي.

صباح اليوم التالي وقبل ارتحاله بساعة، أعطى ابن سينا للفتيات الثلاث والمماليك الأربعة، رقوق رِقِّهم. وكتب بخطه لكل واحدٍ منهم على ظهر رَقِّه شهادة عتقه، وختمها وأشهد على ذلك بعض الجيران.. عند المفارقة اختلطت في عيون الطلقاء دموعُ الفرح والشكر وحسرة الفراق ووفرة التقدير، فكانت أصدق وداع منهم للشيخ الرئيس ومحبوبته روان. وكان أبو عبيد الجوزجاني حاضرًا بصبيحة أفراح الحرية هذه، وسنحت له فرصة التهامس مع أستاذه الذي بدا سعيدًا. سأله:

ـ أراك يا سيدي مبتهجًا بتحرير هذه الرقاب، مثلهم. فهل كنت تشتري العبيد أصلًا، لتعتقهم؟

ـ الرقُّ والعبودية نقيضُ الطبيعة الإنسانية، لأن الناس متساوون في العقل والخلقة. ولولا هؤلاء الذين يوقدون نيران الحروب، لما كان هناك أسرى يباعون ويُشترون.

ـ لكن هذا موجود من قديم الزمان يا شيخنا الرئيس، ولا أحد ينكره.

ـ كان الناس في البدء أمةً واحدة، مثلما يقول القرآن. ثم نزع إلى السلطة أراذلُ البشر، فانتشرت الحروبُ ودفع الأبرياءُ ثمنها. لا يوجد يا أبا عبيد شخصٌ بمنأى عن الاسترقاق والعبودية، أنا أو أنت قد نقع يومًا في الأسر، ولا نجد من يفتدينا فنباع كالرقيق. أفلاطون، وهو الحكيم الإلهي، وقع في الأسر وتم بيعه كعبد.. وعمومًا، فإنني أرى في العتق قُربى من البارئ، وراحة للنفس.

ـ لكن أفلاطون قال إن أخلاق العبيد بطبعها رديئة. وأرسطوطاليس وهو الحكيم الأشهر، قال إنه يوجد عبدٌ بالطبيعة، يعني خُلق ليكون عبدًا.

ـ أرسطو معلمُ البشرية، لكنه أخطأ في هذا.. كل العبيد كانوا قبلًا أحرارًا، والمولَّدون منهم في الرق والأسر كان أسلافهم بالقطع أحرارًا. ودعك الآن من هذا الكلام، فأمامي سفرةٌ طويلة.

الأسابيع الستة في قزوين كانت رائقة الأوقات ومفعمة بالمباهج، وبالمشاعر الدافئة، فاستعاد ابن سينا رحيق الأحاسيس الأسرية المنسية. أنزله البويهيُّ في منزله، وأسكنه هو وروان في الحجرتين المفتوحتين على الحديقة الرحبة، حيث شجيرات الورود بديعة الألوان والرياحين الفواحة. وقد زها المكان، كأنه مبتهجٌ بالضيوف مثل

صاحبه الذي لم تفارق البسمة فمه خلال فترة الاستضافة. وأقام الولائم طيلة شهر رمضان، فكان يدعو خواص أهل قزوين والمرموقين منهم إلى الإفطار في بعض الأيام، وفي الأيام الأخرى يقتصر الإفطار الاحتفالي في حديقة المنزل على العائلتين اللتين صارتا واحدة: البويهي وزوجته الطيبة الذكية وبناته اللطيفات وأزواجهن، والأسباط الصغار، والجميلة الحبلى «زهوة» وزوجها العاشق الأنيق البديع «صفوان» وحموه وعائلته العربية.. وقد تدفقت ينابيع السعادة في الثالث عشر من أيام شهر الصيام، إذ ولدت «زهوة» صبيًّا أسموه اعتزازًا بجده لأمه «طاهر».

رأى ابن سينا أن بنات البويهي يتعاملن مع «روان» كأنها واحدة منهن، ويكثرن في الجلسات المسائية السامرة من التهامس والابتسامات واختلاس النظرات، مثلما تفعل الأخوات في حضرة الأهل. لكن عينَي «روان» كانتا دومًا تتعلقان بابن سينا وتلاحقانه، كأنه خاطبها لا مليكها المالك. وكانت تسرع لتلبية ما يريد من قبل أن يريده فتحظى بنظرات الرضا منه، ومن البويهيِّ وأفراد أسرته.وحين يختليان، يغمرها الخجلُ الذي يكون من البنات المزوَّجات، عند وقوع الوصال العشقي في بيت الأهل. إذ تتردَّد في البدء لحظات، ثم يدفعها إليه الاشتياقُ المتجدد دومًا، وتمنعه الشريعة طيلة النهار فيتأجل النوال إلى منتصف الليل، وإلى أواخره.. أيامها أدرك ابن سينا أن ما قرأه في كتاب «السعادة والإسعاد» لأبي الحسن العامري، ومن قبله رسالة الفارابي «تحصيل السعادة» ومن قبلهما ما قاله أرسطو في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس».. هذه كانت كلها محض عباراتٍ منمقة وكلام نظري، فالإحساسُ بالسعادة العميقة عجيبٌ، وليس بمقدور اللغة التعبير عنه بالمفردات، أو حتى الإلماح إليه. ولولا هيبة الفلسفة وقيود الحكمة، لكتب رسالةً موجزة عنوانها: السعادة اسمها روان! وقد ابتسم ابن سينا حين مرت بخاطره هذه الفكرة، وحمد «البارئ» على تلك الأيام التي رآها كالهبة الربانية والإحسان الإلهي.

وكانت أجمل هاتيك الليلات، هي تلك التي يأتي فيها «طاهر التميمي» وأسرته من منزلهم بناحية البشاريات، إلى منزل البويهي بناحية «الزهراء» للإفطار والسهر والسمر حتى أوان السحور. وقد ارتاح ابن سينا حين لاحظ عمق المودة التي تربط بين الرجلين وأفراد أسرتيهما، بعد الابتعاد عن متاهة المذهبية المقيتة. فأخذ يفكر فيما جرى بين البويهي الشيعي والعربي السُّني، وفي كيفية تخليص الناس من بلايا المنازعات المذهبية والتعصب. فلم يجد بعد طول تأمل إلا طوق نجاة وحيدًا، هو المحبة، لكنها عزيزةٌ بين الناس. وعند غيابها لا بد من ضابطٍ لأفعال العوام، هو الشريعة، ومن حاكمٍ لسلوك الخواص هو المنطق وأصول الحكمة الفلسفية.

وخلال إقامته القصيرة هذه في فردوس «قزوين» سلم ابن سينا رسائل «السيدة» إلى كبار البويهيين، وتحدَّث إليهم طويلًا موضحًا لهم الأخطار المحدقة بهم. لكنه لمس خلال لقاءاته الكثيرة بهم، أنهم غير مقدِّرين للويل المحوِّم فوقهم. ربما لاعتقادهم أن «قزوين» بعيدة عن يد محمود الغزنوي، وما هي في الواقع ببعيدة. أو لظنهم أن بإمكانهم الهروب من جيشه إذا جاء، بالاختباء إلى حين خلف الجبال القريبة، التي من المستبعد أن تعبرها الجيوش لتلاحقهم.. ولم يحاججهم ابن سينا في ذلك، واكتفى بدعوتهم إلى التفكير مليًّا بالأمر وعدم الاستهانة بالخطر الذي يبدو لهم بعيدًا، وهو في الواقع قريب.

قبل عيد الفطر بأيام، فوجئ ابن سينا بزيارة تلميذه «بهمنيار بن المرزبان» الذي عرج لرؤيته، وهو في طريقه لزيارة أهله الساكنين ببلدته الأولى، الواقعة جهة الشمال خلف جبال «قزوين» لقضاء أيام العيد معهم. وصل ساعة الغروب وأفطر معه ثم رحل مبكرًا في الصباح، وخلال الليل انفرد بأستاذه ساعتين أخبره فيهما بأنه سوف يلحق به في همذان عقب العيد، ولن يتأخر. وباح له بما يعتمل في نفسه من قلقٍ وتوجس، بسبب ذهابهم المرتقب إلى «همذان»

نظرًا للخلافات القديمة بين السيدة حاكمة الري، وحاكم همذان «أبي طاهر شمس الدين» مع أنهما بويهيان. فطمأنه ابن سينا بأن هذه الخلافات ربما تكون في طريقها إلى الزوال، لكن «بهمنيار» لم يطمئن تمامًا، فقال له ابن سينا إن بإمكانه البقاء في بلدته بأذربيجان حتى تستقر الأمور وتتحسن الأحوال:

ـ لا سيدي، سألحق بك مهما كان أو سيكون، فليس في حياتي شيء أهم من صحبتك والتعلم منك، فأنت قبس النور الوحيد الباقي في هذا الزمان المظلم.

ـ لا تبالغ يا بهمنيار.. وما هذه الأوراق التي بين يديك؟

ـ هذه كراساتٌ أسميتها «المباحثات» وقد كتبتها من خلاصة دروسك السابقة يا سيدي، وسوف أتركها لك لتنظر فيها وترى إن كانت وافية بمطلوبها، إن وجدت وقتًا لذلك. فأعرفُ رأيك لاحقًا، حين نلتقي في همذان، وكلها من كلامك معنا في علوم المنطق والفلسفة والإلهيات.

ـ هذه العلوم هي أطواقُ النجاة. هات ما معك، ونلتقي في همذان بعد أسبوعين أو ثلاثة.

ـ على خير يا سيدي، إن شاء الله وبتوفيقه تعالى.

ـ صار لسانك مسلمًا يا ابن المرزبان، فكيف حال قلبك وعقلك؟

ـ القلب قلقٌ يا سيدي، وحائر، وقد يبقى كذلك لأمدٍ مديدٍ قادم.

كان ابنُ سينا يعرف عمق الأحزان التي تعتصر قلب «بهمنيار» وقوة الأفكار التي تعصف بعقله، ففي أول لقاءٍ جمع بينهما في «الرَّيِّ» أخبره بهمنيار بأزمته التي أدَّت به إلى الخروج عن «الزرادشتية» ديانة آبائه وأجداده الأولين، مع أن أباه كان مرزبانًا. يعني رئيسًا من رؤساء «الزرادشتيين» مقدِّسي النار الذين يسميهم العلماء ثنوية، والعوام مجوس. في تلك الجلسة التي كانت قبل عامين قال له بهمنيار، وقد بدت في عينيه بدايات الدموع، إنه كفر بالزرادشتية وتحوَّل عنها لأنها انهزمت أمام الإسلام. كان نصُّ كلامه يومها: رأيتُ يا سيدي أن الديانة التي تُزري بأهلها، لا خير فيها ولا فيهم، لا سيما أنني لم أجد بها ولا بسواها اليقين. كل ما وجدته في الديانة الزرادشتية هو طقوس معقدة، وتأويل متكلَّف لما يسمونه أسرار النار.

يومها نصحه ابنُ سينا بدراسة المنطق وعلوم الحكمة، فالتزم بنصحه واستقام على طريق العقل. وبقي معه قلقُ القلب حتى وفاته سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة، بعد ثلاثين سنة عصيبة من وفاة شيخه الرئيس.

***

بعد العيد بعدة ليالٍ بديعة، انتقل ابن سينا من قزوين إلى همذان واستقر هناك مع «روان» في بيتٍ لطيفٍ بأطراف المدينة الزاهرة، كانت تحيط به البساتين وتقل حوله الدورُ والمنازل. وبعد عدة شهورٍ من إقامته الهادئة هناك، متوليًا أمور امرأة عجوز من الأثرياء لديها ضياعٌ واسعة وبساتين، كانوا يسمونها «البانو» وهي كلمة فارسية تعني بالعربية السيدة الرئيسة، وتعني كذلك: المحظية. بدأ الصخبُ يتعالى من حوله رويدًا، عندما اعتل حاكم همذان البويهي «أبو طاهر شمس الدين» وحار الأطباء في علاجه، فنصحوه باستدعاء ابن سينا للقصر الأميري، ففعل. ووجدها الشيخ الرئيس فرصة للاتصال بالمزيد من أمراء ومشاهير البويهيين، ومتابعة محاولاته في تهدئة ما هو ثائرٌ بينهم من الخلافات.

استجاب ابن سينا لدعوة الحاكم إلى قصره، فمكث هناك أربعين يومًا متتالية ظلت «روان» خلالها تتعذب لابتعاده، ويتعذب لعذابها. وخلال هذه الفترة، استطاع بالتدبير الغذائي والأدوية اللطيفة أن يشفى الأمير الذي كان ممعودًا، يعاني بشدة من أوجاع المعدة والمعاء. وقد أعجب به حاكمُ همذان فضمه إلى حاشيته المقربين، ثم عرض عليه أن يتولى الوزارة، فأخطأ ابن سينا وقبل بها.

في أيام وزارته، كانت أوقات الشيخ الرئيس موزَّعة بانتظام بين التردُّد على القصر الأميري نهارًا، ثم العودة عصرًا إلى حضن «روان» حيث يغفو سويعة، ثم يجلس من المغرب إلى ما بعد العشاء مع الطلاب الذين كانوا يجتمعون معه في منزله كل ليلة. فإذا فرغ من الدرس، صرف الطلاب واستدعى القيان والعازفين وكئوس الشراب، حتى يشتاق مجددًا إلى «روان» فيقوم مسرعًا إلى سريرها الفردوسي.. وفي غمرة هذه الشواغل، كان يختلس الأوقات فيكتب أجزاءً من كتابه الكبير، الذي سيفرغ منه بعد سنوات ويسميه: القانون في الطب.

وفي تلك الأيام، اشتهر ابن سينا بين الناس بلقب «الشيخ الرئيس» وكان بعضهم يدعوه «الوزير الحكيم» ومثل ذلك من ألقاب التشريف. وسارت أموره على ما يرام حينًا من الدهر، ولكن ظهر عليه شيءٌ من الهزال، وكان الجوزجاني قد ارتقى عنده رويدًا من مرتبة التلميذ، إلى درجة الصاحب والصديق؛ نظرًا لطول الصحبة وقصر الفارق بين عمريهما. مما سمح له آنذاك بلفت أنظار ابن سينا إلى ما بدا عليه من الهزال والضعف، فجاوبه بأنه لا يشكو من شيء، لكنه الإرهاق والشغف بالمجامعة التي لا يشبع منها، ولا يهدأ اشتياقه إليها.

ـ يا سيدي، هذا كثيرٌ، وأنت اليوم قد تخطيت الأربعين من العمر!

ـ وماذا يعني ذلك يا أبا عبيد؟

ـ يعني ضرورة أن تقلِّل من الانهماك في العمل، ومن الإنهاك الحادث عن مداومة المجامعة..

ـ لعله تعويضٌ عن سنوات الانقطاع، عمومًا، دعك الآن من هذا الكلام وقم إلى زوجتك وأولادك، ومُرّ في طريقك على منزل أخي «علي» فأخبره بأننا غدًا سوف نتغدى هنا. وأحضرا معكما زوجتيكما والأبناء، لأن «روان» تحب وجودهم وتسعد بالصحبة، وسعادتها تسعدني.

ـ حاضر يا سيدي، أمرك. ولكن اسمح لي بحق المحبة والود، أن أسألك، لماذا لم تنجب من «روان» حتى الآن؟

ـ لأنني لا أريد ذلك، وقلتُ لها أن تحتمل بدهن البلسان لمنع حدوث الحبل، وبشحم الرمان، فنجح هذا التدبير.

ـ ولماذا تتجنَّب الإنجاب يا سيدي؟

ـ قم يا جوزجاني إلى حال سبيلك، فقد أكثرت عليَّ الكلام.

ـ أمرك يا شيخنا الرئيس، وأرجوك أن تغفر جرأتي ولا تغضب مني.

بقي ابن سينا جالسًا بحجرة الدرس وأطال الشرود، حتى جاءته «روان» قلقة من طول انفراده بعد ذهاب جلسائه. قام معها صامتًا حتى دخلا الغرفة فأجلسها إلى جواره وضمَّها طويلًا، ثم سألها وهو ينظر في جوف عينيها الواسعتين الصافيتين، إن كانت تحنُّ للإنجاب؟ كان ابن سينا آنذاك، على الرغم من نبوغه النادر وعبقريته الفائقة، قليل المعرفة بطبيعة المرأة وسريرة النساء، ولولا ذلك ما سأل امرأةً كاملةً مثل «روان» مثل هذا السؤال.

أعاد عليها السؤال وهي واجمةٌ، فأجابته دمعتان انحدرتا برفقٍ فتَّان على خدَّيها الناعمين. وبدلًا من الكلام، مالت إليه وأسندت رأسها على كتفه، مستسلمةً، فأحاطها بذراعيه وتحدث إليها كأنه يهمس في نفسه.. قال: الأحوالُ مضطربةٌ حاليًّا في الأنحاء كلها، ورحى الحرب تدور في الأطراف، ولا يعلم أحدٌ ماذا سيأتي به الغد. فليس من الحكمة الإنجابُ في وقتٍ كهذا. هل تسمعيني يا روان؟

ـ نعم يا سيدي، أسمعك، وسأكون دومًا طوع أمرك.

***

صباح الخميس الخامس من شهر ذي الحجة، سنة ثمان وأربعمائة للهجرة النبوية، جلس ابن سينا مع الأمير شمس الدين بحديقة القصر وراحا يتباحثان في الأخبار العديدة، الواردة مع رؤساء العسس من الجوار ومن النواحي البعيدة. كان الصيفُ قد ابتدأ واعتدل الهواء. رسائل الجواسيس قالت إن قافلة الحجيج وصلت مكة بسلامٍ قبل يومين. وإن ابن حمود العامري، الذي انتزع السلطة من بني أمية في الأندلس بعد أن قتل خليفتهم المسمىً المستعين بالله، قتله خدمه الصقالبة الشهر الماضي، وخلفه أخوه «القاسم». وإن أحوال «الحاكم بأمر الله» الخليفة الإسماعيلي المتولي أمر مصر، صارت غير مفهومة ولا تبشِّر بالخير، فهو يُكثر من الخلوة الانفرادية بجبلٍ يحف بالقاهرة اسمه المقطم، تاركًا قصره وزاهدًا في معيشة الملوك، وهو على الرغم من قوّته وأحكامه الحاسمة لاً يستطيع مواجهة أخته الوقور «ست الملك».

كانا يتحدثان ويتباحثان في تلك الأمور، كأمير ووزير، ولما انتهيا من ذلك تحدَّث الأمير «شمس الدين» لابن سينا كأنه صديق يشكو لصاحبه. قال: يا بو عليّ، ما الحلُّ في أحوال العسكر المتقلبة هذه؟ أرى منهم كثيرًا يتآمرون ولا يأتمرون إلا خوفًا أو طمعًا، وهم لا يشبعون.. جاوبه ابن سينا بحماسٍ قائلًا: يا سيدي الأمير، الجند والعسكر مكانهم هو الثغور والحدود، ولا يجب أن يعهد إليهم بجباية الخراج أوً تحصيل المكوس والرسوم المفروضة على التجار.

ـ فما الحل؟

ـ الأعراض المرضية تُعالج يا سيدي، بأضدادها.

ـ فسِّر أكثر، فلا طاقة لي بهذه الرموز والإشارات.

ـ يا سيدي الأمير، العسكر بطبيعة عملهم قتلة، والقتل وخوض المعارك هو مهنتهم التي لا يعرفون غيرها. وهم لا يصلح أمرهم إلا إذا أُبعدوا عن المدن والقرى إلى معسكراتهم والثغور، فبهذا تزيد هيبتهم ويقل طمعهم.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ لا بد من ضبط رواتبهم وأعطياتهم، دون إفراط ولا تفريط. وعدم التهاون مع المخطئين منهم، وإثابة المجتهدين. ومن المهم تهذيب أخلاقهم، لتلافي ميلهم الطبيعي إلى الهمجية وسفك الدماء.

ـ هل يمكنك كتابة مقالة جامعة لهذه الأمور، لتكون دستورًا واجب الاتباع؟

ـ طبعًا، صباح يوم السبت سوف تكون المقالة بين يديك يا سيدي.

ما كانا يعلمان في جلستهما الهادئة هذه، أن جماعة من قادة العسكر الأتراك والأكراد كانوا في تلك اللحظة مجتمعين في منزل واحدٍ منهم اسمه «أرسلان» وهم يتناوحون فيما بينهم ويتميزون غيظًا. لأن الأمير اختار له وزيرًا من غير العسكر، على غير المعتاد، ولأن هذا «المتطبب» حسبما وصفوا ابن سينا. معتزٌّ بذاته، ولا يوقِّر الجند والعسكر بالقدر الواجب عليه تجاههم، بل ويستهين بهم. مع أن الأمير بدونهم لا يستطيع شيئًا، ولن ينفعه من دونهم هؤلاء الموالون له من الحرس الأميري المقربين له، من ذوي الأصول الفارسية الديلمية، فهم على الرغم من قوتهم وولائهم التام قلةٌ. وانتهوا من جلسة التآمر هذه، إلى أن ذلك الوزير المغرور الملقب بالشيخ الرئيس، لا بد من إزاحته حتى يصفو لهم وجه الأمير.

أوان الضحى من يوم السبت، خرج الأمير «شمس الدين» من القصر إلى حديقته حيث كان ينتظره ابن سينا، ومعه الكتاب المطلوب مدوَّنًا في سبعين ورقة من القطع المعتاد. تعجَّب الأميرُ من علوِّ همَّة وزيره، ونظر في العنوان متأملًا كتاب تدبير الجند والمماليك والعساكر وأرزاقهم وخراج الممالك.. بقي الأمير ساعةً يقرأ في الكتاب بعين الرضا، ثم نادى على أحد حُجَّابه وأمره بالإسراع بالكتاب إلى سوق الورَّاقين لنسخه على «الكاغد» الفاخر، وتوزيع عشرين نسخة منه على كبار رجال الدولة، والاحتفاظ بخمس نسخ في مكتبة القصر.. ابتهج ابن سينا بسبب رضا الأمير عن كتابه، وغاب عن ذهنه ما سوف يُحدثه من ويلاتٍ.

في اليومين التاليين، اهتاج الجند والعساكر بشدة بعدما بلغهم ما جاء في الكتاب، وتزايد اهتياجهم حتى بلغ مداه صباح يوم الأربعاء. فاجتمع فريقٌ من أراذل العسكر أمام ساحة المسجد القديم الذي بقلب همذان، وتصايحوا، واستجلبوا إليهم سفلة الناس فاحتشد في المكان مئاتٌ من الثائرين، وضاقت عليهم الساحةُ بما رحبت. وفي غمرة الاهتياج، زعق أحدهم قائلًا بصوتٍ جهيرٍ مشئومٍ، كنفير الحرب: اقتلوا ابن سينا، اقضوا عليه قبل أن يقضي عليكم.

هرول الجمعُ الهادرُ شاهرين سيوفهم، ومُشرعين العصى والخناجر، فهجموا على مقر إقامة ابن سينا.. قتلوا الحارسَيْن الواقفَيْن قرب بابه، واقتحموا المنزل الفسيح كالقصور وسلبوا كل ما فيه من متاعٍ، واعتقلوا المماليك الكثيرين والإماء العشر الذين يسكنون فيه واقتادوهم للخارج مقيدين بالحبال، ثم تناهشوهم في الحارة الضيقة المؤدية إلى المنزل الكبير من خلف، حتى ظفر كل واحدٍ منهم بضحيةٍ منهم ذهب بها هاربًا ليبيعها في موضعٍ بعيد.

لحظة الهجوم، كان ابن سينا بغرفته يرتدي طيلسانه ويتأنق للذهاب إلى القصر الأميري، وكانت معه «روان» وإحدى الخادمات. ارتاع الجميع من الجلبة العالية والصرخات التي وصلت من الطابق الأرضي، وفي غمرة الارتياع اقتحم الغرفة خمسةٌ من العسكر أو أكثر، وضرب أحدهم رأس ابن سينا بمقبض سيفه فأفقده الوعي. ولما استفاق وجد نفسه محبوسًا في حجرة يحرسها اثنان من العسكر، وبعد يومين من غموض المصير والمبالغة في الإهانة، أطلقوه. لأن الأمير «شمس الدين» لم يوافقهم على طلبهم قتله، وقال غاضبًا: أطلقوه ودعوه يخرج عن حدود همذان منفيًّا، وإلا تطاعن عسكر الديلم مع العسكر الثائرين، وجرى ما لا تُحمد عقباه.

وأصرَّ الأميرُ على رأيه، فذهب واحدٌ من أراذل الثائرين إلى البيت القديم المعتقل فيه ابن سينا، وقال لحارسيه: أطلقوه، فسوف يرحل منفيًّا، وإذا رأيتموه هنا مجددًا فاقتلوه.. وهكذا خرج ابن سينا من غرفة الحبس المعتمة، وهو لا يقوى على فتح عينيه في وهج النهار الصيفي، ولا يكاد يشعر بالركلات والصفعات التي أشبعوه بها حتى آخر الدرب المؤدي لموضع الاعتقال.

تماسك ابن سينا واستفاق قليلًا حين قادته قدماه إلى الرحبة الفسيحة التي بالناحية الشرقية من همذان، وهناك رأى أخاه «عليَّ» يتخفَّى في زيِّ الصوفية، وعلى مقربة منه تلامذته المقربون الذين كانوا يترقبون إطلاق سراحه، وهم يستترون عن الأعين داخل مسجد صغير. أسرعوا نحوه وساروا به حتى تواروا عن الأنظار في حيِّ الوراقين، القريب، ودخلوا في حانوتٍ منه فأغلق صاحبه عليهم الباب، لحمايتهم من بطش العوام والنهَّابين الذين عاثوا في الأنحاء وجاسوا خلال الديار.. نظر ابن سينا حواليه، فوجد أربعة غير صاحب الحانوت: أخاه عليا، وأبا عبيد الجوزجاني، وبهمنيار بن المرزبان، وأبا منصور بن زيلة.

قال صاحب الحانوت الذي كان يعرف ابن سينا ويجلُّه، إن خروجهم نهارًا ليس مأمونًا لأن الفوضى تعم المدينة وحوافها، والأصوب أن ينسربوا تحت ستر الليل ويبتعدوا عن همذان قدر الإمكان. وقال «عليٌّ» أخو ابن سينا: نذهب إلى أصفهان، ونلجأ لأميرها «علاء الدولة بن الكاكويه» ونستقر بجواره الآمن.. ووجم تلامذة ابن سينا الثلاثة، فلم ينطق أحدهم بأي كلمةٍ من شدة الهمِّ.

تلصص صاحبُ الحانوت من فُرجةٍ فوق الباب، وعاد ليهمس بأن الأنحاء خالية وبأن بيته قريب وسوف يذهب إليه لإحضار القوت للغداء.. مندفعًا قال عليٌّ: لا تذهب، لا نريد أن يفتضح المخبأ. فطمأنه الرجل وذهب فغاب عنهم ساعةً، وعاد بمخلاةٍ صغيرة فيها أرغفةٌ وقطعةٌ كبيرةٌ من الجبن وبعض الفاكهة المجففة. أكلوا في صمت، ولما اقترب موعد الغروب سأل بهمنيارُ عن الطريق الذي يجب أن يسلكوه، حتى يخرجوا بأمان من إحدى البوابات الأربع لهمذان، فأجابه ابن سينا بوجهٍ عابسٍ: لن نخرج من البلدة.. ارتجف بدن «عليّ» واجتهد ليخفض صوته وهو يقول لأخيه بلسان ملتاعٍ فَزِع: نبقى، أتريد أن تُقتل هنا، ونُقتل معك؟

ـ اسكت يا عليّ، اسكت ولا تتكلم مجددًا.

ـ بأمرك يا أخي الكبير..

تحت ستار الليل خرجوا من الحانوت يتلفَّتون، وساروا صامتين حتى وصلوا إلى منزل الشيخ «أبي سعيد» صديق ابن سينا، المعروف بين الناس في همذان بلقب «ابن دخدوك».. وهناك صرفهم ابن سينا، بعدما أوصاهم بالتواري عن الأنظار أيامًا، ريثما يهدأ الحالُ.

لم تستغرق الأمورُ طويلًا لتعود إلى ما كانت عليه، إذ أغدق الأمير على كبار عساكره، فارتضوا. وأفهمهم أن وزيره المغدور به لم يكن يريد بهم السوء، وإنما استجاب لما طلبه منه الأمير، من وضع قواعد تضمن الارتقاء بالجيش استعدادًا للمواجهات العسكرية المتوقعة قريبًا. وأسهم في تهدئة الأمور هروبُ حقراء العسكر وشراذم الثائرين، بما نهبوه يومها من منزل ابن سينا وغيره من المنازل والحوانيت، ولم يلاحقهم أحدٌ في غمرة الفوضى التي كانت سائدة. فانطوت الصفحة، وسرعان ما سارت الأيامُ بحسب سابق عهدها وكأن الكارثة لم تقع، ولم تعصف بعقل ابن سينا وتطحن قلبه.

امتدت الإقامة الاختبائية بمنزل «ابن دخدوك» أربعين يومًا، كان ابن سينا خلالها يسعى لمعرفة ما جرى لروان، دون جدوى. وبعد مرور شهر على الواقعة خرج وقد انتصف الليلُ، متخفيًا ومستترًا بالعتمة، إذ كان القمر ليلتها في المحاق. فذهب ومعه اثنان من خدم «ابن دخدوك» الأشداء إلى منزله المنهوب، وليتهم ما ذهبوا، فقد وجده ابن سينا كالخرائب ا لتي تقف في ظلامها الحوائطُ الحزينة كأنها الأشباح.. الناهبون أخذوا كل ما يمكن أخذه، حتى مصاريع الأبواب وضلف النوافذ. بل خلعوا من جوف الجدران المشاجب النحاسية، التي كانت تُعلَّق عليها القناديل. أين أنتِ الآن يا روان؟ جلس ابنُ سينا وسط الأطلال ذاهلًا، وأخذه وجدٌ شديدٌ دعاه في خاتمة المطاف إلى مخاطبة ربه في سره: يا مبدعَ الكلِّ، ما هذا الهوان. لماذا جئت بي إلى هذا العالم المعاند للخير، ولأي حكمةٍ أسكنتَ نفسي بجسدٍ جاء في زمنٍ معطوب. إن كانت غايتك من خَلْقي أن أعرفك، وأشهد بأنك البارئ، فقد عرفتُ ذاك وشهدتُ به. ولم تبق بقلبي ذرة من شكٍّ في عظمتك، سبحانك. وإن كان مرادك هو أن أعبدك ولا أشرك بك، فقد فعلتُ بقدر المستطاع. فأدركني برحمةٍ منك، وأعد إليَّ «روان» أو خذني من هذه الدنيا لأستريح. يا رحمن، يا رحيم.

يا واهب النُّهى والعقول، حُصوني انهارت جميعًا ومسَّني الضُّرُّ، ولستَ على الخير ببخيل. أعدها إليَّ أو أعدني إليك، فقد ضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبتْ، وأحاط بي الألمُ، فما عدتُ قادرًا على الاحتمال..

عندما اقترب الفجرُ، اقترب الخادمان من الشيخ الرئيس فوجداه جالسًا في سكونٍ وسط عتمة داره التي كانت عامرة، وهو يخفي وجهه في باطن كفَّيه ويهز رأسه بين الأمام والخلف، فقال له أحدهما: يا سيدي، سيخرج الناس لصلاة الفجر الذي دنا موعده، فدعنا نعود قبل أن يرانا أحدهم.

قام معهما مثلما يقوم الناقِهُ من مرضٍ أزمن، وترنَّح حتى كاد يقع إلى الأرض بسبب الدوار الذي أخذ بباطن رأسه حين استقام واقفًا.. كان ليلتها قد أتمَّ من عمره الأربعين، لكنه بدا للناظرين مع التعاسة والنحول، كأنه شيخٌ فانٍ.

مرت عشرُ ليلاتٍ حزينات، وفي ظهيرةٍ قائظةٍ اشتد فيها لفح الهواء. جلس ابن سينا وحده بالغرفة السطوحية التي آوى إليها، وراح يطوِّف بخواطره وهو يتأمل من بعيدٍ وريقاته التي فوق الطاولة، متردِّدًا بين إعادة كتابة هذه المسوَّدات من جديد، أو البدء في تبييضها، أو الكفّ للأبد عن التأليف والكتابة. هو لا يريد أن يبدأ أي شيء، ويود لو ينتهي كل شيء. وفي غمرة غيابه هذا، دخل عليه مضيفه ابن دخدوك وجلس قبالته ساكنًا، ثم قال:

ـ يا بوعلي، عندي أخبار. الأمير «شمس الدين» عاودته العلل، وهو يبحث عنك لتداويه. وقادةُ جنده يخشون موته في هذا الوقت العصيب، وهم يفتشون عنك في كل مكانٍ لتخلِّصه من أوجاعه المفرطة التي أقعدته، ويقولون إنك الوحيد العارف بطريقة شفائه.

ـ الشافي هو الله، أنا لا شأن لي. ألم يبلغك شيءٌ عن الذين أخذوا روان؟

ـ لا شيء يا صديقي، لا شيء. خاطفها خرج بها من همذان ولم يترك خلفه أي أثر، ومن العسير معرفة وجهته، ففوِّض أمرك إلى الله. فإن أردت التسرِّي، وهبتك واحدةً من الإماء المليحات أو الجواري الحسناوات.

ـ شكرًا لك يا أبا سعيد، لا رغبة لي في النساء.

ـ طيب، كما تحب. وقد مررت بك الآن لأخبرك بأن الأمير استدعاني على عجل إلى القصر، وأظنه عرف باختبائك هنا.

ـ هل تريدني أن أرحل عن منزلك؟

ـ لا يا أخي، حاشا لله. انتظر حتى أعود، وأخبرك بما سيكون.

عاد ابن دخدوك عصرًا ومعه كبير الحرس الأميري، وجماعة من الكبراء، وتوسلوا لابن سينا أن يذهب معهم إلى القصر عساه أن يخفف عن الأمير آلامه التي بلغت به مداها. إذ كانت قرحة المعدة وسحجات القولون قد أنهكت قواه، ومنعته من الأكل والنوم حتى كادت قواه تسقط تمامًا، فيفارق الحياة.

عالج ابن سينا الأمير بتدبيرات علاجية حكيمة، جعلته بعد يومين قادرًا على القيام من سريره والجلوس على عرشه بالديوان. وأمام الجميع اعتذر الأمير للشيخ الرئيس عما كان، وخلع عليه خُلعًا كثيرة، ورجاه أن يعود للوزارة، وتعهَّد له بالحماية التامة والسكنى في مقرٍّ فخمٍ ملحق بالقصر الأميري. وافق ابن سينا بعد أن انفرد بالأمير وحكى له بالتياعٍ ما كان من أمر روان، فوعده الأميرُ بأن يستعمل كل السُّبُل لإعادتها إليه، وسوف يبث خلف

خاطفها العسس والجواسيس والعساكر حتى يحضروه فيلقى من العقاب ما يستحقه.

ـ لا سيدي الأمير، لست مهتمًّا به أو بتوقيع العقوبة عليه، لا أريد إلا عودة روان.

ـ ستعود يا بو عليّ، ستعود.. فلا يمكن أن يكون الخاطفُ قد ذهب بها بعيدًا.

كان ذلك ما قاله الأمير شمس الدين، بثقةٍ، لكن الخاطف كان قد ذهب بروان بعيدًا.. فبعد يومين أخبر الأميرُ وزيره بأن خاطف «روان» واحدٌ من سفلة العسكر، كان يسمي نفسه «شيرفان»، لكن اسمه الحقيقي «طاز»، وهو من الترك الجراكسة، وقد خرج من همذان بالمخطوفة عصر يوم الفاجعة ومعه بعض المال المنهوب، فعبر الجبال وذهب إلى «أسد آباد» فأقام بها شهرًا ثم رحل عنها. وقد أراد بيع روان هناك، فلم يرضوا شراءها منه بدون الحصول على رَقِّ العبودية الخاص بها، فخرج وهي معه قاصدًا كرمان. أو هكذا قال لمن حوله. وقال لهم أيضًا إنه ينوي اللحاق بجيش محمود الغزنوي، ليجاهد مع المحاربين لنشر الإسلام في الهند.. ومن يوم خروجه من «أسد آباد» انقطع خبره، وفُقد تمامًا أثره.

وجم ابن سينا، وجمد، فما كان بإمكانه البكاء أو التأوه متألمًا في حضرة الأمير. ما كانت لديه القدرة على الكلام، وما كان عنده ما يمكنه البوح به، فاستعصم بالصمت وبالذهول.. قام الأميرُ وهو يقول: سيعوضك الله خيرًا منها يا بوعليّ، قُم لصلاة العصر فقد ختم الإمامُ الأذان.

لأنه صلَّى بالقصر وهو مذهولٌ لا يعقل ما يفعل، أعاد ابن سينا تأدية صلاة العصر بغرفة نومه عندما عاد إلى مقر إقامته، وفي غمرة السجدة الأخيرة التي أطالها، أُلهم بأمرٍ مريرٍ أتاه على نحوٍ خفيٍّ لكنه باهرٌ وقوي، إذ سمع في قلبه صوتًا يشبه الشواش الحادث من حفيف أغصان شجرٍ خريفيٍّ، كثيفٍ، يهمس له بنبرة الواثق المقتدر قائلًا: استفق يا حسين، فقد وقع المقدور، ولن ترى «روان» مرة أخرى.

على الدكة الحجرية، عندما أخبر «المزدوجُ» ابن سينا ببساطةٍ، أنه سبق له رؤية «روان» فوجده يهب واقفًا مذهولًا، وقد عصفت به هوجاءُ الأعاصير، واعتصرت قلبه قبضةٌ من حديدٍ قديمٍ صدئ. استغرب المزدوجُ ما جرى للشيخ الرئيس فجأةً فأطاح بوقاره، والهدوء المعتاد منه، فبقي جالسًا بسكونٍ حتى استعاد ابن سينا ذاته من بعد الذهول. وعاد للجلوس إلى جواره وهو يجتهد لضبط مفرداته ومشاعره، ويحاول ترتيب الأسئلة الكثيرة التي احتشدت دفعةً في رأسه. قال له: عفوًا يا أخي منصور، لا تؤاخذني على انفعالي، فقد فوجئت بذكرك لاسمها، وأنا.. أقصد أنني.. أين رأيت روان؟

ـ عند بوابة القلعة.

ـ متى.. هل كان ذلك في منتصف الصيف، قبل عامين؟

ـ لا يا حكيم، كان في ابتداء الشتاء، وسوف أقصُّ عليك كل ما جرى.

حكى المزدوجُ أنه عند دخول شتاء العام العاشر بعد الأربعمائة للهجرة، هبَّت قبل موعدها عواصفُ جليدية ممزوجة بالمطر الثقيل وحبَّات البرَد، وامتد العصفُ يومين انتثرت بعدهما الثلوج وغمرت النواحي. وفي تلك الأثناء، جاء «الزعاق» ظهرًا ليقول للمزدوج إن جنديًّا يجيد الطعن بالرماح، وفد عليهم ليطلب عملًا بالقلعة. وقد اختبره «الزعاق» فوجده ماهرًا في القتال، ويجيد استعمال الرمح، ولذلك فهو ينصح بضمه إلى عسكر القلعة عساه يكون مفيدًا. وقال الزعاق إن الجندى اسمه «حيدر» وإنه ينحدر من أصولٍ كردية، لكنه نشأ وسط قبيلة تركية تعيش قرب جبال أذربيجان، ومعه أَمَةٌ يمكن أن تخدم نظير أجرٍ زهيد. وختم الزعاقُ حديثه للمزدوج بقوله: الرجل موجود أمام باب القلعة، وسط الصقيع، فهل ندخله إليك يا سيدي لتراه وتقول لنا ما تقرره بشأنه؟

ـ لا يا صفوان، فقد يكون جاسوسًا جاء يتحسَّس الأحوال، سأخرج بنفسي لأراه.

أمام باب القلعة نظر «المزدوج» في وجه المرأة الشاحب، فأدرك أنها مع هزالها هذا، لن تقوى على الخدمة. وانتحى جانبًا بالوافد بها حتى انفرد به، وقال له بوجهٍ عبوسٍ وهو يضع كفّه على مقبض سيفه: أرى أنك شخصٌ خبيثٌ، ولن يشفع لك عندي لعبك بالرمح. فأخبرني بحقيقة الحال، وبخبر هذه المرأة. وإذا كذبت عليَّ في كلمة واحدة، فسوف أحزُّ عنقك من فورى، ومن دون مراجعة.

ارتجف الجبانُ وقال بلسان يتلعثم إنه جركسي الأصل، لكنه لا يعرف أبويه، لأنه خُطف منهما صغيرًا. وقد اختار لنفسه اسم «حيدر» ويريد أن يخدم بالقلعة ويعيش فيها، لأنه لا مأوى له. قال: وهذه المرأة اسمها «روان» وقد غنمتها في غارةٍ على مخبأ لقطاع الطرق في نواحي بلدة «دستجرد» فقد استأجرنا أهل القرى هناك لتخليصهم من شر قُطَّاع الطريق. وهي الآن هزيلة وتكسوها صُفرةٌ لأنها حُبلى بولدي، لكن حملها لم يستعلن بعد لأنها في الشهر الثالث منه.

شعر المزدوج بأن الرجل يكذب، لكنه لم يجد حجةً عليه.. ولأنه كان يعاني وقتها نقصًا في عدد الرجال، إذ كان عشرة منهم قد فارقوا القلعة لتأخر رواتبهم بسبب الاضطرابات التي وقعت بهمذان في منتصف الصيف. قال المزدوج للرجل الوافد بالمرأة: لا بأس، سوف أسمح لك بالبقاء هنا شهرًا أو شهرين على سبيل الاختبار، وإياك أن يصدر منك ما يغضبني، أما المرأة التي معك فلا مكان لها هنا ويمكنك أن تُسكنها بإحدى قرى الرستاق القريب،

فهو يبعد عن هنا ساعتَي سير.

بعد يومين عاد الرجل المسمي نفسه «حيدر» منفردًا، وأخبر بأنه باع المرأة التي كانت معه لتاجرٍ عابر بالرستاق كان في طريقه إلى سمرقند، فاستدعاه «المزدوج» وسأله كيف يفعل ذلك بالحبلى منه. فقال إنه اضطر لبيعها بثمنٍ بخسٍ، لأنها لم تعد تستطيع أن تخدم نفسها بسبب ضعفها، وهو لا يستطيع الإنفاق عليها بسبب فقره المدقع.. وبكى، وناح، فصرفه المزدوجُ من أمامه متقززًا منه.

احتار ابن سينا فيما سمعه واختلطت عليه الأمورُ، فسأل «المزدوج» أسئلةً كثيرةً متتالية، كان آخرها: هل يمكنني رؤية هذا الرجل؟ فأجابه المزدوج: في الحياة الآخرة، بعد عمر طويل يا حكيم، فقد هلك الرجل.

ـ هلك.. كيف؟

ـ قتلته بيدي هذه، فقد سرق عشرة دنانير..

ـ قتلت رجلًا، في عشرة دنانير!

ـ هذه قصة طويلة، سأحكيها لك أثناء الغداء.

خرج المزدوجُ بابن سينا من باب الساحة الخلفية، وتبعه الخادمُ الذي كان يقف منكسر الخاطر عند الباب، وعبروا من الممر الذي فوق السرداب إلى الساحة الأمامية، حيث كان طعام الغداء ينتظرهما بحجرة «المزدوج» الذي قصَّ عليه هناك بقية القصص.. أخبره بأن جنديًّا كان قد اشتكى ضياع عشرة دنانير كان يدخرها، ولم يتهم أحدًا بسرقتها. وبعد أسبوعين كان الركابيُّ الذي يأتي بالمؤن والزيوت، في طريقه إلى خارج القلعة بعدما أفرغ حمولته ولكنه كان مرتبكًا على غير عادته، فاستراب به الجندُ وفتشوه ودققوا. فوجدوا حول وسطه نطاقًا من الكتَّان، مخبوءة فيه الدنانير العشرة التي كان شهران قد مرّا على اختفائها. واعترف الركابي وهو مرعوب بأن هذا «الحيدر» اتفق معه على إخراج المبلغ من القلعة وتسليمه إليه بعد يومين في الرستاق، لقاء دينارين. ومن سوء الحظ أن «الزعاق» علم بالأمر أولًا، فصخب واهتاج وماج، حتى انتشر الخبر بين الجميع. واعترف السارق على الملأ بجرمه، فكان لا بد من عقابه علانيةً حتى لا يختل النظام فيُخترمُ القانون. قال المزدوج: لو علمتُ بالأمر قبل اشتهاره وانتشاره، لكنتُ قد عاقبت هذا الحقير بقسوةٍ، ثم طردته من القلعة. أما وقد علم الجميعُ هنا بما جرى، فقد وجب تطبيق عقوبة الخيانة وهي القتل، وإلا استخف الآخرون وسقطت من أعينهم هيبة «القانون» أضاف المزدوج: كان لا بد من عقابه بحزمٍ فالهيبة يا حكيم هي الهيئة الحافظة، والقانون هنا هو ضابط الأمور..

بعد عدة ليالٍ استعاد ابن سينا كلام المزدوج، بعدما كان قد استفاق قليلًا من صدمته. فتوقف عند كلمة «القانون» متأملًا دلالتها البعيدة، فوجدها مناسبة لتكون عنوان كتابه الكبير في الطب، الذي كان قد وضع كثيرًا من مسوَّداته ولم يعنونه بعد، إذ بدا له أن للتوازن قانونًا واجب المراعاة في أحوال البدن، مثلما هو لازمٌ في شئون الناس بالقُرى والمدن.. وقد أخبره المزدوج بأن «حيدر» المحكوم عليه بالإعدام، أخذ يصرخ طالبًا الرحمة. وقال في غمرة صراخه والعويل، إنه يعرف أشياءً لا علم لأحدٍ بها. فطلب منه المزدوج التصريح بما عنده، لعل ذلك يشفع له. قال إنه علم أن محمود الغزنوي يعد العدة لغزو نواحينا هذه، فضحك العسكر، لأن الجميع كان يعرف ذلك. وقال: سأخبركم بأشياء أخرى! فضربه الزعاق بخشبة كانت بيده، وصاح فيه: كُف عن المراوغة يا كذاب.

لازدحام الهموم عليه انشغل ابن سينا عن طعام الغداء، وبقي يستمع بأسى لما يحكيه المزدوج. ولمَّا ألح عليه الأخيرُ كي يتناول شيئًا من الطعام، اعتذر منه الشيخ الرئيس مؤكدًا أنه لا يريد إلا سماع بقية ما جرى. فأكمل المزدوج الحكاية، وقد راعه ما يراه من ألمٍ في عينَي ابن سينا. قال: اعترف هذا الكلبُ يومها بما غاظني منه أكثر، إذ أخبرنا بأن «شروس» قائد المائة بهمذان، اتفق معه سرًّا على تهييج الجند ضد الوزير ابن سينا، ثم الهجوم على منزله ونهبه. والمرأة التي كانت معه وباعها للتاجر السمرقندي، سلبها من بيت الوزير وهرب بها وبمبلغ من المال، سرقه يوم الثورة من خزانة حائطية ذات ضلفة خشبية، كانت في غرفة نوم الوزير.. واعترف لنا بأن اسمهُ الحقيقي «طاز» وكان يسمي نفسه في همذان «شيرفان»..

شرب المزدوج بقية كأسه دفعةً، ثم أضاف: كان هذا البائس اليائس يظن أنني سأُبقي على حياته، لأستخدمه ضد «شروس» الذي يعرف الجميع أننا على خلاف، لكن كلامه أثار غيظي فسللتُ سيفي وضربتُ عنقه أمام الجميع.. يعني انتقمت لك منه يا حكيم، من قبل أن ألتقي بك.

ـ ما كنتُ أريد الانتقام يا منصور، كنتُ ومازلت أريد إنقاذ المسكينة من مآلها المشئوم هذا.. هل سأجد إلى ذلك سبيلًا؟ حين يُطلق سراحي من هنا، سأذهب للبحث عنها، فربما..

ـ يا حكيم، مهلًا. فالجند أخبروني أيامها، بأن هذا الحقير باع محبوبتك فعلًا لتاجر سمرقندي، و أنت تعرف أن «سمرقند» صارت اليوم في يد الغزنوي، وجواسيسه يجوبون الأنحاء. والكلُّ يعرف أنه يتمنى الظفر بك، لينتقم منك ويجعلك عبرة، لأنك أهنته وخالفت أمره ورغبته في إرسال العلماء إلى «غزنين»، بل وسخرت منه. وهو رجلٌ قاسٍ لا يرحم، ولا يحترم الحكماء والعلماء، فلا تضع نفسك بين يديه.

نظر ابن سينا حواليه متحيِّرًا وهمَّ بالقيام من حجرة المزدوج إلى حيث لا يعرف، فشعر به جليسه وسأله بلطف: يا رئيس الحكماء، يعلم الله كم أقدِّرك وأُجلَّك، لكنني أستغرب بعض مواقفك. فمثلًا، ما الذي دعاك لقبول الوزارة الثانية للأمير شمس الدولة، ثم رفض الوزارة الثالثة بعد وفاته، حين عرضها عليك خليفته «سماء الدولة» وقائد جنده تاج الملك؟ وكيف اشتهر عنك الولع بالنساء، مع أنك فيما أرى عاشقٌ مخلص للذكريات!

هزَّ ابن سينا رأسه بحسرة، وظهرت على وجهه مسحة من الاصفرار والكمودة وهو يرد على المزدوج بقوله: ويعلم الله أنك رجلٌ طيب القلب، فأنت تريد مسايرتي في الكلام كيلا تتركني لأفكاري، وهذا يدل على كرم أخلاقك. وعلى كل حالٍ، سأخبرك: أما الوزارة الثانية فقد قبلتُ بها لسببين، حتى لا يقال إنني خرجتُ من «همذان» مخلوعًا، منهوب الدار. والسبب الأهم، لكي أجد وسيلةً مناسبة وسبيلًا سريعًا للعثور على روان. وأما الوزارة الثالثة، فرفضتها لأنني ما عدت أطيق البقاء بهمذان، وكنتُ قد نويت الرحيل إلى «أصفهان» بعدما أمست المدينة كئيبة الأنحاء بعد وفاة الأمير، وبعدما يئست تمامًا من الوصول إلى روان.

ـ سبحان الله. هذا يعني أنك كنت تعشق هذه الجارية عشقًا جارفًا، فكيف يتفق ذلك مع ما عُرف عنك من شغفك بالنساء! وما اشتهر من أن منزلك بهمذان أيام وزارتك الثانية كان فيه إماءٌ حسناوات وجوارٍ كثيرات، وقيل إنك كنت تكثر من مجامعتهن.

ـ نعم، هذا صحيح. فقد أهداني الأمير بعضهن، واشتريت الأخريات. وكنتُ في مبتدأ الأمر عازفًا عنهن، ثم تولاني حالٌ سوداويٌّ فأكثرتُ معهنَّ من المجامعة، وانهمكتُ في ذلك كالسوداويين.. ربما، سعيًا مني لاستنفاد

القُوى وإخماد الثوران الهادر بداخلي.. لا أدري، ربما كنتُ أفتش فيهن عنها، أو أحاول معهن نسيانها، أو أسعى للعثور على امرأةٍ مثلها.

ـ وهل وجدت؟

ـ لا، فلا توجد امرأةٌ مثل روان.

ـ كيف يصح ذلك يا حكيم، وقد رأيتها فلم يلفت نظري أي شيء فيها!

ـ يا أخي، أنت رأيت أسيرةً طوَّف بها خاطفها بين البلاد شهورًا. أنت لم ترها، ولم تنظر نحوها أو تلمحها مثلما كنتُ أفعل.. ولم... هل تسمح لي بالذهاب إلى غرفتي؟

ـ طبعًا، طبعًا. لك ما تريد يا حكيم.

ـ حكيم محبوس.

ما كاد ابن سينا يغلق خلفه الباب ويستلقي على سريره، تاركًا خياله يتطاوف بين الأفكار والحسرات، حتى سمع صوت «الزعاق» المزعج ينادي عليه من خلف الباب: يا حكيم جاءك زوَّار، والآمر منصور سمح لهما بالدخول إليك..

هبَّ ابن سينا من رقدته، وفتح الباب متعجلًا فوجد الزعاق واقفًا لدى الباب ومن خلفه أخوه «عليّ» وبجواره تلميذه وصاحبه أبو عبيد الجوزجاني.. جلسا معه ساعةً أخبراه خلالها بما آلت إليه الأمور في «همذان» من اضطرابٍ وفوضى، وبأنهما ينويان البقاء بالقرب منه فيسكنان بزوجتيهما والأطفال في الرستاق حتى يتحرر من حبسه هذا. وامتدحا شيخ الرستاق الذي يُقال له «أبو طاهر» إذ كان كريمًا معهما.

ـ هو رجلٌ فاضلٌ فعلًا..

سكت ابن سينا لحظةً وشخص بنظرته إلى بعيدٍ، قبل أن يضيف بنبرةٍ هادئةٍ حاسمة أنه لا يرى من الصائب بقاءهما بالأسرتين في الرستاق. فلا أحد يعلم متى ستنتهي فترة الحبس، إذا انتهت ! وقرى الرستاق مرتعٌ للجواسيس الغزنوية ومحطٌّ للعابرين إلى كل الجهات، ولا يؤمن بقاء أخيه «عليّ» هناك بعدما عُرف عنه أنه داعٍ من دعاة الإسماعيلية.. قال عليّ بن سينا للحسين بن سينا: هذا يا أخي الحبيب مذهب الموحدين، وقد دعا إليه أبونا من قبل، وأنا سائرٌ على دربه.

ـ الزمن اختلف يا عليّ، فدعك من هذا اللجاج، والتزمْ بما سأقوله لك.

ـ أرجوك، لا تغضب. قل ما تراه صوابًا، ولسوف ألتزم به.

ـ تذهب أنت وأبو عبيد إلى أصفهان، فهي الآن الأوفر أمانًا لكما. واشتغلا هناك بتدريس المنطق وعلوم الحكمة، وعليكما بالابتعاد تمامًا عن الخوض في المذاهب والخلافات العقائدية.

ـ ولكن، أنا لا أحد يعرفني هناك، وليس لي كتابٌ لأقوم بتدريسه.. فكيف...

ـ سوف أؤلف لك كتابًا يناسب الدارسين، وسيكون كالمختصر الجامع. أمهلني بضعة أيام وسأنتهي منه، فتذهب به. وأنت يا «أبا عبيد» يمكنك تدريس كتاب «المباحثات» الذي جمع فيه «بهمنيار» جملة مما قيل في مجالسنا،

والله يرعاكما هناك.

قبل الغروب خرج الزائرانِ عائدينِ إلى الرستاق، وأرسل المزدوج معهما ثلاثةً من عسكره الذاهبين لقضاء عطلتهم بقرية الزواهر.. سكنتِ الغرفةُ الفسيحة، وصخبتِ الأفكارُ في رأس ابن سينا فانشغل بها عن العتمة التي أحاطت به ظاهرًا وباطنًا، حتى غفا وهو جالسٌ على كرسيه. وغاب هنيهةً، قبل أن يقوم طارحًا عنه كل موجبات الأسى والأسف من ضرورة الاستسلام لفقدان روان، والقلق على مصير أخيه وتلميذه، وانتظار التحرُّر من محبسه في يوم غير معلوم.

تحسس ابن سينا في الظلام خطاه حتى قنديله والسراج الذي فوق الطاولة، فأوقدهما وأزاح مسودات «رسالته في القولنج» التي لم يتمها، ولن تتم أبدًا. وبدأ في تأليف كتابه الجامع الذي جعله بعنوان «الهداية» فكتب بعد البسملة حمدلةً وديباجةً كان نصُّها: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبي الرحمة محمد المصطفى، وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين. أسعدك الله أيها الأخ العزيز «عليّ» بالتوفيق هاديًا وعاصمًا، ونظم لك شَمْل المصلحة ونوَّر قلبك بالبصيرة وصرف عنك آفات الدهر وحوادث الزمان، بمنِّه وسعةِ رحمته. وبعد، فإني جامعٌ لك في هذه التذكرة جوامع العلوم الحكمية، بأوجز لفظٍ وأوضح عبارة، حتى إذا استظهرته ثم تفهَّمته، كانت الكلفة عليك خفيفة والفائدة جسيمة. واستعنتُ بالله، إنه من يستعن به مخلصًا، يهده سُبله..

فجرًا، جفت الدواةُ فلم يجد ابن سينا بُدًّا من القيام إلى النوم، وانتبه إلى خدر ساقَيْه والألم الساري فيهما حين قام فصلَّى الركعتين ثم آوى إلى الدكة التي جعلها كالسرير، وغرق في نوم طفوليٍّ بعد ساعات متتالية من التدوين، خطَّ خلالها من كتابه الورقات الثلاثين التي اشتملت على الفصول الأُولى من الباب الأول، في المنطق، منتقلًا من الألفاظ والمعاني إلى المقولات العشر إلى العبارات وأنواع القضايا.. وكان يود لو يكمل الفصل الرابع، في القياس المنطقي، لولا نفاد الحبر والطاقة.

في الصباح استمد ابن سينا المداد من المزدوج، فأرسل إليه بزجاجة حبر كبيرة ورزمةٍ من الكاغد، فعكف على التأليف من الضحى حتى انتصف الليل. فكان جملة ما كتبه بيده سبعًا وأربعين ورقة، اشتملت على بقية فصول المنطق: القياس، البرهان، الجدل، الخطابة، الشعر، السفسطة. ثم شرع في كتابة الفصل الأول، الطويل، من باب الطبيعيات. المشتمل على التعريف بالعلم الطبيعي ومبادئه وأنواع التغير الذي قد يطرأ على الموجود الطبيعي من حركة وكون وفساد، وطبيعة المكان والزمان.. وختمه مع أول ضوءٍ للنهار بقولٍ مجمل في المحرِّك الأول، سبحانه، وفي قِدَم العالم. مقررًا بوضوح أن العالم ليس قديمًا بذاته حسبما يرى الملاحدة، وليس كونًا محدثًا بذاته حسبما يظن المعطِّلة، وإنما هو وجودٌ ظهر من العدم بفعل الخَلْق.. وقد شطب كثيرًا في هذه الورقة تحديدًا، وأعاد كتابتها مرتين حتى صار نصُّها النهائي:

«الحركة الأولى المستديرة، مُبدعةٌ، أبدعها الله تعالى. وهو متقدم عليها بذاته، من غير حاجةٍ إلى زمانٍ يتقدم به.. والعالمُ ليس وجوده عن ذاته، إذ الوجود الذي له، من غيره.. فوجودُ العالم كان بعد لا وجوده في الزمان، فهذا حدوثه. والذي منه وجوده، مُحدثُه.

وأراد ابن سينا أن يضيف: ومُحدثُ العالم أي خالقه قديم، وبذلك يكون العالم محدثًا من حيث كونه موجودًا بغيره، ومن حيث قِدَم موجده، قديم... لكنه آثر الاختصار وشطب العبارة كيلا يرتبك أخوه «عليّ» عند شرحها،

وكيلا يضطرب ذهنُ الدارسين الذين لم يستوعبوا قسمة الموجودات إلى: وجودٍ واجبِ الوجود وقائمٍ بذاته، وهو الله، ووجودٍ واجبِ الوجودِ بغيره، وهو وجود الممكنات.

في ذاك اليوم، عندما دخل عليه الخادمُ ساعة المغرب بطعام العشاء. وجد أن ابن سينا لم يتناول غداءه بعد، فسأله إن كان قد عاف الوجبة. فأجاب: لا، لكنني انشغلت عن الزاد فنسيته، وأنا الآن بحاجة للحركة أكثر من الأكل، فقد تخشَّبت ساقاي من طول الجلوس.. وقام للصلاة، ثم خرج إلى الساحة المفتوحة عليها الحجرةُ، فدار فيها على مهلٍ دورتين، وبعدهما عاد واستكمل الكتابة.. وكان الخادمُ يرقبه بعينين تندهشان.

* * *

في صباح اليوم التالي، جاء «ماهيار» من الرستاق مبكرًا، مهندم الملابس متأنق العمامة. وخلفه خادمٌ خلفه أربعة بغالٍ تحمل الأدوية والمفردات، وكل ما كان في دكان العطار. أنزلوا الأجولة في الساحة الخلفية فأخذ ابن سينا يفحص ما فيها، مُبديًا إعجابه بجودتها. وساعة العصر صارت جميعها موضوعةً بمكانها على الأرفف، بعدما بلغ الإرهاق بابن سينا وماهيار والخدم، مداه. وجاء المزدوجُ مستبشرًا، وطلب ضاحكًا من الشيخ الرئيس أن يبدأ بتركيب دوائه هو أولًا، فوعده أن يعطيه له ساعة المغرب. وفي الموعد أعطاه حبوبًا على هيئة «الحمص» يزيد وزنُ الواحدة منها عن مثقال الدرهم بقليل، صنعها له من بزور الجزر البري والقثّاء والآينسون والكرفس الجبلي والدارصيني. وطلب منه أن يتناول منها عشر حبَّاتٍ يزلقها في جوفه بماءٍ حارٍّ، ونصحه بالإكثار من شُرب نقيع الشعير بقدر ما يستطيع، لأنه نافعٌ في إدرار البول.

بعد ثلاثة أيام من مداومة «المزدوج» على التداوي بذلك، انتثر بولُه يومين ثم صار يندفع مغبَّرًا وفيه فتاتُ الحصاة، ومعه ألمٌ حارقٌ دام أيامًا قليلةً. كان الشيخ الرئيس يداويه خلالها بمسحوق الأُسرب المحرَّق وبزر البطيخ والخشخاش، مع مقدارٍ قليل من الأفيون والبنْج، لتخفيف شعوره بالألم. فصار المزدوج يرى أن شفاءه في أسبوع واحد، من بعد طول المعاناة، هو معجزة جرت على يد الشيخ الرئيس الذي أكَّد له باسمًا: بل قواك كانت مستعدةً للانفعال بالأدوية، بسبب سلامة بدنك من العلل الأخرى.

ـ لكنني يا «بو عليّ» صرتُ مؤخرًا متراخيًا في أمر المجامعة.

ـ لا تقلق، هذا من أثر العلاج. ورويدًا سوف تستعيد قوتك على الباه، وعليك بالإكثار من أكل البصل وسفوف حبِّ الجرجير وبزر الشهدانج، وأيضًا «السمسم» فإنه يُكثر المنيّ.

ـ بارك الله فيك يا حكيم الزمان، ونفع بك.

واستعاد «المزدوج» بعد أيامٍ قدرته التي توارت، فابتهج، وأخذ يفكّر في طريقةٍ يكافئ بها الشيخ الرئيس، حتى اهتدى إلى فكرةٍ لطيفة.. ومع أن الأيام الثلاثة التي تلت وصول المفردات الطبية، كانت مرهقةً، وتكاد ليلاتها تتصل بالنهار. إلا أن ابن سينا لم ينقطع فيها عن التأليف ليلًا، مما أثار استغراب «ماهيار» ودهشته من قوة احتمال الشيخ الرئيس وصبره على التأليف، مع المشقة ومداومة العمل. ففي النهار يتوافد المرضى من أهل القلعة زرافاتٍ، فيعاود ابن سينا فحص كل مريضٍ بصبرٍ وأناةٍ، ثم يعطيه الدواء الموجب لشفائه. وفي الليل، من ابتدائه إلى منتصفه، يعكف بأناةٍ ودأبٍ على إعداد عديدٍ من أنواع الأدوية، من النطولات والأطلية والمراهم والحبوب والحقن والشيافات والأيارج والترياقات والجوارشنات والأقرباذينات. ثم من بعد ذلك كله، يستكمل تأليف كتابه: الهداية في المنطق والطبيعيات والإلهيات.. كان «ماهيار» خلال تلك الفترة العصيبة يساعد ابن سينا بقدر المستطاع، لكنه لم يكن قادرًا على المواصلة التامة معه، فكان يستأذن للنوم ساعة قيلولةٍ ويغلبه النعاس قبل منتصف الليل. ولذلك أخذه العجب عندما عرف أن الشيخ الرئيس كان يصحو كل يوم فجرًا فيصلي الركعتين، ثم يجلس للكتابة حتى تعلو الشمس ويستعلن النهار، فيبدأ توافد المتعالجين.. عند ختام النهار الأول، قال له ماهيار:

ـ يا سيدي الحكيم، ألا ترتاح..

ـ لا أرتاح إلا حين أُنهي ما يجب عليَّ عمله.

ـ كنتُ أظن أن «الأستاذ» هو أكثر الناس جَلدًا واحتمالًا لمشقة التأليف، لكن الحق يقال، أنت يا سيدي أكثر منه

صبرًا على بذل المجهود.

ـ حدثني عن «أبي الريحان» في وقت آخر، حين أسألك عنه. أما الآن فعليك تضميد أجفان هذا الرجل الذي يشكو الحكة، بطحين العدس المقشور وقشور الرمان مطبوخة بالخل، وافعل ذلك برفق. وأنت أيها الرجل، عُد إليَّ لأكمل لك علاجك، عندما تسقط من أجفانك قشرة الخشكريشة.

سأله الرجل عن معنى «الخشكريشة» فأفهمه ابن سينا برفق إنها طبقة شبه صلبة، تُشبه ما يكون من الدم إذا تجلَّط فوق الجروح، وسوف تكسو جفنيه بسبب الدواء، ثم يكون البرءُ. قال له ذلك بسرعة، ونادى على المريض الذي بعده، وكان يشكو من سُدَّةٍ في أذنيه فقطَّر الشيخ الرئيس في أذنه دهن اللوز المر الجبلي، وأعطاه بعضًا منه ليقطر منه قبل النوم، ويداوم على ذلك حتى يتحسَّن سمعه. فإن استدامت السدة، فليعد إليه لإزالة اللحم الزائد في جوف أذنه، ونادى على المريض الذي بعده.

قبيل انتصاف الليلة الثالثة من ليلات المعالجات، والتأليف، كان ابن سينا يعد مقادير من المسهلات المعروفة باسم «أيارج فيقرا» وبعض «المثروديطوس» لمعالجة الشاكين من مغص المعي وأوجاع القولنج. وأثناء انهماكه في عمل الأدوية، رأى الوسن يحاصر عين «ماهيار» ويثقل جفنيه، فأشفق عليه وطلب منه أن يذهب ليرتاح. شكره ماهيار، واستمهله حتى يعود الحارس الملازم لهما من محل قضاء الحاجة، حتى يفتح له الباب. قال ابن سينا مندهشًا: أيُّ باب؟

ـ باب القلعة يا سيدي.. الباب الصغير المجاور لهذه الحجرة.

ـ ألا تبيت بإحدى غرف القلعة!

ـ لا يا سيدي، فقد استأجرت من منصور المزدوج حجرتين خلف هذا السور، للمبيت هناك ليلًا.

ـ عجيب، لم أعرف بذلك. ولماذا تستأجر حجرتين، ألا تكفيك واحدة؟

ـ تكفيني واحدة يا سيدي الحكيم، الأخرى لأختي وجاريتها.

ـ أختك! ولماذا جاءت معك؟

ـ تريد أن تتعلم منك يا سيدي. فهي تداوي النساء احتسابًا، وتريد أن تسألك عن أمورٍ كثيرة وتستفيد من فيض معارفك.

ـ ولماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟!

ـ هي قالت لي: لا تخبره إلا في الوقت المناسب، حتى لا يرفض.

ـ وهل ترى الآن هو الوقت المناسب؟! اذهب يا فتى لتنام، فهذا صوتُ قدمَي الحارس قادمًا نحونا..

ـ وماذا عن أختي «ماهتاب» يا سيدي؟ أرجوك لا ترفض..

لم يردّ ابن سينا عليه، فانسحب ماهيارُ من أمامه بهدوءٍ وتركه منهمكًا في إعداد الأدوية، ومع الحارس إلى «دولت كوجك» أحسَّ ابن سينا بأنه كان فظًّا مع ماهيار، وهو ما لا يصح مع مساعدة هذا الشاب له، ومع توصية شيخ الرستاق.. في اليوم التالي، في هدأةٍ من النهار قال ابنُ سينا لماهيار إنه لا يمانع فيما تريده أخته، ولكن بعد يومين أو

ثلاثة ليكون قد انتهى من المعالجات والتأليف، وصفا ذهنه للمباحثات الطبية النظرية.

***

صباح اليوم التالي، أخبره «ماهيار» بأن أخته ابتهجت بموافقته على اللقاء بها، وأرادت التعبير عن شكرها فصنعت له هذه الكليجا؛ يقصد الحلوى التي تُسمى بالعربية المعمول. وأضاف باسمًا أن المزدوج ترك معه مفتاح الباب الخلفي الصغير، ليستعمله وقت يشاء.. كان ذهن ابن سينا شاردًا، فلم يرد عليه، إذ كان باله مشغولًا ببراهين خلود النفس الإنسانية التي سيوردها في خاتمة كلامه عن الطبيعيات، تمهيدًا للانتهاء من كتاب «الهداية» الذي سوف يختمه بالباب الثالث الأخير في الإلهيات وما يتصل بها من الكلام عن العلة الأولى، ووحدانية واجب الوجود، والصلة بين العالم الأعلى والعالم الأرضي.. وبعد دقائق، بدأ توافد المرضى من الخدم والحرس، يتقدّمهم «الزعاق» الذي بذل جهدًا غير مطلوب في تنظيم جلوسهم تحت الجدار، ودخولهم تباعًا على ابن سينا بحجرة البيمارستان. كان يصخب بصوته المزعج ويزعق كالمعتاد لأتفه الأسباب، فخرج إليه ابن سينا وفي يده صُرَّة صغيرة، فأمسك بذراعه وانتحى به جانبًا وسأله بصوت خفيض، إن كان يشكو من شيء ليداويه منه؟ فقال بصوتٍ لزجٍ: لا سيدي، أردتُ فقط أن أساعد..

ـ سوف تساعد أكثر، إذا انصرفت الآن إلى عملك. وخذ معك صرة السفوف هذه، وتناول منها ملعقةً مخلوطة بالعسل كل صباح.

ـ لماذا؟

ـ لتذهب هذه الصُّفرة من وجهك، وكيلا يتمكن منك اليرقان.

ـ ومن أين سآتي بالعسل؟

ـ لا أدري، اسأل طباخي القلعة. ولا بد أن القرى القريبة فيها مناحل.

ـ صح، سأطلب من شيخ الرستاق أن يجلب لي معه مقدارًا. ولكن أخبرني يا سيد الحكماء: هل حالتي خطيرة؟

ـ لا، ولكن لا تهمل العلاج.

عاد ابن سينا لمرضاه ولنظرة «ماهيار» الباسمة، واستكمل انهماكه في المداواة طيلة نهاره، ولما انفرد بنفسه مساءً استلقى ساعةً ثم أمضى ليلته بطولها في الكتابة، حتى انتهى فجرًا من الفصل الخامس من باب الإلهيات «في المعرفة» وختمه بقولٍ كُلِّي في وجوب النبوة، نظرًا لاحتياج الناس لإنسان يذعنون له: ويُحتاج إلى أن يُلزم هذا الإنسان الناس، بوعدٍ ووعيد، ويفرض عليهم فرائض إذا واظبوا عليها، ذكروا المُثيب المعاقب. سبحانه. وأضاف رفقًا بالعوام، عبارة: فالنبوة علة ثبات نوع الإنسان، موجودة، ولولاها لما كان الإنسان.

وفي اليومين التاليين، وبالأحرى في الليلتين التاليتين، راجع ابن سينا أبواب الكتاب وفصوله الثلاثة، وختمه بفصل في السعادة، الحسية والعقلية. قال فيه إن اللذات أنواع تختلف باختلاف مراتب النفوس، أدناها اللذة الحسية التي يميل إليها بسطاءُ الناس من العوام المحبين للسيرة الشرعية، حيث يتخيَّلون أن ثواب الآخرة حسيٌّ، ولا لذة إلا بالمحسوس. كالصبي حين يُخيَّل له أن لا لذة إلا من اللعب الذي يشتغل به، وأن ما يؤثره البالغون من لذات ذهنية هو ضربٌ من الخبل.. وختم هذا الفصل الختامي للكتاب بقوله: فلا تجعل للمحسوسات كل هذا الوزن،

واعلمْ أن الأبديات أشرف موقعًا وأشد استحقاقًا للرغبة فيها.

***

في اليوم التاسع بعد العشرين من أيام الاعتقال؛ وكان يوم جمعة، أرسل ابن سينا كتاب «الهداية» لأخيه عليّ، مع رقعةٍ يدعوه فيها إلى الإسراع بالرحيل إلى «أصفهان» والبقاء هناك مع أبي عبيد الله الجوزجاني، وأسرتيهما، ويسكنون جميعًا متجاورين.. وكان من حسن الطالع، أن في اليوم التالي عبرت بالرستاق قافلة كبيرة ذاهبة من قزوين إلى أصفهان، في حماية حراس مسلحين، فسافروا معها. فارتاح ابن سينا في محبسه، وأحسَّ بأن همًّا جاثمًا قد انزاح عن صدره.

ومع نهاية ذاك الأسبوع المفعم بالمعالجات، هدأت أمور التداوي ولم تعد تستغرق النهار بطوله، مثلما كان الحال سابقًا.. يوم الخميس؛ الخامس والثلاثين من أيام فردقان، جاء المزدوج عصرًا ومعه هدية لابن سينا كي يعبِّر له بها عن شكره لشفائه على يديه، من بعد طول معاناة. كانت الهدية سريرًا نحاسيَّ القوائم، وثير الدثار، وقد أراد المزدوج أن يقرنه بهدية أخرى، لكن ابن سينا رفضها.. فبعد أن نصب الخادمان السرير في الناحية الأبعد من باب الحجرة المستطيلة التي كانت مهجورة فصارت دار استشفاء، وسوف تصير بعد أقل من شهرين فردوسًا، أو روضةً من روضات الجنَّات. صرف المزدوج الخادمين وابتهج لرؤية علامات الرضا على وجه ابن سينا، فهمس إليه بأن هناك هدية أخرى في طريقها إليه، وربما تصل بعد يومين أو ثلاثة.. سأله ابن سينا الإيضاح، فقال:

ـ أعرف يا حكيم أنت تعاني من فقدان النسوان وعدم التسرِّي، فسوف أجلب جارية جميلة لك، لتُدفئ في الليل سريرك هذا وتقوم بخدمتك.. ستأتيك كل ليلة بعد هبوط الظلام، وتذهب عنك فجرًا إلى حجرتها في دولت كوجك. وسوف نتكتم هذا الأمر، ولن يعلمه إلا حارسان أثق فيهما.

ـ لا داعي لذلك يا منصور. وطبعًا شكرًا لكرمك واهتمامك، لكنني لن أكون مرتاحًا لهذا الأمر، وسأراه ممجوجًا.

ـ لماذا يا بو عليّ.. ستكون الجارية خالصةً لك وملك يمينك، ولن تكون من هاتيك الهنديات رخيصات الثمن.

ـ لا يجوز لمسجون ملك يمين، ولا يصح هذا التسرِّي السرِّي المختلس. وأنا على كل حالٍ بخير، فالصبرُ على الشهوات من وسائل الرياضة العقلية. وعلى ذكر الحبس، ألا ترى يا أخي منصور أن من الواجب علينا النظر في حال سجناء السرداب؟ فلا بد أنهم يحتاجون علاجًا..

ـ كما تحب يا أخي الحكيم. وإن تبدَّل رأيك بخصوص الجارية فأخبرني، ولن أتاخر في تلبية ما تريد.

ـ حفظك الله يا منصور، وسلَّمك بفضله من كل سوء.

بعد ذهاب المزدوج، جلس ابن سينا على الدكة ونظر بارتياح نحو السرير وقوائمه الأربع اللامعة، الرشيقة، ولم يخطر بباله أن هذا السرير سوف ينام عليه بعد سنوات، وفي هذه الحجرة ذاتها، الأمير «علاء الدولة بن الكاكويه» حين فرَّ من محمود الغزنوي، فاحتمى حينًا بقلعة فردقان.

وفي قلبه سكينةٌ، قام ابنُ سينا إلى الطاولة وخطَّ في مسوَّدات كتابه الطبي الكبير، الذي اختار له عنوان «القانون» فقرتين، كانت الأولى منهما، مقدمة الكتاب التي ستأتي بعد الديباجة، ونصُّها: هذا الكتاب يشتمل على قوانين الطب

الكلية والجزئية، اشتمالًا يجمع بين الشرح والاختصار، والبيان والإيجاز، وسوف أتكلم فيه أولًا عن الأمور العامة الكلية، وعن قسمَي الطب النظري والعملي.

من دون سببٍ معلوم، توقف ابن سينا عن الكتابة فجأةً وسأل نفسه عن جدوى ما يكتبه.. حدَّث نفسه بلا صوتٍ، متسائلًا: متى سينتهي هذا الكتاب، إذا انتهى؟ ومتى سأنتهي من هذه الدنيا، ثقيلة الوطء سخيفة الإيقاع، وقد صارت ساعاتها مريعة. فلا مشتهى لي فيها، يشاغب باطني فيشغلني حينًا عن فنائي المحتوم. ولا مطلب يُذهب عني ولو بالمخادعة، يقيني باقتراب خراب هذا العالم.. أعالجُ مريضًا، فتفتك بالألوف الأمراضُ والحروبُ وهوسُ السُّلطة وسطوةُ السلطنة! وفي خاتمة المطاف ينتصر الفناء. أكتبُ في الحكمة والمنطق، فيزداد في الأنحاء اجتياحُ الجنون، ولا يكون متغلبًا على أغلب الناس إلا الجهلُ والخرافةُ. فما جدوى الكتابةُ. وما معنى هبوط النفس من عالمها الإلهي إلى هذا الخواء الأرضي الزائل حتمًا، المحكوم بالموت والفناء فلأي شيءٍ أُهبطت من عليائها، وما الحكمة من هذه الحياة وما سبب خلق هذا العالم، البائس.. هل تحن الأرواحُ حقًّا إلى وجودها السرمدي السابق على خلق الأجساد، والباقي بعد فسادها وفنائها، أم هي تنتحب من حيرتها فتتمنى الرحيل إلى وجهةٍ علوية، من فرط سُفلية الواقع سفالته.

غفا ابن سينا لحظات، خفت خلالها اصطخابُ باطنه، ثم استفاق فقام لتحريك ساقيه.. احتسى رشفتين صغيرتين من كأس نبيذه، وأطال التأمل في لونه البراق وعادت به الذكرياتُ عنوةً إلى الأسابيع التي أعقبت اختطاف «روان» وكيف مرت ساعاتُها عصيبةً، فلا كان أيامها يهدأ في صحوٍ أو يهنأ بمنام، من فرط شعوره أيامها بالعار وفداحة الإحساس بعدم الاقتدار. كان دومًا مكروبًا، ومستغربًا نفسه، ومستنكرًا كثرة احتلامه وغلبة الطبيعة البشرية عليه، تلك الطبيعة التي اقتضت في شأن الإنسان أنه إذا حُرم حَارَ، وحلُم، وإذا اغتلم احتلم.

.. جال رأسُ ابن سينا وجاس عقلُه بين تلك الأطلال حينًا، مديدًا، ثم عاد إلى الأوراق مستسلمًا للقَدَر غير المفهوم، أو منصاعًا للصوت الذي يأتيه منه ويتردَّد فيه كأنه صدى كلمات، فدوَّن في المسوَّدة ما سطع بعقله، من دون أن يشطب كثيرًا.. وكتب ما نصُّه:

كتاب القانون. المقالة الرابعة في أمراض الرأس واختلال النفس، الفصل الأخير، في العشق. هو مرضٌ وسواسيٌّ يشبه الجنون السوداوي المسمى باليونانية «مالينخوليا» يجلبه الإنسانُ إلى نفسه بتسليط أفكاره على استحسان صورة معشوقه، وقد يُعينه على ذلك الاشتهاء. وله علامات منها غورُ العينين واضطراب المزاج والنبض، وذبول الأعضاء. وإذا لم يعترف العاشق بمعشوقه، يمكن معرفته بذكر الأسماء والطرق والبيوت المحيطة، مع جسِّ النبض. فإنه يضطرب ويختلف اختلافًا عظيمًا، عند ذكر المعشوق أو ما يتعلق به. وقد جربنا ذلك، واستخرجنا به ما كان في معرفته منفعةٌ للعاشق. وأفضل علاج للعشق هو الجمع بين العاشق ومعشوقه على أحد الوجوه التي يسمح بها الدين والشريعة. وقد رأينا ذلك مرارًا. فإن صعب ذلك، كان العلاج بإشغال العاشق بالشواغل الكثيرة، فربما ينسيه ذلك، أو بالاحتيال لتعشيقه غير المعشوق، ببديلٍ عنه تحلُّه الشريعة. ومن الشواغل، شراء الجواري والإكثار من مجامعتهن، والاستجداد الدائم لهن واستبدال القديمات، والطرب مع الموجودات منهن. إلا إذا كان الطرب يهيج الغرام. وإذا كان العاشق المحروم، من العقلاء، نفعته النصيحة والعظة والتعنيف، وتسليط العجائز عليه فيحكين أمامه من المنفِّرات، ما يجعله يبغض المعشوق. ويُسهبن في ذلك، ويجتهدن في أن ينقلن هوى العاشق إلى غير ذلك المعشوق، بالتدريج..

ـ أراك صباح غدٍ على خير يا سيدي، عِمْ مساءً.

ـ ماهيار. أما زلت هنا؟ قد هبط الظلام!

ـ نعم يا سيدي، كنتُ بالحجرة الأخرى أحصر مقادير الأدوية، كيلا نفاجأ بنقصان بعضها. وما عدت قلقًا بشأن الخروج، فالمفتاح معي.

ـ طيب، تصحبك السلامة. ولكن أخبرني أولًا، لماذا أراك لا تتحدث بغير العربية، ولا تستعمل في كلامك المفردات الفارسية؟

ـ هذا يا سيدي من أثر الأستاذ، فقد كان ينهى عن الكلام بغير العربية، ويقول: أن يسبني أحدهم بالعربية، أفضل عندي من أن يمدحني بالفارسية أو بغيرها من اللغات.

ـ هاه. عجيبٌ أمر «أبي الريحان»، يدفع الشعوبية والتعصب ضد العربية، بالتعصب لها!

ـ لكنك أيضًا منحازٌ للعربية يا سيدي الحكيم، وتكتب بها.

ـ البون شاسع يا «ماهيار» بين الحب والانحياز. أنا أحب العربية وأكتب بها، لأن علوم الأوائل تُرجمت إليها، واستقر فيها الاصطلاح. وهذا حديثٌ يطول ويحتاج وقتًا. غدًا أحدثك عن هذا، وتحدثني عن صحبتك لأبي الريحان. إذا سمح لنا الوقت.

كاد ابن سينا يعود للكتابة، لولا أنه وجد «ماهيار» شاخصًا، ينظر إليه وفي عينيه يتراقص سؤالٌ يريد أن يتحرَّك به اللسانُ. وضع القلم فوق المحبرة وعاد بظهره إلى الوراء، وسأل «ماهيار» عما يفكر فيه ويودُّ البوح به. فابتسم بخجل وقال: يا سيدي، إن سمحت لي بهذا السؤال. كيف تقدر على مواصلة الجهد طيلة نهارك، ثم تعكف بالليل على الكتابة! هل تتناول شيئًا من العقاقير يقوِّيك على ذلك، غير هذه الرشفات من الشراب؟

ـ الشغفُ إذا اشتدَّ، صار أشد من العقاقير فعلًا وتأثيرًا.

ـ وماذا تكتب يا سيدي؟

ـ هذه مسوَّدات لكتابي الكبير في الطب..

ـ هل تريد أن تُملي عليَّ؟

ـ لا يا «ماهيار» التعبُ بادٍ عليك، وسوف يجعلك الإجهادُ تخطئ كثيرًا في الكتابة.

ـ كما أن خطي يا سيدي سيئ، للأسف. أختي «ماهتاب» خطها جميل، وهي طبعًا تتمنى أن تُملي عليها.

ـ أختك تجيد الكتابة؟

ـ نعم يا سيدي، وتقرأ كثيرًا. وتريد تأليف رسالة في طب الحبالى، وتدفعها إلى الوراقين باسمٍ استتاريٍّ تستوحيه من أسماء الحكماء الهنود القدماء.

ـ ما هذا الكلام الغريب. امرأةٌ تقرأ وتكتب وتؤلف الرسائل في الطب. كيف؟ ومتى تجد وقتًا لهذا؟ وأين درست؟ وماذا عن زوجها وأطفالها؟

ـ هي لم تتزوج يا سيدي، لأنها.. عفوًا...

ـ لأنها ماذا؟ قُل ولا تتردَّد.

ـ لأنها يا سيدي العظيم تقول: لم أجد رجلًا كفؤًا لي.

ـ ماذا.. اذهب الآن لتنام يا ماهيار، أراك في الصباح.

ـ تُصبح على خيرٍ يا سيدي.

مدَّ ابن سينا يده فأمسك بالقلم وكاد يغمسه في الدواة، لكنه توقف عندما سمع صرير مزلاج الباب الفاصل الواصل بين القلعة ودولت كوجك.. وهزَّ رأسه مستغربًا ما سمعه من ماهيار، واحتار: ما هذه البنت الدعية! لا بد أنها مختلة العقل، أو ربما مفرطة الدلال. أو فادحة الحمق. كيف تجرؤ على قولٍ كهذا؟ هي توأم ماهيار، وهو جميل الطلعة والملامح، فلا بد أنها مثله جميلة. لا، لا يشترط. فمن التوائم ما يكون صنويًّا أو غير صنوي، والأرجح أنهما لا صنويان، وأنها على العكس منه، قبيحة. ولأنها غنيةٌ، ولن تعجب من الرجال إلا الطامعين في مالها، تستعلي، وتزعم هذا الهراء الذي تقوله لتخدع به نفسها، أو لتقنع غيرها بما لا يمكن الاقتناع به. لا تجد رجلًا كفؤًا لها! هي على الأرجح مريضةٌ وفي رأسها اختلالٌ، وتحتاج معالجات، لكن الحال الآن لا يسمح بالاهتمام بهذه الحالات التي غالبًا ما تكون مستعصيةً، والخللُ فيها مزمنٌ.

.. وهكذا راح تفكيرُ ابن سينا يشطُّ، ويشطح، ويهيمُ في مهاوي الأوهام. معذور، فهو لم يكن قد رأى «ماهتاب» بعد.

***

جاء اليومُ التالي أهدأ من سوابقه، وأشرقت شمسه طيلة النهار ورقَّ هواؤه، ولطف. وفيه انتهى ابن سينا عصرًا من معالجة المجموعة الأخيرة من المرضى، وبقي عليه فقط متابعة حالتهم للتأكد من استجابة أبدانهم للأدوية، وعمل الجراحات غير العاجلة لبعضهم، وهو ما خصَّص له ابن سينا ساعتين في الأيام التالية. من ضحى كل يومٍ إلى ظهيرته.

ساعة العصر جلس ابن سينا بالحجرة مع ماهيار، يتناولان الغداء الشهي الذي أحضره «ماهيار» معه، وهو طباهج اللحم المطيَّب بالتوابل والبصل. كان مذاقه بخبز الخشكار الخشن، طيبًا. ولما أبدى الشيخ الرئيس إعجابه بالطعام، ابتسم «ماهيار» وهو يقول قاصدًا ما يُطبخ في القلعة: يا سيدي، طبخُ النساء أطيب مذاقًا بالقطع، وأختي «ماهتاب» متفنِّنة بطبعها في كل ما تعمله..

في هدأةٍ هي الأولى من نوعها منذ التقيا، وقبل أن ينتهيا من كأس شرابهما عقيب الأكل، أسند ابن سينا ظهره للجدار وقال لماهيار وهو يتأمل راضيًا كأسه، ويهزُّه بين أصابعه برفق: قلت لي سابقًا إنك تتلمذت أربعة أعوام على يد أبي الريحان، فأين كان ذلك ومتى اجتمعت به أول مرة؟

ـ في جرجانية خوارزم يا سيدي.

ـ كَركَانج! متى، أيام الأمير مأمون بن المأمون؟

ـ نعم، وكان «الأستاذ» يسكن في قصر الأمير.

ـ أعرف.. لكنني لم أرك هناك؟

ـ سأحكي لك كل شيءٍ يا سيدي.

بدا الاهتمامُ على وجه ابن سينا، فبدأ «ماهيار» يقصُّ من حكايته ما كان.. في مدينة «شيراز» الساحرة، المعروفة بملاحة أهلها وحُسن نسائها ودلالهن، ولد «ماهيار» وأخته التوأم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة لأبٍ من الأثرياء الوارثين، كانت بيده تجارات رائجة وبساتين. اسمه «شيروين به رستم» ومشهور بين الناس بلقب: النبيل. وكان يعشق زوجته مفرطة الجمال، عشقًا خاصًّا، حتى إنه تعهَّد لها بألا يتسرَّى أبدًا ولا يتزوج بغيرها، لأنها كانت عنده حسبما كان يهمس دومًا في أذنها ويعلن على الملأ: الأنثى الوحيدة في الكون! ويؤكِّد وهو صادقٌ أن هناك كثيرًا من النساء والفتيات، الإماء والأميرات، لكن أنثاه الوحيدة هي.. ولما تأخر حملها أعوامًا، لم ينقص عشقه لامرأته مثقال ذرةٍ، بل كان يتوهَّج مع مرور الأيام. وهذا في الرجال غير مألوف. والمرة الوحيدة التي حبلت فيها، أنجبت له توأم: ماهتاب وماهيار.. فكان يرى في ذلك منحةً سماوية، وينبوع بهجةٍ لا ينضب.

وكان الرجل محبًّا للآداب والعلوم، فاستقدم لتوأمه الأساتذة والمعلمين، وعهد بتأديبهما إلى رجل حكيم من أقربائه. طاعنٍ في السِّنِّ، قويِّ الذهن والذاكرة، كان اسمه «فَرْهاد». وهو واحدٌ من أشهر تلامذة الفيلسوف المعروف أبي العباس الإيرانشهري. وقد أوصاه الأب النبيل بألا يفرِّق بين البنت والولد في التدريس.. وكان يفتخر بابنته التي نافست أخاها في الفهم والذكاء ورجاحة العقل.

وفي الثامنة عشرة من عمره تزوَّج «ماهيار» ابنة شريك والده في التجارة، الرجل الفاضل «أبو طاهر» المعروف بشيخ الرستاق. وتأخر زواج توأمه «ماهتاب» حتى بلغت من عمرها العام العشرين، وحين مات أبوهما في مطلع العام الخامس بعد الأربعمائة، كانت قد وافقت على خطبتها لرجلٍ ثريٍّ من «الري» إرضاءً لأبيها، فلما مات فسخت الخطبة لأنها حسبما قالت، وجدت خاطبها فارغ العقل وجاهلًا وهي لن ترضى إلا برجلٍ راقٍ مثل أبيها.

وفي سنة سبع بعد الأربعمائة، اضطربت الأحوال بسبب الحرب بين الأمير الملقب بأبي الفوارس، وأخيه حاكم شيراز «سلطان الدولة». فقد زحف المغامر «أبو الفوارس» بجيشٍ كبيرٍ، داهم به شيراز فجأة، وأراد بذلك انتزاع الحكم بقوة السيف. لكنه بعد عدة وقائع ووقعاتٍ وويلاتٍ أفزعت الناس، انهزم ولاذ ببلاد الأفغان والتحق هناك بخدمة «محمود الغزنوي» وصار من كبار معاونيه وقواده. وفي غمرة تلك الدواهي، والتدهور الذي لحق بشيراز، انتقل «ماهيار» مع زوجته وأخته وأمه للعيش في القرية الوسطى بالرستاق، وسكنوا هناك في بيتٍ فسيحٍ يتوسَّط بساتين اشتروها. وعزفت نفس «ماهيار» عن التجارة، وتاقت لاستكمال طريق العلم والمعرفة، فرحل قاصدًا مجمع العلماء في الجرجانية (كَركَانج) آملًا في التلمذة على يد واحدٍ من الحكماء الكبار.. قال ماهيار لابن سينا، بنبرةٍ راقية مهذبة: كنت في طريقي إلى جرجانية خوارزم مستبشرًا، وآملًا إلى درجة الحلم بأن أدرس الطب على يديك يا سيدي، وعلوم الحكمة، وأتلقَّى أصول العلم الرياضي على يد الأستاذ البيروني، والفلك على يد منصور بن عراق.. كما تمنيتُ أن أحضر مجالس العلامة «أبي سهل المسيحي» في الفلسفة.

* * *

كان الشيخ الرئيس يصغي باهتمام لما يحكيه «ماهيار» وظل ساكنًا يحدِّق في حباب مشروبه، كأنه يرى في الكأس ما لا يمكن أن يراه غيره. حتى وردَ في ختام الكلام ذكرُ «أبي سهل المسيحي» فاختلجت أجفانه، وظهر عليه

الاضطراب من أثر الذكرى المريعة. صمت «ماهيار» برهةً، فأشار إليه ابن سينا لكي يستكمل كلامه، فقال وهو يترفَّق بقدر المستطاع: علمتُ يا سيدي فور وصولي، بأنك تركت البلدة مغاضبًا، إذ أرسل محمود الغزنوي بكتابٍ إلى حاكمها «مأمون بن المأمون» يأمره فيه بترحيل العلماء الذين عنده، إلى قصره هو في غزنة.. فلم يعجبك هذا..

ـ طبعًا. وكيف له أن يعجبني! وقد كان في بلاط «المأمون» نصف علماء الأرض؟! فهل كان يصح أن نذهب جميعًا، لتسلية هذا السفاح الجهول في «غزنة» كلما عاد إليها من مجازره الغادرة وسطوه على الممالك بغير حقٍّ؟

ـ لا يا سيدي الرئيس، لا يصح ذلك. وأخبروني آنذاك بأن أبا سهل المسيحي خرج معك، هاربًا، وأن عاصفة صحراوية عاتية اعترضت سبيلكما. وأنه مات.

ـ نعم. قضى نحبه بين ذراعيَّ وهو ينتفض مختنقًا، وكدت أهلك معه. رحمه الله. كان من خيرة أهل الأرض، ومن أجلاء الحكماء وأمهر الأطباء.

عبَّ ابن سينا كأسه دفعةً، وراح يقلبه بين أصابعه وهو ذاهلُ النظرة غارقٌ في غمار الأسى. إذ استعاد ذكرى المأساة التي وقعت في شهر شوال قبل خمس سنوات، بوسط صحراوات «قره قورم» القاسية، الشاسعة، الفاجعة. ففي الظهيرة التي سبقت يوم المأساة هذا، استدعى الأميرُ مأمون بن المأمون الملقب بخوارزم شاه، على عجلٍ، جميع العلماء الذين كانوا يعيشون في رعايته بعاصمة مُلكه. ولم يفصح لهم عن سبب دعوتهم لذاك الاجتماع الذي تمَّ عصر يوم الخميس، مع أنه أحد اليومين اللذين لا ينعقد فيهما المجلس العلمي بحضرة الأمير. تساءل جميعهم عن السبب الداعي إلى العجلة، وإلى الإصرار الأميري على حضورهم كلهم، وعدم إرجاء الأمر إلى موعدهم المعتاد ليلة السبت.

ظن بعضهم أن الأمير سوف يعلن لهم عن اختياره لأبي الريحان البيروني، وزيرًا له. فقد كانت هناك عدة شواهد ترجِّح ذلك، منها أن الأمير كان قبل شهور قد أسكن البيروني بقصره، تقديرًا له، ومنها أنه طلب من أبي الريحان قياس محيط الأرض وحساب خطوط الطول والعرض، بدقةٍ، فوجد البيروني سبيلًا لذلك وأوجد المعادلة التي يستطيع عن طريقها إنجاز هذا العمل. كما أن الأمير كان فخورًا جدًّا بالكتابين اللذين انتهى منهما البيروني مؤخرًا، وهما: التفهيم لأوائل صناعة التنجيم (في علم النجوم وحركة الأفلاك)، وكتاب: تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن.. بالإضافة إلى ما يعلمه المقرَّبون من الأمير من ضيقه بتدخل قواد العسكر في شئون الحكم واختلافهم مع وزيره الحكيم «أبي الحسين السهلي» الذي تقدَّم به العمر فما عاد قادرًا على الوفاء بعمله واحتمال أوزار الوزارة.. ناهيك عن نقمة الجند الخوارزمية على الأمير، واتهامهم له بالخنوع أمام صهره الغزنوي «محمود بن سُبُكتكين» والخضوع التام.

اجتمع بالمجلس الأميري العلماء الكبار، الأربعون، وجلسوا بحسب الترتيب المعتاد. وكان وجه أبي الريحان البيروني حائل اللون تصبغه الصُّفرة، كأنه أصيب فجأةً باليرقان، فزاد ذلك من حيرتهم. وبلغت الحيرة مداها، حين دخل الأمير متجهِّمًا وفي يده مطوية، ولم يلق عليهم سلامه المعتاد. نظر الأمير في الورقة المطوية، ودون أن يُطيل في التقديم للأمر أو التمهيد له، قال: ورد إليَّ اليوم هذا الكتاب من السلطان محمود الغزنوي، يأمر فيه بترحيلكم فورًا إلى عاصمته «غزنة» من دون إبطاء أو تأخير أو تعلُّل بأي عذر، فهو يريد أن يتباهى بوجودكم في قصره..

بوغت الحاضرون وعلت الهمهماتُ، فقطعها الأميرُ وهو يقول بلسان رجلٍ يجتهد لإخفاء الخجل: الأمر متروكٌ

لكم، لتقرير ما يناسبكم، ولن أجبر أحدًا منكم على أمرٍ، فتدبَّروا.. سكت الجميع لحظةً، ثم كان ابن سينا أول المتحدثين وقد اكتسى صوته بغضبٍ كظيم، وهو يقول للأمير: لا والله، لن أرضى لنفسي الذهاب إلى هناك، لتسلية السلطان في الأمسيات، فهذا عمل القيان والمغنيات والراقصات، ولا يليق أبدًا بالعلماء.

ـ يا بو عليَّ. أنت حكيم مرموق، وكذلك أصحابك هؤلاء جميعهم. وهو يريد أن يفتخر بين الحكام بوجود مثلكم في حاشيته، وبأن قصره يزدان بكم.

ـ لا يا سيدي الأمير المبجل. سلطانُ غزنة هذا، لم يُعرف عنه اهتمامٌ بالعلم ولا العلماء، بل اشتهر عنه قتل مخالفيه. وعليه أن يبحث عن غيري ليتباهى به ويفتخر، فلا أريد أن أصير زينةً للقصور.

ـ اسمعْ يا ابن سينا.. إنني مدركٌ أنك لم تسامحه على هدم دولة السامانيين وتخريب بخارى؛ بلدتك المحبوبة، وضمها إلى مملكته الواسعة...

ـ اسمح لي يا سيدي الأمير، سامحني على مقاطعتك واعذرني فيما سأقول، أو.. لن أقول شيئًا، ولن أحرجك يا سيدي مع صهرك، وسأرحل عن هنا في أقرب وقت.

ـ أين ستذهب؟

ـ لا أعرف يا سيدي. حقًّا وصدقًا، لا أعرف. لكن الأرض واسعة، وفضل الله عميم.

ـ لك ذلك يا بوعليّ، وما قول الأستاذ أبي الريحان.. وما رأي البقية منكم.

قال البيروني بلسانٍ يضطرب: لا أدري يا مولاي، فالسلطان محمود الغزنوي لا يعتد بالعلوم التي اشتغل بها، بل يرى الرياضيات والفلك وتواريخ الأمم القديمة، ليست علومًا نافعة مثل علوم الدين التي يحتفي بها... ومقاطعًا له، قال أبو سهل المسيحي: هو لا يحتفي بعلوم الدين بعامة، وإنما بالمذهب السني الذي صار مؤخرًا يرفع رايته، إرضاءً مؤقتًا للخليفة العباسي، ونكايةً في حكم البويهيين ذوي النزعة الشيعية. وهو لا يعترف بغير الإسلام السني الأشعري دينًا، فماذا سيفعل بمثلي وأنا رجلٌ مسيحي وأشتغل مع الطب بالفلسفة وعلوم الحكمة، التي يظنها قرين الكفر.

وفي قلب المجلس، غمغم العلامة «منصور بن عراق» بصوت خفيض، فلم يُفهم من كلامه إلا تكراره عبارة: أرى الويل آتيًا، أرى الويل آتيًا.. وتصاعد الجدالُ فاصطخب الجمعُ واضطرب مجلسهم على نحوٍ غير معهود، وبدا الهلعُ على العلماء المعروفين بميلهم لمذهب المعتزلة، والمشهورين بالتشيع، وهم كثرة. وفي غمرة ذلك، ظل الأمير واجمًا ينقل عينيه بين وجوه الحاضرين الذين قامت قيامتهم قبل موعدها، ولما بلغ به الحرجُ غايته، قام فجأةً وانصرف من المجلس وهو يجرُّ خلفه أذيال شعوره بالعار.. فقد أدرك أن دنياه قد آلت إلى الزوال.

في منتصف تلك الليلة الليلاء، كان ابن سينا جالسًا في غرفة نومه يغمره الغيظ ويقلقه السهاد، حين جاءه أحدُ خدَّامه وأخبره بأن «أبا سهل المسيحي» يدق الباب.. خرج إليه ابن سينا فوجده في حالةٍ مزرية، قلبًا وقالبًا، فسأله: ماذا جرى يا أبا سهل، ولماذا ترتجف؟ ادخل يا أخي، ما الذي وراءك؟

ـ بلغتني الآن أخبارٌ.

ـ اجلس هنا، واهدأ.. أي أخبارٍ تقصد؟

وهو يهتز كالمحموم، همس «أبو سهل» في أذن ابن سينا بأن رجلًا فاضلًا من طائفته النسطورية، جاءه قبل قليل وأخبره بأن جماعة كبيرة من الجند ينوون اقتحام قصر الأمير فجرًا، وهم يريدون قتله.. ارتاع ابن سينا، وتقوَّس حاجباه وهو يسأله متلهفًا: وكيف عرف هذا الرجل بذلك؟ فما كاد يتم سؤاله حتى أجابه أبو سهل بالعبارة القاطعة: هو من قدامى البصاصين، وأنا أعرفه جيدًا، وأثق به.

تحير ابن سينا لحظةً، وازدادت حيرته حين سأله «أبو سهل» إن كان في بيته خادمٌ أعرج اسمه وردان! فاستغرب ابن سينا وارتفع حاجباه وهو يقول: نعم، ولكن كيف عرفت بذلك؟ فأخبره «أبو سهل» بأن هذا الخادم، مدسوسٌ عليه من جواسيس ابن سُبُك. هو يسمى محمود الغزنوي بهذا الاسم، سخريةً منه.. وأضاف بصوتٍ أخفض أن قريبه أبلغه بأن الذين استمالوا إليهم هذا الخادم، وعدوه بأنهم سوف يعطونه مالًا إذا أعلمهم من فوره بهروب ابن سينا من البلدة، حسبما يتوقَّعون.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم يخرجون خلفك ويعتقلونك ويرسلونك في الأصفاد إلى غزنة.

ـ لماذا؟

ـ ليقتلك ابن سُبُك، صبرًا، في سجنه.. لأنه مغتاظ منك من أيام بخارى، وهو متيقن من أنك أحد دعاة المذهب الشيعي الإسماعيلي.

ـ لكنني لم أدعُ يومًا لأي مذهب عقائدي، وأنت تعلم هذا جيدًا.

ـ لا أهمية لما أعلمه، المهم ما يظنه هؤلاء. وما سوف يفعلونه بك، وبي. وسوف يُبلغون «ابن سُبُك» بما تجرأت به عليه اليوم في مجلسنا، فقد علموا به وتزايد حنقهم عليك.

هزَّ ابن سينا رأسه أسفًا وهو يقول باللغة العربية الآية القرآنية ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ** ﴾ وقد تأكَّد عنده ما أخبر به «أبو سهل» عن الخادم المدعو «وردان» حين تذكر لحظتها أنه لمحه قبل أيام يتسلل من المنزل ليلًا، ويعود قبيل الفجر. ولما سأله ابن سينا عن ذلك، أجاب الخائن «وردان» بأنه يرعى أيتامًا في طرف البلدة، ومتزوِّج سرًّا من أمهم الأرملة! كان تبريره غريبًا، وحاله مريبًا.. فكيف صدَّقه «ابن سينا» واستنام عنه في غمرة الغفلة؟

«لا بد أن نرحل عن هنا، قبل بزوغ الفجر».. همس أبو سهل بذلك وهو يرتجف، مجددًا، فأخذه ابن سينا إلى غرفته وأيقظ في طريقه خادمًا مخلصًا يعمل بمنزله منذ سنوات، اسمه قنبر.. في الغرفة أخرج «ابن سينا» رقوق عبودية مماليكه الثلاثة، والأَمَة المسنة التي كات تعد الطعام، وكتب خلف كل صكٍّ من الأربعة شهادةً بعتق صاحبه وذيَّلها بختمه، وأشهد عليها أبا سهل المسيحي. وأخذ من صرة النقود عشرين دينارًا، وأعطاها هي والصكوك لخادمه المندهش مما يجري، وقال له: هذا يا «قنبر» آخر ما سأطلبه منك. سأرحل الآن، ولا تخبر أحدًا بذلك. وخذ من هذه سبعة دنانير لك، وبعد يومين أعطِ الباقين دينارين لكل واحدٍ منهم، وشهادة عتقه. ولا تسمح لوردان الأعرج بالخروج من هنا أو اللقاء بأي شخص خلال هذين اليومين، ولو لزم الأمر احبسه مقيدًا.

ـ هو خائن يا سيد، صح؟

ـ نعم يا قنبر، ومدسوسٌ عليَّ.

ـ كنت أشكُّ في ذلك. الحقير. هل تحب أن أقتله بجريرته هذه، وأدفنه خلف المنزل؟

ـ لا، لسنا قتلة. وأرواح الناس ليست ملكنا، نزهقها وقتما نشاء.

بعدما خرج «قنبر» وقف ابن سينا لحظةً متحيرًا في وسط الغرفة، ثم سأل أبا سهل إن كان يحتاج المرور على بيته، قبل الرحيل. فقال: لا، ليس لي فيه ولدٌ ولا مال، وقد حذرني صاحبي من الذهاب إلى هناك، لأنهم يترصدونني مثلما يترصدونك.

.. مُستترين بعتمة الليل والرياح الصيفية الغبراء، خرجا من الباب الخلفي للمنزل قبل الفجر بساعةٍ، وعليهما ثياب رثة، وفوق رأسيهما عمامتان متهرِّئتان. وفي يد كل منهما وحول عنقه، مسبحةٌ طويلة. فصارت لهما هيئة المجذوبين من المتصوفة، المعروفين بين الناس باسم القلندرية. وعلى تلك الهيئة حثَّا الخطى نحو الشرق مسرعين، حتى بلغا المرفأ الذي على ضفة نهر «جيحون» الكبير، المسمى اليوم أموداريا.. لم يخبر ابن سينا «أبا سهل» بخطة الفرار من قدر الله إلى قدر الله، ولم يسأله «أبو سهل» إلا بعد ساعتين من إبحارهما بالقارب شمالًا، إذ استعلنت شمسُ النهار الحارقة واستفاق رأس«أبي سهل» من خطفات الوسن، بعد طول ترنُّحٍ سأله همسًا وهما منزويان بطرف القارب: لماذا نتجه شمالًا يا بوعليّ؟

ـ لأنهم يتوقعون ذهابنا غربًا.

ـ صح، هذا تدبيرٌ حكيمٌ منك. ولكن، ماذا بعد؟

ـ عند الظهر، نكون قد ابتعدنا بما يكفي، فنعبر صحراء «قره قورم» حتى نصل إلى شاطئ بحر قزوين، ومن هناك نبحر جنوبًا في قارب، ثم نسلك الدروب التي بين جبال «البُرُز» حتى نصل إلى «الريّ» ونكون بأمان هناك، في كنف البويهيين.

ـ طيب. لكن عبور هذه الصحراء القاحلة، يحتاج الركوب يومين أو ثلاثة. فليكن الربُّ معنا، ويبعد عنا قُطاع الطريق.

قرب قريةٍ نائية بالضفة الغربية من النهر نزلا من القارب، ومن خادم كنيسةٍ صغيرة بطرف القرية، اشترى ابن سينا حمارين هزيلين وما يلزم من الزاد والماء، ومضيا في سبيلهما غربًا من دون إبطاء.. امتدادُ الصحراء المقفرة مهيبٌ مقلقٌ، والمحتملُ من الأخطار فيها كثير. لكن غير المحتمل، كان ما وجداه في صبيحة اليوم الصحراوي الثاني، فبعدما عبر عليهما اليوم الأول بسلام ومشقةٍ تُطاق، أوقدا في الليل نارًا بين جدران بيتٍ متهدم، وأسعدهما أن الرياح اشتدت وتزايد صوت صريُرهاَ، والهزيم، مما يضمن لهما خلوَّ النواحي من الذئاب الهائمة وقطاع الطريق.. فجأةً، أخذ «أبو سهل» يتغنَّى بترنيمةٍ كنسيةٍ كئيبةِ الإيقاع، سريانيةِ اللغة، وهو يشخص ببصره نحو النجوم التي توارت خلف الغبار المتطاير بفعل الرياح. وبعد حينٍ توقف عن الغناء بغتةً وقال بنبرةٍ مستسلمة، إنه يشعر بأنهما لن يصلا إلى الري!

أدرك ابن سينا أن الإجهاد والقلق، قد بلغا بصاحبه الحدَّ الذي يحلو معه للعقل أن يطيش، فأخرجه مما يعصف ببدنه النحيل المكدود المهدود، وبرأسه، بسؤاله: أخبرني يا أبا سهل، هل دفعت برسالتك الأخيرة في «الوباء وفساد

الهواء» إلى الوراقين لنسخها؟ ضحك أبو سهل ضحكةً متشنجةً، تدل على أنه أدرك المغزى من السؤال. ولم يجب. سكت ابن سينا لحظةً ثم عاد وسأله ليؤانسه بالحديث، عما يحضر بخاطره الآن من القصائد والأشعار. فأنشده «أبو سهل» من فوره، بالعربية، قول أبي تمام: السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتب... ولم يكمل البيت، وأخذه الضحكُ الممزوج بالنشيج، حتى دمعت عيناه من فرط إحساسه بالتعاسة.

أطل عليهما الفجرُ الذي لا يشبه الفجر، فكان شديدَ الوطأة، مليئًا بالمتطاير حولهما من الغبار.. ترددا حينًا بين استكمال الطريق، أو البقاء في حماية الجدران المتهدِّمة. ولما هدأت الريح لوهلةٍ أسرعا بالرحيل مستبشرين، ولم يعرفا أن القدر يتربَّص بهما.

وسط صحراء لا مأوى فيها ولا مكان للاختباء، اشتدت عند الظهيرة الرياحُ وتراقصت في الأفق أعمدةُ الأعاصير، ثم ما لبثت الريح أن اعتراها الجنونُ فعصفت بالأرض وعربدت، حتى حجبت السماء عن الأرض تمامًا. ما عادت قوائم الحمارين قادرة على الحمل أو المسير، وفور نزولهما عن ظهريهما أصابهما الخبلُ والفزع، فانفلتا وأطلقا مع الريح السيقان حتى غابا عن النظر في غمرة الغبار.. خلع ابن سينا جلبابه وربط الكُمَّين فجعله كمئذنةٍ من قماش، ليحتمي به من هجمة العاصفة الهوجاء، وفعل لأبي سهل الشيء ذاته. ولكن هيهات. فالأحجار الراجمة القادمة مع غمرات الغبار، لا يصدها رداءٌ، وسرعان ما طارت عنهما المئذنتان. حاول ابن سينا حماية وجه أبي سهل الذي هبط إلى الأرض وقد أخذه الخُناق واعترته الرجفة، فجلس إلى جواره محاولًا أن يحجب عنه التراب بما تبقَّى من ثوبه المتهرِّئ، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا.. فقد تزايدت عربدةُ العواصف وعلا هزيمها، وراحت الريحُ ترمي بالحصى والأحجار التي تكنسها من فوق الأرض ثم ترسلها في الهواء كالسهام. متكوِّما أحاط ابن سينا بذراعيه صاحبه وأستاذه المسكين، وشعر بارتجاف بدنه النحيل قبل أن يأخذه منه الإغماء، فأخذ يناديه بصوتٍ غير مسموع: يا أبا سهل اصبر، اصبر يا أبا سهل..

بعد عدة رعداتٍ مات أبو سهل المسيحي، ودحرجت الريحُ جثته حتى طمرتها الرمالُ وابتلعتها الصحراءُ.. وحين أفاق ابن سينا من الإغماء الذي غلبه وغيَّبه ساعاتٍ طوال، وجد نفسه وحيدًا وسط السكون، ووجد بوجهه الذي رجمته بالأمس الريحُ بالأحجار والحصوات، خيوط دماءٍ مخلوطة بالغبار.. دار في الأنحاء المحيطة مترنِّح الخطى، متهرئ الأسمال، حتى وجد كومة من الرمل. وحين لمح تحتها جثة صاحبه المسكين، سحَّت عيناه بسيل من دموع وراح يصيح في فراغ الصحراء وهو ينظر إلى السماء:

يا أَلله

يا أَلله،

أَلهذا العذاب خلقتنا؟

يا أَلله.. رُدَّ عليَّ!

***

أدرك «ماهيار» أن الشيخ الرئيس أخذته مواجيدُ الذكريات، انتزاعًا، فسكت تأدبًا واحترامًا. ولما طال الصمت، خطر بباله أن يواسي ابن سينا، فقال: يا سيدي، مهما كانت الأهوال التي واجهتك في ذاك الطريق، فهي أهون شأنًا مما جرى في «الجرجانية» عقب رحيلكما، فقد كنتُ هناك وشاهدت بعيني ما جرى من الأهوال والبلايا.

ـ ماذا شاهدت يا «ماهيار»؟ أخبرني.

ـ ألا نُرجئ ذلك للغد يا سيدي، فقد كان يومك مرهقًا؟

ـ لا، أنا بخير. وغدًا سأقضي نهاره والليل في الكتابة، فاذكر الآن ما رأيته هناك.. ولا تزيد، ولا تتزيَّد.

قصَّ عليه «ماهيار» ما كان من أمره بعد مفارقته أهله بالرستاق، عقب عيد الفطر سنة سبع وأربعمائة، ثم وصوله في اليوم العاشر من شهر شوال إلى العاصمة الخوارزمية كَرگَانج (الجرجانية) ظهرًا، فأبهره اتساعها وعمرانها ورخاء أهلها. كان الأوان آنذاك خريفًا. فور وصوله، سأل عن ابن عم أبيه المستقر هناك منذ سنوات «مهدي الشيرازي» حتى وصل إلى منزله بأطراف البلدة، واكترى بمعاونته بيتًا صغيرًا مجاورًا. كان مستبشرًا، حتى أخبره قريبه في سهرة الترحيب، بالأمور المقلقة. كثيرٌ من الجند الخوارزمية والرجال المرموقين، بل ومعظم العوام من الناس، يرون أن حاكمهم «مأمون بن المأمون» لم يحافظ على نهج أبيه، وغدا خانعًا لمحمود الغزنوي ومسلوب الإرادة معه، خصوصًا بعدما تزوَّج بأخته التي صارت تتدخل في أمور الدولة. وهذا أمرٌ مذموم عند الخوارزمية الذين هم بطبعهم قومٌ يتفاخرون بأنفسهم وبلادهم، ويرون أنهم أشرف وأجلُّ مكانة من هذا «الغزنوي» الذي غدر بأسياده السامانيين، وانتزع مُلكهم الذي كان مستقرًّا ببخارى المتاخمة للجرجانية، ثم استولى على النواحي الجنوبية بما فيها «سمرقند» العريقة، بقوة السيف وجحافل العسكر المماليك.. فلما أمر «مأمون بن المأمون» أئمة المساجد وشيخ الجامع الكبير، بالدعاء في خطبة الجمعة للغزنوي كأنه خليفة المسلمين، اهتاجت النفوس وتميَّزت غيظًا، وتزايد غضب الخوارزمية على حاكمهم الذي أعطى لنفسه لقب «خوارزم شاه» ثم ارتضى أن يكون تابعًا ذليلًا للغزنوي الذي يسمونه «السفاح».

واليوم، حسبما قال «مهدي الشيرازي» لماهيار في تلك الليلة، حدث أمرٌ فاق كل التوقعات واستنفد صبر الناقمين على حاكمهم. فأهل خوارزم كانوا يتفاخرون بمملكة السامانيين التي ترعى العلم وتحتضن العلماء من أنحاء الأرض، فلما قضى الغزنوي على مجد السامانيين ظنوا أن مملكتهم هذه هي وريثة هذا المجد. لكن «الغزنوي» بالغ في إذلالهم، وبعث هذا الصباح رسالةً آمرةً إلى «مأمون بن المأمون» كأنه أحد غلمانه وتابعيه الضعفاء، يلزمه فيها بترحيل العلماء والفلاسفة المستقرين في الجرجانية، فورًا، إلى عاصمة مُلكه ببلاد الأفغان «غزنة» التي كان يقال لها سابقًا «غزنين» وصار البعض يسمونها مؤخرًا «كابل» أو كابول.

ـ كيف ذلك يا عمي «مهدي»؟ قد أتيت إلى هنا، كي أتلقى العلم على يد واحدٍ منهم. فما العمل؟

ـ لا أدري يا ولدي كيف سيتصرف «مأمون بن المأمون» في هذا الأمر. كل ما أعرفه أنه استدعى العلماء إلى قصره اليوم، عصرًا، وهبط الليل وهم عنده. غدًا نعرف ما آلت إليه الأمور، استرح الآن من سفرك، وغدًا تتضح الأمور.

في الصباح الباكر، هب «ماهيار» من نومه على أصداء صخبٍ وأصوات صرخات متقطعة جاءت إلى أذنيه من بعيد، فهبَّ فَزِعًا وذهبَ من فوره إلى بيت قريبه المجاور، فوجده لدى الباب مع أهل بيته، يُحكم إغلاق الباب بيدٍ ترتعش. لم ينتظر سؤال «ماهيار» عما يجري، وبادره من فوره بقوله: أسرع بإحضار ما تخشى ضياعه، ولا تتأخر،

سوف نلجأ إلى مقرٍّ آمن. أسرعْ.

في الطريق إلى البيت القديم المتواري خارج البلدة، خلف أشجار جافة تحوطها بساتين غير خضراء، قال «مهدي الشيرازي» إن هذا الموضع النائي هو الأكثر أمنًا، حتى حين. وبلع ريقه ثم أضاف سنترك هنا متاعنا والعيال والنساء، ونعود إلى البلدة لنستطلع صحة الأخبار وحقيقة الحال. وفي البلدة التي كانت تعصف بها الأهوالُ وتسودها الفوضى، عقب هجوم الثائرين على القصر الأميري، استأجر «مهدي الشيرازي» عشرة من جند الديلم الأشداء ليحتمي بهم ويحمي ذويه، إذ كان يعرفهم من قبل ويثق فيهم، وعاد بهم إلى المخبأ الذي اختاره، وفي طريق العودة عرف منهم أن العسكر الخوارزمية انقسموا على أنفسهم، فالغالبية منهم ثائرون، والقلة محايدون على مضض. وقد اقتحم الثوار قصر الحاكم «مأمون بن المأمون» وقتلوه قتلةً شنيعةً ونهبوا كل ما وجدوه من متاعه، وأخذوا زوجته أسيرةً لإذلال أخيها محمود الغزنوي مثلما أذلهم. وقالوا إن الفوضى تعم الآن النواحي كلها وإن «الغزنوي» سوف يسرع إلى هنا بجيشه، ويفعل أهوال الويلات انتقامًا لكرامته التي أُهدرت.

في النهار التالي نُصح «ماهيار» بالعودة إلى أهله والاستكانة حينًا في الرستاق البعيد الآمن، فأبى. وفي النهار التالي دخل البلدة ومعه اثنان من الجند الديلم ليستطلع أخبار العلماء وما جرى معهم، فلم يظفر يومها بشيء. وفي النهار التالي، أعاد الكَرَّة، فعرف أن ابن سينا رحل ومعه أبو سهل المسيحي، وأن أبا الريحان البيروني كان حظه حسنًا أو أنه احتاط، فلم يكن بالقصر الأميري لحظة الهجوم عليه. وهو الآن يختبئ في مكانٍ غير معلوم، وربما يكون قد رحل هو والعلامة منصور بن عراق. وفي النهار التالي، بلغ سمعه أن «البيروني» يختبئ في منزل الوزير «أبي الحسين السهلي» فذهب إليه من فوره.. في البداية، رفض البيروني الخروج من المنزل لمقابلة «ماهيار» ثم وافق بعد إلحاحٍ، وجاء إليه في الحديقة الخليفة مضطربًا عاقدًا حاجبيه: ماذا تريد مني أيها الشاب؟

ـ أريد أن أصحبك وأتعلم منك.

ـ ليس هذا بالوقت المناسب لذلك، ولا المكان.

ـ ارحل معي يا سيدي. عندي المكان الذي يليق بك، والمكانة، ولا تقلق من أي شيء. فإن لديَّ من المال ما يكفي وزيادة.

ـ لم أبحث يومًا عن مال.

ـ طبعًا يا سيدي «الأستاذ» أعرف ذلك، لكنني أقصد أن ديارنا هناك آمنة، ولن يعوزك فيها شيء من حطام الدنيا.

كأن السماء كانت لهما بالمرصاد. فما كاد «البيروني» يطرق متفكرًا في المقترح، حتى صاح أحد خدام الوزير «السهلي» وهو يجري من الباب الخلفي للمنزل إلى داخله، وقد ملك زمامه الرعبُ.. كان الخادم يقول لاهثًا: طلائع جيش الغزنوي لاحت من بعيد، وأعوانه من الجواسيس والعسس والعسكر الذين كانوا مستترين، يطوِّقون الآن حواف المدينة، ويقتلون الفارين منها، وينهبون ما معهم.. والعسكر الخوارزمية خرجوا إليه.

هبَّ «البيروني» واقفًا وقد انخطف لونه، وأسرع إلى داخل المنزل بعد أن قال لماهيار: اذهب الآن أيها الشاب إلى سبيلك، حتى تتضح الأمور.. ولم يجد «ماهيار» سبيلًا إلا العودة متعجلًا إلى المأوى الذي اختاره قريبه خارج

المدينة، وفي طريقه إلى هناك رأى الناس وقد أفزعهم الكربُ العظيمُ، وطفرت من عينيه دموع. إذ تخيَّل حال «شيراز» وما جرى لأهلها حين اقتحمها «أبو الفوارس» قبل شهور للاستيلاء عليها وإزاحة أخيه عن حكمها. وأدرك في لحظة كشفٍ للبصيرة، أن هؤلاء الحكام السكارى بخمر السلطة وبنشوة نشر الفزع، وسفك دماء الأبرياء؛ هم أحطُّ الأراذل من البشر، بل هم أقرب إلى درجة الحيوان منهم إلى مرتبة الإنسان، مهما أحاطوا أنفسهم بأبهة الحكم وزُخرف السلطة، وزعموا أنهم النبلاء.. ليس في الناس نبلاء، حقيقةً، إلا العلماء.

لم يستطع العسكرُ الخوارزميةُ صدَّ الغزاة الغزنوية الذين يفوقونهم عددًا وعدة، فانهزموا أمامهم بعد قتالٍ ضارٍ، واقتحم «الغزنوي» المدينة واستباح عسكره نواحيها التي كانت بالأمس آمنة، وبعد ثلاثة أيام أمَّنوا الناس وأخرجوهم من البيوت. لا ليحتفلوا بعودة الطمأنينة، وإنما ليكونوا شهداء على انتقام السلطان الَّذي نصبوا له مجلسًا يشرف على الساحة الرحبة بالمدينة، ليستمتع بمشاهد القسوة التي بلا حدود.. اقتادوا الذين وقعوا في الأسر من العسكر الذين ثاروا، والذين حاولوا صدَّه عن بلدتهم.. ساقوهم أمام أعين الناظرين زُرافات، وذبحوهم على مرأى من الجميع، ليتعظ الرائي بمصير المرئيِّ. وكان الغزنوي يضحك، ومن حوله أعوانه يهتفون له. وجاءوا من المكتبات التي خرَّبوها، بأحمالٍ لا حصر لها من المجلدات ونوادر المخطوطات، وأحرقوها حتى تعالت فوقها ألسنةُ اللهب وبلغت عنان السماء. وكان الغزنوي يضحك، ومن حوله أعوانه يهتفون له. ثم اقتادوا فقهاء الشيعة متسلسلين، عاريةً رءوسهم، وبعدما قيَّدوا أيديهم إلى أعناقهم بقماش عمائمهم، وفي وسط الساحة نحروا رقابهم تباعًا كأنهم نعاج. وكان الغزنوي يضحك، وأعوانه يهتفون له.

وأتوا بجماعة من أئمة المعتزلة وتلاميذهم، ومعهم كل الذين يقولون بأولوية العقل على النقل، وقتلوهم واحدًا بعد الآخر باعتبارهم زنادقة. ولما جاء الدور على آخرهم، وكان رجلًا مُسنًّا فارع الطول، له ملامحُ عربية صارمة. تقدم الرجلُ إلى النطع الذي تُقطع عليه الرقاب وهو يضحك، وعلى وجهه علامات الابتهاج.. أثار ذلك غيظ «الغزنوي» وقطع عليه استمتاعه، فزعق في الرجل من مجلسه قائلًا: لماذا تضحك يا مجنون؟ فزعق فيه الرجل بصوت جهير سمعه الجميع: يضحكني عجزك يا مملوك، يا سليل العبيد، تقتلني وأنا الأعزل الضعيف وتضحك، وأنت تعلم أن جند الخوارزمية الذين خطفوا أختك، يتناوبون الآن اغتصابها في مغارةٍ بعيدة، ولا بد أن فرجها المتقرِّحُ قد تهرَّأ الآن. مسكينة.

ضرب الجلادُ عنق الرجل المعتزلي بسيفه الهندي العريض، ليُسكته، وساد السكونُ لحظةً وَجَمَ خلالها الجميعُ وهم من فرط الدهشة مذهولون، وقفز الغزنوي من فوق كرسيه الكبير وصرخ في الجلاد: كيف تقتله وحيًا يا كلب، هذا لا يقتل إلا صبرًا وبعد تعذيبٍ مرير، اقتلوا هذا الجلاد.. وترك مجلسه كأنه يهرب من أمرٍ بداخله، ومن العيون الناظرة، ولحق به رجال دولته وراحو من خلفه يتدحرجون وقد ركبهم الهمُّ.

***

صبيحة اليوم التالي، خرج المنادون وحولهم العسكر الغزنوية فطافوا البلدة، داعين الناس إلى الخروج إلى الساحة ومحذرين من التواني عن ذلك، ومهدِّدين.. اجتمع خلق كثيرون ووقفوا هناك على أقدام الترقب والوجل، متجاورين، وسرى بينهم التهامسُ وتداخلت العبارات والتساؤلات: استر يا ستار. هل سيقتلنا كلنا؟ أشهد أن لا إله الله. لا أريد أن أموت. لماذا ينتقم السلطان منا؟ اللهم ارحمنا برحمتك في هذا اليوم العظيم. لن يحدث شيء. لماذا

يصطف المسلمون بجوار أهل المِلل؟ سيكفيكهم الله وهو السميع العليم. أنا من أهل السُّنة. متى يأتي السلطان؟ لماذا يحيط بنا العسكر؟ انظر، السلطان قادم وحوله الحاشية.. زعق المنادون المبشرون بتشريفه: حضرة يمين الدولة، السلطان الغازي محمود بن سبكتكين، ناشر أعلام السنة، قامع البدعة، فاتح الهند، محطم الأصنام، ناصر الإسلام والمسلمين.

أقبل الغزنوي وعلى رأسه عمامة صغيرة الحجم تكشف عن احمرار شعره المهوَّش، وعيناه الضيقتان قد ازداد ضيقهما مع النظرات الصارمة التي كان يقذف بها المحتشدين.. ذهب إلى منصة الأمس مُسرع الخطى، واعتلاها وعليه علامات الغضب. ومن خلفه، جاء عددٌ محدودٌ من حاشيته، ولم يظهر معشوقه الأمرد «إياز» وبقية الغلمان والطواشية الذين كانوا بالأمس يحفون مجلسه.. فور استوائه على العرش، قام المنادي واعتلى المنصة التي بوسط الساحة وصاح: قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صدق الله العظيم، بتوفيق من الله توفَّرت الدلائل بعد البحث، وثبت أن الشهيدة البارَّة الطاهرة أخت السلطان محمود، زوج خوارزم شاه مأمون بن المأمون رحمهما الله، لما اقتحم المجرمون قصرها وقتلوا زوجها، قضت من شدة الخوف ولفظت آخر أنفاسها. فأخفى المجرمون رفاتها الطاهرة، ظنًّا منهم أنهم سيفلتون من العقاب، ولكن الله من ورائهم محيط. وقد دلَّ على مخبئهم المخلصون للسلطان، وتأكد القاضي من ارتكابهم هذا الجرم الشنيع، فحق عليهم القول والخزي. وهاهم يساقون أمامكم إلى الموت وهم ينظرون.

تقدم الحراس والجلادون وهم يجرُّون خمسة رجال ممزقة ملابسهم من ضرب السياط، ومشوهة وجوههم من فرط التعذيب، فوضعوا على النطع رقابهم وفصلوها عن أجسادهم بالسيوف.. تصايح عسكرُ السلطان وأعوانه بالهتاف: الله أكبر، الله أكبر! فقام السلطان ببطءٍ فوقف عند حافة المنصة وقد بدا عليه الرضا، وصاح: أين بقية الزنادقة.

من طرف الساحة الشرقي، حيث مقر الشرطة الذي صار بعد مجيئهم سجنًا، جاء عسكر السلطان بقرابة مائة رجلٍ مقيدة أياديهم وعليهم عوض عن الملابس جلودُ الثيران، إمعانًا في إهانتهم، فاستعدَّ الجلادون.. شهق «ماهيار» حين رأى وسط المساقين إلى الموت أبا الريحان البيروني والعلامة ابن عراق والحكيم الطاعن في السن، المسمى بأبي الخير الخمار.. ولما اقترب هؤلاء الأجلاء من الجمع، اضطرب كثيرٌ من المحتشدين بالساحة وعلت بينهم الهمهمات، عندئذٍ قام واحدٌ من حاشية السلطان عليه سمات أهل الفضل، وهمس في أذنه بكلماتٍ كانت مجدية. إذ أومأ السلطان برأسه موافقًا عقب كلام الرجل، وأشار بيده إلى الجلادين بما يفيد الأمر بالتريث، ونزل الرجل مهرولًا نحو السائرين إلى حتفهم مستسلمين، وعزل منهم جماعةً تقارب في العدد العشرين رجلًا، من بينهم البيروني، فأعادهم الحراس إلى السجن وساقوا البقية إلى القتل.. عرف «ماهيار» لاحقًا أن هذا الرجل هو أحد المقربين من السلطان، واسمه «أبو نصر مشكان» وقد توسَّط للعلماء عند سلطانه، وأقنعه بأن «البيروني» منجمٌ والملوك يحتاجون أمثاله لقراءة الطالع! وهؤلاء الآخرون يشتغلون بعلم العدد والأرثماطيقى، وهو أساس «الحساب» الذي تحتاجه السلطنة لضبط أمور الخراج والغنائم والمكوس الواجبة على التجار.

وانتهى ذاك النهار المريع بوقائع أخرى عديدة، منها أن الحراس اقتادوا جماعة من التجار الكبار وافري الثراء، إلى

مجلس السلطان. فعبس في وجههم وهو يقول: بلغني أنكم من القرامطة! فأجابوا بما يريد سماعه: يا سلطان الزمان، لسنا قرامطة، ولدينا من المال ما يؤخذ منه، لنبرأ من هذا الاتهام! فحكم السلطان بأن يدفع كل رجل منهم نصف ما يملكه من مال، ويُعطي إفادة بأنه ليس من القرامطة أو الهراطقة.

ومن وقائع ذاك اليوم أن السلطان أعلن الأمان العام وأن «خوارزم» صارت ضمن نطاق مملكته، وسوف يتولى أمورها حاجبه المسمى «توتناش».. ومنها أن السلطان دعا في ختام اليوم إلى النفير العام للجهاد ونشر الإسلام، ودعا المتطوعين من الشباب الذين يريدون الاقتداء بالسلف الصالح، للانضمام إلى جيشه الذي يغزو دومًا بلاد الهند لنشر الدين القويم.. ومنها أن «ماهيار» عرف بعد امتداد ظلال المساء أن «البيروني» والذين تم استنقاذهم من القتل، سوف يساقون تحت الحراسة إلى «غزنة» ويُسجنون هناك. فتاقت نفسه إلى اللحاق بهم. سأله قريبه الشيرازي عن جدوى ذلك، فأجابه ماهيار قائلًا: هؤلاء العلماء يا عمي هم المصابيح التي يُستضاء بها، ولسوف تنقضي محنتهم يومًا ويرضى عنهم السلطان فيطلق سراحهم، فأتعلم منهم.

ـ وما أدراك بذلك يا ولدي، وكيف تقوم بمغامرة كهذه عواقبها غير مأمونة؟ «غزنة» وبلاد الأفغان، قاحلة قاسية.. أنت لا تعرفها.

ـ أعرف يا عماه أن «البيروني» والذين معه هم خيرة أهل الأرض، وهم اليوم بحاجة إلى العون.

ـ إن كنت مُصرًّا، فاصبر حتى الغد. فقد أجد سبيلًا مأمونًا، تبلغ به المأمول.

كان «الشيرازي» محبًّا للعلم والعلماء، وشاعرًا، وكان موقنًا بأن الراحلين إلى سجن السلطان بغزنة سوف يحتاجون العون. فتفهَّم رغبة «ماهيار» واجتهد من خلال معارفه حتى توصل إلى اتفاق خاص، مع كبير الحراس الغزنوية الذاهبين بالعلماء إلى السجن، ونفحه سرًّا مقدارًا من المال مقابل أن يذهب معهم «ماهيار» على اعتبار أنه تاجرٌ لديه حمولة من الفواكه المجففة، يريد أن يذهب بها من الجرجانية إلى غزنة ويحتاج حماية الحراس.. وهكذا ذهب «ماهيار» صوب الجنوب القاحل مع القافلة العسكرية التي اقتادت العلماء إلى السجن، وكان خلال الرحلة التي استغرقت أسبوعين، يُعنى بالبيروني والذين معه ويؤانسهم ليهوِّن عليهم الهوان.

وكان مما جرى مع «ماهيار» فور وصوله إلى عاصمة السلطنة، ولم يكن متوقعًا، أن الحمولة التي تحجَّج بها وتوسَّل ليصحب البيروني وحراسه، وكانت سبعًا من النوق البلخية والجِمَال. بيعت في «غزنة» بثلاثة أضعاف ثمنها في الجرجانية، نظرًا لأن خوارزم فيها بساتين وفواكه كثيرة وأهلها يتقنون تجفيف الثمار، والنواحي الأفغانية جبلية قاحلة والبساتين فيها قليلة. كما أن «غزنة» كانت مزدحمة بالخلق، إذ اكتظت بأهلها وبعشرات الآلاف من المماليك الذين اشتراهم السلطان وجعلهم عسكره، وبما لا حصر له من الشباب المتطوعين للجهاد في سبيل الله، استجابةً للدعوة التي يعلنها السلطان دومًا، ويشجع الفتيان عليها.. أما السبايا من الهنديات، والأسرى الهنود، فقد بلغوا من الوفرة والاستغناء عن اقتنائهن واقتنائهم، أن الإنسان الواحد منهم كان يباع بتسعة دراهم بلخية، وهو ثُلُث ثمن معزاة هزيلة.

وهكذا كسب «ماهيار» مالًا من دون قصد، فأنفقه في استئجار بيتٍ قريب من السجن، وفي بذل النقود للحراس كي يوصلوا للبيروني ما يحتاجه في محبسه، ويسمحوا له بزيارته خلسةً كلما سنحت فرصة. ولما نفد المال الذي جناه مصادفةً، صارت أخته «ماهتاب» تمده بما يلزمه وصار يرسل إليها مع التجار والمترددين بين البلاد من الركابيين، ما

يستجد من أخباره وأخبار الأستاذ.. رفع ابن سينا حاجبيه مندهشًا، وهو يسأل ماهيار:

ـ وما شأن أختك بأخبار أبي الريحان؟

ـ هي شغفة به، وتحب كتبه ومؤلفاته.

ـ أختك! كيف.. وقد قلت لي سابقًا إنها تُعنى بالطب وعلاج النساء، فما سبب اهتمامها بالطبيعيات والرياضيات؟

ـ هي يا سيدي تقول، إن العلوم تتواصل خفيةً على نحوٍ عجيب.

ـ هي تقول ذلك! عجيب، أنا لم أسمع بامرأةٍ مثلها من قبل..

ـ لأن الناس لا تُعلِّم النساء يا سيدي، لكن أبي فعل. ألن تسمح لها بلقائك، هي تنتظر خلف الجدار.

ـ أي جدارٍ تقصد يا ماهيار؟

ـ هذا يا سيدي، فهي تسكن الحجرة الملاصقة لحجرتك هذه، من خارج سور القلعة. وقد حصلتُ من الآمر «منصور المزدوج» على إذنٍ بدخولها، فوافق لكنه اشترط رضاك عن الأمر، وأن يكون جلوسها إليك عقب الغروب؟ فما رأيك يا سيدي الحكيم.

تحيَّر ابن سينا لحظة، وفي الحقيقة ارتبك، ثم مسح بباطن كفه اليمنى على شاربه ولحيته الخفيفة.. وبعد تردُّدٍ، وجد مخرجًا فقال لماهيار: دعنا من أختك الآن، وأكمل لي ما كان من أمرك مع البيروني.

***

أمضى البيروني في سجن «غزنة» ستة أشهر ثم أُفرج عنه لعدم جدوى الحبس، وبسبب الوساطات، فخرج كسير النفس واستكان منزويًا بقريةٍ فقيرة بالقرب من العاصمة السلطانية، اسمها «جيفور». وهناك لازمه «ماهيار» وتعلم منه دقائق الفلك والهندسة، ودرس على يديه طرق البرهنة وحساب المثلثات اللذين برع فيهما الأستاذ، وعرف منه طريقة العلامة «ابن عراق» في استعمال القطوع المخروطية لحل المعادلات الجبرية. وكان «ابن عراق» يحضر بعض هذه الدروس، إذ كان يسكن قريبًا من محل إقامتهما، ويجلس في الزاوية صامتًا.. مكتفيًا بالنظر نحو «البيروني» وهو يشرح، وعيناه تفيضان بالأسى الوفير والأمل الضعيف.

وقرأ «ماهيار» على يد البيروني، بناءً على نصيحة العلامة ابن عراق، كتاب أوقليدس «أصول الهندسة» وكتاب بطليموس الإسكندراني «المجسطي». وهناك شاهد «ماهيار» عيانًا عبقرية البيروني في قياس محيط الأرض، اعتمادًا على الطريقة المبتكرة التي وصفها أبو الريحان في كتابه البديع «الأسطرلاب» انطلاقًا من حساب مساحة «المثلث المتخيل» لامتداد ظل الشمس عند غروبها، على أرضٍ مستويةٍ بها جبل مرتفع، بحيث يكون عمود الجبل هو الضلع القائم في هذا المثلث وبأعلاه الزاوية العليا للمثلث المتخيل، والزاويتان الآخرتان عند نقطتَي امتداد الظل.

ورويدًا، سارت الأمور مع «ماهيار» هادئة بل صارت هانئة، ونعم بفترةٍ مفعمةٍ بالعلم والمعرفة وصحبة الأكابر، حتى إنه نوى استدعاء زوجته وأخته وأمه، للعيش معه بالقرية القريبة من عاصمة السلطنة الغزنوية. لولا أن السلطان استدعى ابن عراق والبيروني في أواخر العام التاسع بعد الأربعمائة، وأخبرهما بأنهما سوف يذهبان معه لغزو الهند، فامتثلا صاغرَين.. وذهب «ماهيار» مع البيروني، فرأى معه الأهوال التي وقعت بالهند، وشاهد بعينيه

هناك تجسُّد البؤس الإنساني، والأحوال الفظيعة التي تتحدى الدين والعقل.

وبعد عودتهم من هذه «الغزوة» إلى غزنة، طلب السلطان من الأستاذ أن يكتب رسالة للخليفة العباسي ببغداد، يخبره فيها عن فتوحاته الهندية الأخيرة وما جرى خلال الأشهر المريعة التي قضوها هناك. ولم يملك البيروني القدرة على رفض طلب الغزنوي، وكتب تلك الرسالة التي نُسخت كثيرًا وتم تعميمها على الأنحاء والبدان، وكان منها قوله:

«.. وافتتحت نواحٍ واسعة من أرض الهند، ودُخلت مدينة فيها ألف قصرٍ مشيد وألف بيت للأصنام، وفي تلك البيوت من الأصنام شيء كثير. ومبلغ ما على الصنم الواحد من الذهب، ما يقارب مائة ألف دينار. ومبلغ الأصنام الفضة، زيادة على ألف صنم. وعندهم صنم مُعظَّم، يؤرخون بناءه بثلاثمائة ألف عام. وقد سلبنا ذلك كله وغيره مما لا يعد ولا يحصى، وغنم المجاهدون شيئًا كثيرًا، وعمموا المدينة بالإحراق فلم يتركوا منها إلا الرسوم. وبلغ عدد القتلى من الهنود خمسين ألفًا. وأسلم منهم عشرون ألفًا، وأفردنا خُمس الرقيق، فبلغ ذلك ثلاثة وخمسين ألفًا من العبيد والإماء. وحصَّلنا من الأموال عشرين عشرين ألف ألف درهم، ومن الذهب شيئًا كثيرًا».

***

لم يحتمل ماهيار رؤية الفظائع التي جرت في الهند، وصار يتفزَّع كثيرًا في نومه ويشرد في صحوه. وتاقت نفسه لدراسة الطب، لكثرة ما رأى من فَتْكِ الأوبئة والأمراض بالناس هناك، حتى إن بلدات كثيرة ببلادهم خلت تمامًا ولم يعد فيها إلا البيوت المدمرة، وجثثُ الموتى.. فلما ازدادت معاناته، نصحه البيروني بمفارقة «غزنة» لأن السلطان ينوي في مطلع العام المقبل استكمال غزو الهند، لنهب أكبر معابدها على الإطلاق، وهو ذلك النُّصُبُ المسمى «سومَنَات» حيث تمثال معبودهم الإله «شيفا» المصنوع من الذهب الخالص، وتقدر قيمته بآلاف آلاف من الدنانير. ارتجف قلب «ماهيار» وقال لأستاذه: هذا يعني سفك دم آلاف الآلاف من الهندوس، فهل سنقدر على معاينة هذه الإبادة للبشر، وشهود تلك المذابح؟ أجابه البيروني بلسانٍ آسفٍ: أنا محصورٌ هنا وليس لي اختيار أو قدرة على الفرار، أما أنت فيمكنك الخروج من هنا بسلامٍ والعودة إلى عائلتك، أو ما دمت تريد دراسة الطب فبإمكانك الذهاب إلى همذان والتلمذة على يد الفتى الفاضلٍ؛ يقصد ابن سينا.

كان الشيخ الرئيس يستمع باهتمامٍ لما يقصُّه ماهيار، واغتاظ حين سمع وصفه هذا، فقال لماهيار: لا أدري ما الذي جرى لأبي الريحان، يدلُّك عليَّ في زمن وزارتي وأنت التلميذ، فيصفني لك بالفتى الفاضل!

ـ يا سيدي، هو لم يقصد الإساءة، وقد وصفك من قبل بهذا في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية».

لم يقتنع ابن سينا بما قاله ماهيار معتذرًا لأستاذه نيابةً عن أستاذه، وعقد حاجبيه غاضبًا وهو يقول: وصفني بالفتى الفاضل حين كنا صغارًا، فقد ألف «الآثار الباقية» وأنا دون الثلاثين من عمري، وكان هو قد تجاوزها بسنوات قليلة. أما العام الماضي حين جرى بينكما هذا الكلام، فقد كنتُ فوق الأربعين وكانوا يدعونني الشيخ الرئيس، فكيف يصفني بذلك أمامك وأنت التلميذ؟ لا يصح هذا من أبي الريحان. وقد بلغني أنه كتب رسالةً يعلِّق فيها على المراسلات التي كانت بيننا قبل سنواتٍ، فقال: «أبو عليّ، على ذكائه وفطنته، غير موثوق به وليس بمعتمدٍ عليه» لأنه استغرب قولي بأن شعاع الضوء، جسمٌ.

دخل «المزدوج» عليهما في تلك اللحظة، فوجد ابن سينا غاضبًا متقوِّس الحاجبين، فقال بلسان المزاح الجهير: ما الذي أغضب سيد الحكماء؟ أخبرني به يا «ماهيار»، ولسوف أعاقب بشدة ذلك الكلب الذي ضايق الشيخ الرئيس.. فأجابه ماهيار بصوتٍ خفيض: لا شيء يا سيدي الآمر، كنا نتحدث عن الأستاذ البيروني والسلطان الغزنوي.

ـ ها ها ها، إذن لا شأن لي بهذا ولا ذاك. فالبيروني هذا لا أعرفه، والغزنوي لا أقدر عليه وليس لي إليه سبيل. ولكن مهلًا، فإن ما يفعله الغزنوي من أهوالٍ قد صار معتادًا يا سيد الحكماء، فهذا حال عصرنا منذ مائة عام مضت وسوف يمتد مائة عام تالية، وما فعله «البيروني» هذا لن يزيد على فظائع الغزنوي.. فلا تغضب من أحوال وأفعال أهل زماننا هذا، الزنيم اللئيم.

هزَّ ابن سينا رأسه أسفًا، ووضع كأسه الفارغة على الطاولة التي أمامه وهو يقول للمزدوج: يا أخي منصور، ليس للأزمنة أحوالٌ أو طبائع، وإنما هي أفعال الناس تصبغ بلونها أيامهم. وما يقترفه هذا الرجل من سفكٍ للدم ونشر للخراب بدعوى الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، لا يقره عقلٌ ولا دين... قاطعه المزدوج بقوله: لا علينا الآن من ذلك يا حكيم، فعندي أخبارٌ مهمة.

ـ خير يا أخي منصور؟

ـ لا، مع الأسف.. ليست خيرًا..

صبَّ «المزدوج» لنفسه من قنينة النبيذ كأسًا، وعبَّه دفعةً، ثم صبَّ كأسًا ثانيةً وجلس بها قبالة ابن سينا إلى جوار «ماهيار» وأخبرهما بأن أمير أصفهان «علاء الدولة ابن الكاكويه» تحرك صباح اليوم بجيشه قاصدًا همذان، من المتوقع وصوله إليها بعد أيام قلائل، وعندئذٍ سيقع القتال بين الأميرين البويهيين.. «وماذا عن البويهي الثالث، أمير الري؟»، سأله ابن سينا، فأجاب «المزدوج» بإيجاز: هو الآن على الحياد، لكنه قد ينحاز في أي وقتٍ لابن الكاكويه، فهو الأقرب إليه والأحب.

منزعجًا، دعك ابنُ سينا وجهه براحتيه مرتين، واستكمل الكلام مع «المزدوج» قائلًا إن حال الأمراء البويهيين يدعو إلى الاستغراب والدهشة. فهم يتقاتلون فيما بينهم حتى تخور قواهم أجمعين، وهم يعلمون أن الأخطار محدقةٌ بهم جميعًا! يترصَّدهم من الغرب الخليفةُ العباسي ومن الشرق محمود الغزنوي، ومع ذلك يتنازعون فيما بينهم فيفشلوا وتذهب ريحهم. أمرهم غريب. فسَّر «المزدوج» ما يجري، برغبة الأمراء في السيطرة على النواحي كلها فتصير الممالك البويهية الثلاثة وتوابعها، دولةً واحدةً لها جيشٌ موحَّدٌ يستطيع دفع الأخطار المحدقة من الشرق والغرب.. ثم أضاف وهو يبتسم: وعمومًا، نحن هنا بمأمن من هذا الهرج، فهذه القلعة سوف تتبع أي حاكمٍ يستولي على «همذان» وهي بعيدة عن عين محمود الغزنوي، نحن بحمد الله في أمانٍ تامٍّ هنا.

كان «المزدوج» مخطئًا في تقديره، وغافلًا عما سيقع بعد سنوات قليلة. إذ ابتلع «الغزنوي» بالغدر والمكر الرخيص، مملكة «الري» وما يتبعها من إمارات قزوين والجبل، واستولى بالخديعة المشهورة على هذه النواحي الشاسعة، وأحاط بقلعة «فردقان» واستلمها بلا قتالٍ، وقتل «المزدوج» بوشاية «الزعاق».

خبرُ الحرب الوشيكة بين أميرَي أصفهان وهمذان، كان صاعق الوقع على آذان ابن سينا وماهيار، فسكت كلٌّ منهما وأخذته أفكاره إلى آفاقٍ بعيدة، مقلقة. ولما جاء من جهة الساحة حفيفُ أقدام الحراس الذين يحملون طعام العشاء، سأل «المزدوج» إن كانا يفضلان الجلوس بالساحة في الهواء الطلق لتناول الطعام، فقال ابن سينا باقتضابٍ وقد استفاق من شروده: هنا أفضل، فالهواء الليلة باردٌ خارج الغرفة..

بعدما انتهوا على هونٍ من الطعام، مسح المزدوجُ كفيه بقطعة القماش المبلل بالماء، وأدخل يُمناه في جيب جلبابه ليخرج من صديريته ورقةً مطوية، عليها ختمٌ مفضوض.. مدَّها لابن سينا فنظر فيها بإمعانٍ، فوجدها رسالة قصيرة إلى المزدوج من قائد جيش همذان «تاج الملك» يقول فيها بالفارسية ما ترجمته: التزم الحيطة والحذر في الأيام القادمة، ولا تستقبل بالقلعة غرباء.

نظر ابن سينا للمزدوج باندهاش وسأله: أتراه يقصد بالغرباء ماهيار؟ أجابه المزدوج: لا، يقصد العسس والجواسيس، فهو لا يعرف ماهيار وأخته.. ومطَّ شفتيه كالمتحير ثم قال متلاطفًا وهو ينظر إلى ماهيار: هل وافق الشيخ الرئيس على التدريس لأختك؟ وبالمناسبة، زوجتي الصغرى تقول إن «ماهتاب» هي أجمل نساء الأرض، لكنها تقضي معظم وقتها في قراءة الصحائف والكتب كأنها أحد الرجال. ها ها ها. ومع ذلك فهي تجيد الطبخ وصُنع الحلوى!

راح رأسُ ابن سينا يطنُّ، وتاقت نفسه بل اشتاقت لرؤية هذه الجميلة التي تتصرف كالرجال. وازداد التوقُ

والتشوق، حين قال ماهيار وهو يبتسم: نعم يا سيد منصور، هي تقرأ كثيرًا هذه الأيام، لأنها تريد أن تؤلف كتابًا بعنوان «الجمع بين رأيَي الطبيبين، أبقراط وجالينوس» وتجعله على نسق كتاب أبي نصر الفارابي «الجمع بين رأيَي الحكيمين، أفلاطون وأرسطو».. لم يستطع ابن سينا صبرًا، وباح: أريد أن أراها.

ـ حاضر يا سيدي، سأناديها الآن.. فقد غربت الشمس.

ـ لا، ليس الآن.. قل لها تأتي بعد ساعة، وعُد إليَّ لنكمل كلامنا عن أبي الريحان.

قام «ماهيار» لدعوة «ماهتاب» للاستعداد لمقابلة ابن سينا، وقام «المزدوج» وهو يقول إن أمامه عملًا كثيرًا في الساحة الأمامية لتحصين القلعة تحسُّبًا لما سوف يحدث الأيام القادمة، ثم أضاف وهو يبتسم: وقد لا يحدث أي شيء.

فور عودة «ماهيار» للحجرة، سأله ابن سينا إن كان «البيروني» قد تبدَّلت أحواله الباطنة بعد ذهابه إلى الهند مع الغزاة؟ فأجابه بأن تلك الأشهر الهندية كانت قاسية ومفعمة بالفجائع، وقد ازداد خلالها نحولُ «الأستاذ» لعزوفه عن الطعام، وصار يشرد كثيرًا.. سأله ابن سينا: وماذا أيضًا؟ فأجاب: بدا كأنه صار منكسرًا، وقد سكن بعينيه حزنٌ نبيلٌ، ولم تعد عنده طاقة على المجادلة حتى في أمور العلم..

قلَّب ابنُ سينا كفه اليمنى متحيرًا، وظهر في عينيه الشغف لسماع المزيد، فأضاف ماهيار: صار الأستاذ ضيق الصدر، وسريع الغضب جدًّا، وجدني في أمسية مستغرقًا في قراءة الرسالة التي كتبها أبو بكر الرازي بعنوان «القول في القدماء الخمسة» فاحتدَّ عليَّ، وقال مستنكرًا وهو غاضبٌ: لماذا تقرأ لهذا المتكلف الفضولي الذي كتب في الإلهيات، متجاوزًا قدره في المداواة وبطِّ الجروح والنظر في الأبوال والبرازات، ففضح نفسه وأبدى جهله؟

ـ أبو الريحان قال ذلك على ابن زكريا الرازي! هذا عجيب جدًّا. فالرازي حكيم مرموق، وبلغ الغاية، بل لم يأتِ مثله من قبل زمنه بقرون طوال. وقد مضت مائةُ سنة على وفاته، فلماذا يذكره البيروني الآن بالسوء!

ـ يا سيدي، كان منفعلًا بسبب ما يعانيه، وما رأيناه بالهند.

ـ وهل كان منفعلًا بمآسي الهند، حين وصفني بالفتى الذي لا يوثق به؟

ـ لم يقصد الإساءة يا سيدي، وأنت تعلم أن الفتى من الفتوة، ونحن نحتفي بقول النبي عن الإمام: لا فتى إلا عليّ..

ـ دعك من هذا التأوُّل يا ماهيار.. مسكين أبو الريحان، ما كان له أن يبقى في «كركانج» حتى يبتلعها الغزنوي ويستبد به ويطمس روحه.

ـ وماذا كان بإمكان الأستاذ أن يفعل يا سيدي، وقد كان الهلاك يحيط بكل نواحيها؟

ـ الهلاك أهون من المهانة. ولو كان «البيروني» فيلسوفًا، لما هاب الموت.

ـ ما علينا الآن من ذلك يا سيدي الحكيم، فلا تزعج نفسك الكريمة.. واسمح لي بفضلك أن أسألك: ماذا جرى معك بصحراء «قره قورم» بعد وفاة أبي سهل المسيحي بسبب العاصفة؟

باختصارٍ وبغير رضا، حكى ابن سينا لماهيار أنه لما أفاق من الإغماءة التي أخذته، كانت العاصفة قد عبرت بعدما

طمرته هو والأنحاء المحيطة بالغبار والرمال، وكان جثمان «أبي سهل» ملقى تحت كومة ترابٍ فقام إليه بشق الأنفس، وبشق الأنفس حفر له قبرًا وكوَّم فوقه الأحجار. كان لحظتها يستنفد قواه، لظنه أنه سيموت مثل صاحبه في ذاك المكان. وبعد قيامه بالدفن سكن بمكانه بغير حركة، حتى اندفع عنه اليأس باليأس، فقام وسار بخطى تترنح. وبعد حينٍ لمح أوان العصر، جيفة الحمار الذي كان يحمل قربة الماء، فأسرع إليه واستعاد رمقه ببعض الرشفات وغسل وجهه، ونفض الغبار عن ملابسه، ثم جال في دائرة حتى لمح الحمار الآخر جالسًا على مبعدةٍ، لا يقوى على الوقوف.. ذهب إليه ورش على رأسه بعض الماء وبلل مشفريه، فقام، وسقاه من الماء فاستطاع الحمار بعد حينٍ حمله. لكنه لم يطاوعه في استكمال المسير غربًا، وسار بابن سينا إلى جهة الشرق حتى وصل به بعد الغروب إلى الكنيسة التي كان فيها بالأمس.. قال: وهكذا أنقذتني من الموت حكمةُ الحمار! وقد سألني الكاهن عن صاحبي الذي كان معي، فأخبرته بأن العاصفة أخذته وقضى في الصحراء نحبه، فبكاه كأنه كان من أقربائه القريبين إلى قلبه.

أمضيتُ ليلتي في ضيافة كاهن الكنيسة، ورحلت في الصباح متجهًا إلى الشمال الشرقي حيث بلاد التركمان، ثم نزلت مع النهر جنوبًا حتى وصلت إلى نيسابور. ومررت في هذا التجوال ببلداتٍ عديدة: نَسَا، أَبِيورد، عِشْق آباد، طُوس، شَقَّان، سَمَنْقان، جَاجِرم.. ولما نفد المال الذي كان معي، ذهبت إلى «جُرجان» أملًا في لقاء أميرها «قابوس» المحب للحكمة والعلوم، وفور وصولي إليها علمت بأنه أُخذ وحبس في إحدى القلاع. وسوف يموت هناك بعد أيام. لذلك رحلت إلى «دهستان» وهناك عانيتُ من القولنج أول مرة، فعدتُ إلى «جرجان» فالتقيتُ بأبي محمد الشيرازي، المحب للمعارف، فاكترى لي بيتًا مجاورًا لبيته وأهداني عبدًا وجاريتين، فأقمت هناك فترة قبل ذهابي إلى «الري» كنت خلالها أدرِّس للشيرازي كتاب «المجسطي» وقد أهديت إليه أيامها الكتابين اللذين قمتُ بتأليفهما هناك، وهما: المبدأ والمعاد، والأرصاد الكلية.. وكنتُ حين أنفرد، أكتب بعض الرسائل في المنطق والفلك، وأضع مسوَّدات كتابي الكبير في الطب.

ـ بماذا سوف تسميه يا سيدي؟

ـ القانون.. اخترت مؤخرًا هذا العنوان له.

كانت الساعة قد انقضت، وكان ابن سينا في أسر الذكريات حين دخلت عليه بالليل شمسٌ قد امتزج نورها بضوء القمر وبهجة النجوم، ثم تجسَّدت في وجهٍ لا يُنسب حُسنه لهذا العالم الذي نعرفه. فهو من سماءٍ تعلو السماوات. يا ألله، يا مبدع، يا خلَّاق. من أيِّ تبرٍ طاهرٍ وماء وردٍ ورحيق زهور، أبدعت هذه الفتاة الباسقة السامقة التي دخلت من باب الحجرة، وهي تقول بصوتٍ تتمنى مثله عنادلُ الجنَّات:

ـ مساؤك سعادةٌ وإسعاد، يا سيد الأطباء.

لحضورها وهجٌ يسلب الألباب، ويحيِّر الحكماء.. كان ابن سينا قد سمع سابقًا بأن «ماهتاب» حسناء، لكن البون شاسعٌ بين السمع والمعاينة. فعندما رآها تدخل عليه وعطرها الآسر يسبقها، أدرك أن قولهم إنها «جميلة» هو نعتٌ عامٌّ، ووصفٌ قاصرٌ لا يرقى للتعبير عما يراه أمامه. وداهمه خاطرٌ مدهشٌ مفاده أن هذه الرشيقة الرقيقة، ساحرةَ العينين، ليست من دنيانا. فقد عرك تحته حسناوات لا حصر لهن، ورأى في بلاط الحكام وقصور الأغنياء مليحاتٍ باهرات. منهن رومياتٌ وفارسياتٌ وتركياتٌ وتركمانياتٌ وكرديات، ومنهن الجارية والكاعب والناهد والناضجات من الإماء والأميرات.. لكنه لم ير قط، امرأةً تقترب من حُسن «ماهتاب» ولو من بعيد.

وهكذا بوغت ابن سينا حين أشرقت «ماهتاب» فكاد يؤخذ، لولا أنه استطاع بجهدٍ أن يغضّ عنها ناظريه، ويقول بقلبٍ يرتجف: أهلًا، خيلي خوش آمديد، تفضلي يا بَانو.. قال ماهيار: هي تجيد العربية يا سيدي.

قام «ماهيار» فأغلق باب الحجرة من داخل، وأوقد شعلة القنديل الآخر، كأن الغرفة بعد هذا الشروق تحتاج مزيدًا من الضياء! ألقت «ماهتاب» عن كتفيها العباءة السوداء، وأزاحت عن رأسها المتسامى عمامة التخفي والاستتار، فانهمر على كتفيها شعرُها المتموجُ بألوان الذهب البندقي، الغامق لونه، المسبوك بسحب الشتاء. ارتمت الخصلات كأنها دواماتٌ برَّاقة اللمعان من حرير، فأحاطت بوجهها وعنقها المضيء بياضهما، ولمست بأطرافها صديرية الثوب الأزرق البهيج، مزركش الحواف، الذي يشبه «الشادور». هو عباءةٌ مفتوحة الجيب، حريريةٌ، تحتها ثوبٌ لصيقٌ فاتنٌ، تحته نعومةٌ تدل عليها رقة راحتيها، وعنقها الطويل، ووجهها الصبوح الساحر. حاجباها العريضان طويلان، وينتهيان بنصلين يذبحان وحيًا، عن بُعد، وبعينيها ذاك البريق الذي يسترقُّ الناظرين.

عصفت برأس ابن سينا أفكارٌ سريعة مزَّقتها الأعاصيرُ الآتية من داخله، والنسمات التي سحرته.. صار فجأة غريقًا في لجة التساؤلات والواردات: وصفُ هذا الجمال، هل يحتاج لمفرداتٍ غير تلك المعروفة؟ هذه الأنثى التامة، هل هي استثناء بين النساء؟ أتراها تسعى إلى إغوائي؟ أنت هنا معتقل.. هي لم تفعل أي شيء، بعد. لا يصح منك هذا الوجوم، تكلم، قل أي شيء يقطع هذا السكون، فهي تنظر نحوك هي وأخوها.. ما عساي أن أقول؟ لو بقيت صامتًا فلن أسمع صوتها.. سوف أتماسكُ، وأتكلم:

ـ أخبرني أخوكِ بأنكِ تودّين الاستفسار عن أمورٍ تتعلق بالتدبير الطبي والعلاج، فما هي؟

ـ وأخبرني بأنك تودُّ إملاء كتابك عليَّ، وما يريده الأستاذ مقدَّمٌ على ما تريد التلميذة، يا سيد الأطباء.

ـ لغتكِ العربية بليغة، أين درستها؟

ـ درسنا السريانية والعربية أنا وماهيار، على يد «أهارون اليهودي» نزيل شيراز..

ـ أهارون الحَبْر؟

ـ نعم، الجاءون.. هل أجلس إلى الطاولة بجوارك، حتى لا تضطر لرفع صوتك وأنت تملي عليَّ؟

ـ نعم، نعم. تفضلي. وها هي الأقلام والمحبرة والكاغد، ولكن مهلًا.. كان الكلام عن الإملاء مع ماهيار، قبل أيام، وقد انتهيتُ فعلًا من الكتاب. خططته كله بيدي.

ـ هل بإمكاني أن أراه.. يا سيدي.

ـ نعم.. لا، أرسلته قبل يومين لأخي علي، وسافر به أمس إلى أصفهان.

ـ فما هذه الأوراق الكثيرة.. يا سيدي؟

ـ مسوَّدات كتابيَّ «الشفاء» و«القانون».

ـ ألا يمكنك أن تملي عليَّ أيَّ أجزاء منهما؟ أريد أن أنال هذا الشرف.

ـ عفوًا.. أقصد، شكرًا لكِ.. حسنًا، سأُملي عليكِ شيئًا من كتاب القانون في الطب، ثم نتحدث عما تودين السؤال عنه.

المرات التي ارتبك فيها ابن سينا معدودة، مع أن حياته حفلت بكثيرٍ من الاضطراب الموجِب للارتباك، لكنه كان دومًا يتماسك. وهو الآن يذوب. هو يود لو تغضّ «ماهتاب» بصرها عنه، كي يستطيع النظر إليها، لكنها لا تفعل. فلما أبدت رغبتها في كتابة ما يمليه، ابتهج، خصوصًا أنها إلى جواره على الدكة.. قريبة جدًّا منه، ونائية.

تزحزح يسارًا وأزاح الطاولة ناحيتها، وجلست هي عند الزاوية اليمنى ومالت برأسها الجميل على الأوراق وغمست في المحبرة القلم، وقالت: تفضل.. عطرها يريح الروح، وقُربها يُفرح القلب المحزون ويُنسيه المآسي، ما تقدَّم منها وما سوف يأتي. للجمال حضرةٌ لا يعرفها إلا مَنْ صار فيها، فيها تقترن الحواسُّ الظاهرة بالباطنة، فيتداخل الخيالُ مع السمع والإبصار، وقوة الفكر والإدراك الكلي مع حدة الإحساس ورهافته.. تذكر ابن سينا ما خطَّه بيده في مسوَّدات كتابه «الشفاء» حيث قال في القسم المتعلق بالإلهيات، إن القوى النظرية للنفس الإنسانية تقوم بتجريد الصور من مادتها، حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء. كان يفسِّر بهذا الكلام الأمور فوق الطبيعية، كالوحي والكشف والإلهامات والرؤى والمنامات، وهذا الجمال التام.

«تفضل يا سيدي».. انتبه ابن سينا من هيمانه في سماواته البعيدة، عندما أعادت عليه «ماهتاب» الدعوة لبدء الإملاء، فاستجمع شتات خواطره وأخبرها بأن هذ الكتاب عنوانه «القانون في الطب» وسيكون جامعًا بين القوانين الكلية والجزئية، والقسمين النظري والعملي.. نظر ابن سينا نحو مسوَّداته وبدا أن فكرةً بدت له، فقال لماهتاب: في الجزء الثالث من الكتاب، فصول ومقالات في الزينة، فهل تحبين أن أُملي عليكِ منها؟

ـ أحب..

قال ابن سينا بصوتٍ خفيض، كأنه يحدِّث نفسه، وكتبت ماهتاب: الفن السابع، في الزينة، ويشتمل على أربع مقالات. المقالة الأولى في أحوال الشعر، فصل في ماهية الشّعر..

***

وجد ابن سينا أفكاره تتدفق على نحوٍ لم يتوقعه، والعبارات تنتظم على لسانه متتاليات. وانهمكت «ماهتاب» في الكتابة، وعلى وجهها تتناوب أطيافُ الابتسامات.. ظل يُملي عليها حتى كاد نورُ اليوم الجديد ينبلج، وكان «ماهيار» قد توسَّد حاشية الدِّكَّة التي يجلس عليها، ثم تمدَّد ونام. أيقظته أخته وذهبا، بعد أن قالت لابن سينا: يا سيدي، اقترب موعد الفجر ويجب أن نتوقف هنا، وغدًا عقب الغروب سأعود لنستكمل ما بدأناه.. كاد يقول لها: لا بأس، منتظرك من الآن! لولا أنها أردفت: ما كان يخطر ببالي، أن الأفكار تتدفق بهذه القوة من عقل إنسان، أنت يا سيدي نادر المثال.. كاد يشكرها على رقة المجاملة، لولا أنها رمقته بنظرةٍ ساحرة أنسته الكلام، ثم قامت لإيقاظ أخيها.. فبقي صامتًا، وأطرق، وهو يبتسم.

قبيل غيابها عنه، كانت عيناها الواسعتان قد اكتسى بياضُهما الناصع بحمرةٍ خفيفةٍ زادتها بهاءً وفتنة، وكان الإجهادُ قد أضفى عليها من علامات النعاس ما جعلها أشهى. لكن ابن سينا التزم الوقار، فلم يُبد ظاهره ما يخفيه حشاه من اشتياق.. بعد ذهابها عنه، بقي جالسًا بمكانه، واجمًا. ثم قام إلى قنينة النبيذ وصبَّ منها كأسًا عاد بها إلى طرف الدِّكَّة، وراح يحتسيها على مهل. ويفكرِّ.

تفكر في كتابه قليلًا، وفي «ماهتاب» كثيرًا. وظل ساكنًا بموضعه، وبباطنه تهتاج بهجةٌ منسية ومشاعرُ متضاربة، وارتياحٌ كهذا الذي يملأ القلب حين يحنو المحبوب على المحب. وعلى تلك الهيئة الهانئة، أخذه النعاسُ من دون أن يقوم إلى سريره النحاسي الكبير. فقد استراح أكثر، حين مال برأسه وبالوسادة إلى موضع جلوسها، وغاص فيه عطرها الباقي وحلَّق بروحه عاليًا، حتى وصل بالمنام إلى حيث تتمايلُ الأحلامُ وتميسُ بالوسن الأمنيات.

في الصباح التالي نظر ابن سينا فيما كتبته «ماهتاب» فأعجبه خطها الدقيق المنمق، وخلوّ الأوراق من الأخطاء. فأخذ يتأمل انسياب السطور، حتى جاء «ماهيار» ظهرًا وعاونه في عمل بعض الشيافات والأكحال.. مَرَّ الوقت بطيئًا، حتى غابت الشمس وأشرقت «ماهتاب» وعلى وجهها ابتسامةٌ ازداد بها بهاؤها. كان «ماهيار» لحظة دخولها يسأل ابن سينا عن الخلط الذي جرى في أذهان الفلاسفة المسلمين والعرب، فمزجوا بين آراء أرسطو وأفلاطون. ابتسم ابن سينا على غير عادته عند الكلام في الفلسفة، وقال إن هذا السؤال مهمٌ. وقالت ماهتاب بنعومةٍ وصوتٍ خفيض، كأنه الشدو: نعم يا سيدي هو سؤال مهمٌّ، وكان عمي أبو الحسين القاضي يقول «بوعلي ابن سينا عبقري، لأنه استخلص مذهب أرسطو من تخليط السابقين، ولا أدري كيف استطاع ذلك؟».

ـ عمكِ، القاضي!

ـ نعم يا سيدي، قاضي شيراز. هو ابن عم المرحوم أبي، وكان يذكرك كثيرًا في مجلسه، مادحًا. وكانت بينكما مراسلات.

ـ بالطبع، أعرفه. لكني لم أقابله قط، وقد أرسل لي مرةً أسئلة عن مسائل دقيقة في المنطق.

اشترك «ماهيار» في الحوار الحماسي بقوله: نعم يا سيدي، هذه قصةٌ مشهورة عندنا في شيراز، فقد وصلتك مسائل عمي ساعة الغروب، فأجبت عنها في خمسين ورقة وأرسلت الإجابات في الصباح التالي، مع الركابي الذي جاءك بالأسئلة، ولم تنم لحظةً تلك الليلة. أبهجت هذه الذكرى اللطيفة قلب ابن سينا، فابتسم وهو يقول إن تاجر الزيوت هذا أخبره بأنه سيبقى في همذان حتى يستلم الرد، حسبما أوصوه في شيراز، فلم يشأ أن يتعوَّق الرجل المسكين.. قالت ماهتاب برقةٍ آسرة: كنت في جرجان يا سيدي، لا همذان.

ـ صحيح، قد نسيت. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. صدق الله العظيم.

أنت العزم ذاته يا سيدي، فهلا عزمت على استكمال إملائك.. قالت ماهتاب ذلك باسمةً، وهي تقوم من جوار أخيها لتجلس حيث كانت بالأمس، وتغمس في الدواة القلم. قرأت عليه آخر سطرين، كأنها تحفِّزه وتدعوه للانطلاق، فانطلق.. بعد ساعةٍ، استأذن منهما «ماهيار» للذهاب إلى غرفته، فأغلقت أخته خلفه الباب وعادت إلى مكانها، ومالت مجددًا على الأوراق والقلم بيدها. ملامحها صارت جادة. ومن العجيب أن يجتمع الجمال والجدية، أحيانًا.

أراد ابن سينا أن تنظر إليه ماهتاب، فسألها بدلًا من إملائه عليها: قيل لي إنكِ تعالجين النساء، فماذا وجدتِ فيهن خلال المعالجات؟ أجابته ـ وقد أدركت أنه يريد جريان الكلام بينهما ـ فقالت وهي تبتسم: وجدتُ يا سيدي، ما وجدته أنت خلال معالجاتك للرجال. فالأبدان الإنسانية، والأمراض، لا تختلف كثيرًا في الرجل عنها في المرأة. إلا من حيث أعضاء حفظ البقاء.

ـ نعم يا ماهتاب. لكن أبدان الرجال أكثر متانة واكتنازًا، والنساء أكثر رخاوة لأنهن أضعف بالضرورة.

ـ أي ضرورة يا سيدي! وهل تستطيع أبدان الرجال احتمال وجود نبضين في بدن واحد، كما هو الحال عند الحبالى من النساء؟ لا يقدرون طبعًا، وكذلك الحال في بعض الأمراض التي تقاومها أبدان النساء بأكثر من مقاومة أبدان الرجال لها.

ـ مثل ماذا؟

ـ النساءُ تنقرسُ بأقل مما ينقرس الرجال..

ـ نعم، هذا رأي صحيح، وهو من أقوال ابن زكريا الرازي.

ـ هو يا سيدي من أقوال الطبيعة.

ـ نعم، معكِ الحق.. وحديثكِ حلوٌ.

ـ شكرًا، هل نستكمل الإملاء؟

قام ابن سينا وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وراح يملي عليها متدفقًا، الفصول المتعلقة بوسائل تحسين لون البشرة بتحريك الدم والأرواح إلى جهة الجلد، ليشرق لونه. وراحت ماهتاب تلاحقه بالكتابة، بالكاد.. توقف فجأة بعد ساعةٍ وسألها إن كانت تود أن ترتاح قليلًا؟ فقالت برقة: لو أمكن! لحظتها شعر ابن سينا بالحرج، وخجل من نفسه ومن قسوته غير المقصودة.

تشاغل عنها ابن سينا بترتيب الأوراق ليخفي خجله منها، فهمَّت ماهتاب بمساعدته ووقفت إلى جواره وشاركته فيما يفعله. عطرها آسر. وجدتْ بين يديها ورقة، ظاهرٌ أنها مسوَّدة الديباجة القصيرة لكتاب «القانون» مكتوب فيها: الحمد لله حمدًا يستحقه بعلو شأنه وسبوغ إحسانه، قال أبو علي الحسين بن سينا المتطبب، التمس مني بعض خُلص إخواني أن أصنِّف في الطب كتابًا مشتملًا...

لما قرأت ماهتاب الكلمات استدارت بوجهها إليه وهي تضحك خفيةً، فأضاء بياضُ أسنانها صدر ابن سينا.

سألها عن سبب هذه الضحكة، فأجابت وهي تهز رأسها الجميل، قائلة: لا شيء.. مال نحوها بجبهته ونظرته المندهشة، وهو يقول متلطفًا: لابد أن هناك شيئًا أضحككِ.

ـ سوف تغضب مني لو أفصحت، ولا أريدك أن تغضب.

ـ لن أغضب منكِ أبدًا، فالغضبُ وحسنُكِ لا يجتمعان. وبالمناسبة، أسعدتني جودة كتابتك بالأمس. ولكن ابتداءً من مساء الغد، ستكون لنا كل يوم ساعة أو اثنتان للمباحثة فيما تريدين سؤالي عنه، فلا نقضي الوقت كله في الإملاء.

ـ هه هه، شكرًا..

ـ عفوًا. والآن، هيا، أفصحي عما أضحككِ.

حاولت ماهتاب الترفق بقدر ما استطاعت وانتقت من المفردات ألطفها لتخبر «الشيخ الرئيس» بأن وصفه لنفسه بالمتطبِّب، هو دليلٌ على التواضع. لكنه لم يُعرف بالتواضع وإنما مشهور عنه الاستعلاء، والناس تروي عنه وقائع عديدة دالة على افتخاره بنفسه، واستهانته بالآخرين.. سألها مندهشًا: وقائع مثل ماذا؟

ابتسمت وهي تقول بصوتٍ كالهمس الممزوج بالنغمات: مثلًا، ما فعلته في «الجرجانية» مع الفيلسوف الفاضل «مسكويه» حين دحرجت نحوه جوزةً، وقلت له ساخرًا مستهينًا بتأليفه في علم الأخلاق، إنه لا يعرف حساب مساحة سطح هذه الجوزة. ولم تعتد يا سيد الأطباء، بأن «مسكويه» يكبرك بخمسين سنة، وأنه كتب من قبل أن تمسك أنت القلم، كتابه الجميل «تهذيب الأخلاق» بالعربية، وبالفارسية كتب «جاويدان خرد» أو الحكمة الخالدة، ولا يعيبه أبدًا أن تقتصر مؤلفاته على الأخلاق. وقد ردَّ عليك بقوله: احتياجك لإصلاح أخلاقك، أشد من احتياجي لمعرفة مساحة سطح الجوزة.

ضحك ابن سينا بصوتٍ عالٍ، على غير معتاده، قبل أن يقول وهو يجلس بمكانه الأول: مهلًا يا ماهتاب، هذه الواقعة جرت في مجلسٍ عام، وكانت على سبيل الممازحة والمداعبة. لأنه كان يُهمل الرياضيات. وكيف لي أن أهزأ برجلٍ حكيم مثل «مسكويه» وهو مني بمنزلة الأستاذ، وقد كان آنذاك قد تجاوز السبعين وربما الثمانين، مَدَّ الله في عمره. أما علم الأخلاق فهو يا ماهتاب من أهم علوم الحكمة العملية، ولا يمكنني الاستهانة به، وقد كانت «الأخلاق» موضوع كتاب ألَّفته حين كنت في العشرين من عمري، وكان عنوانه: البر والإثم.

ـ نعم، سمعت بهذا الكتاب. كانوا يذكرونه في شيراز، ويقولون إنه مفقود.

ـ هذا صحيح، للأسف. فقد ألَّفته في بخارى وأهديته للفقيه الصوفي أبي بكر البرقي، مع كتاب آخر كبير هو «الحاصل والمحصول» فاحتفظ الرجل بالكتابين عنده، ولم يرضَ لأحد أن ينسخهما. فلما استولى محمود الغزنوي على بخارى، عربد عسكره ونهبوا المدينة وخرَّبوا المكتبات، فضاع خلال هذه الفوضى الكتابان.

أرادت أن تصرف خاطره عن الذكريات المريرة، فسألته باسمةً عن السبب الذي دعاه للكتابة عن «الإثم» وهو بعد شابٌّ صغير السن.. بوغت ابن سينا بالسؤال، فسكت حينًا وسرح بناظريه كأنه يرى الماضي الذي انقضى زمنه، ولم ينقطع أثره.. قالت وهي تقوم مودِّعة، إذ كان الليل قد اقترب تلاشيه: لا بد أن في الأمر امرأة، عمومًا لا بأس، أراكَ على خيرٍ مساء غد.

دون أن يدري سببًا لما فعله، قام ابن سينا واقترب من الباب. ربما ليُبدي لماهتاب إنه قام ليودعها، وبالتالي فهو ليس غاضبًا منها. وربما لأنه يريدها أن تمر بقربه، فيغوص فيه عطرها المبهج للأرواح، فيرتاح. وربما لأنه توقَّع أن تسلم عليه قبل ذهابها، يدًا بيد، فتقترب منه أكثر وتلقي بنفسها في حضنه.. ما كان يعرف، وهو الحكيمُ الأجلُّ العبقريُّ، أن «ماهتاب» ليست من النساء اللواتي يلقين بأنفسهن في حضن رجل. حتى لو كان الشيخ الرئيس.

عندما فتحت مغلاق الباب وهو واقفٌ بقربها، لمست بأصابع يدها اليسرى كتفه برفق، وقالت برقةٍ: أراك غدًا.. كانت قد أدركت بفطرتها، أن انجذابه إليها قد اشتد حتى بلغ مداه، لكن وقت الوصال لم يأتِ بعد. وقد لا يأتي أبدًا. فلا داعي للتعجل، فإن معظم الثمار تكون مُرة الطعم حين تُقطف قبل أوان نضوجها.. هذا ما ظهر في نظرتها إليه، فجعلته يرجو ولا يجرؤ، ويتمنى لكنه يُضطر أن يتأنى. نظر إليها مليًّا وهي تضع على كتفيها العباءة السوداء وعلى رأسها الغطاء، ثم أمالت عينيها نحوه بدلالٍ.

في طريقها إلى خارج الحجرة، ولأنه كان قريبًا جدًّا من الباب، مسَّت كتفها اليمنى صدره بلمسةٍ خفيفةٍ، مُلهبة، أحسَّ بها كأنها حجر «بوريطس» الذي يقدح النار باحتكاكه. وقد انقدحت في قلبه نيرانٌ هادئة اللهب، فراح بعد رحيلها عنه يحدق في جدار القلعة السميك الذي يفصلهما، ويتابع عبر الحائط بخياله دخولها غرفتها، واستلقائها على سريرها. وكاد بقوة الخيال يراها عيانًا، ويحس بأنفاسها، ويلمسها. فأغمض عينيه وعاد إلى سريره لينام، متوسدًا أحلامه وأمانيه.

في اليوم التالي وعلى غير موعد، دق «الزعاق» باب الحجرة أوان الضحى.. فتح له ابنُ سينا الباب، وعاد إلى جلسته الأرضية على سجادة الصلاة ليكمل صلاته، فدخل «الزعاق» متنمِّسًا وعلى وجهه ابتسامة باهتة، غير مبهجة. حضوره ذو اللزوجة الجاثمة، بدَّد السكينة التي كانت تسكن كيان ابن سينا. ولما نظر له باستغرابٍ مستفهمًا من غير كلام عن سبب الزيارة، همس له «الزعاق» بصوت فيه فحيح: يا سيدي، السلطان ابن الكاكويه يتقدم بجيشه نحو «همذان» ولن يقدر عليه العسكر الهمذاني أبدًا، ولسوف يمتلك المدينة والنواحي المحيطة، وهذه القلعة. فلو كتبت إليه رسالةً، لتذكره بك وتبلغه باعتقالك هنا، فسوف يتصرف. تعرف يا سيدي، لو أرسل «ابن الكاكويه» إلى هنا عشرين من أشداء عساكره، فقط، ومعهم منجنيق يقذف اللهب. فسوف يسلِّمهم «منصور المزدوج» القلعة من فوره، فهي غير حصينة ولا يمكنها صد أي هجوم. وسيخرجونك من محبسك، بسلام وعزة. اكتب إليه، ولسوف أتولى توصيل رسالتك بطريقتي، ولن أخبر أحدًا بذلك. ولا أريد مكافأة منك، حتى تستقر أمورك في قصر «ابن الكاكويه» وتذكرني بخير في الوقت المناسب.

ـ هذا الذي تقترحه لا يناسبني، ولن أكتب رسائل لأحد. وقد وعدت «المزدوج» بعدم المخالفة، وسألتزم بوعدي له.

ـ لا بأس يا سيدي، كما تريد. ولكن إذا أعدت النظر وأردت فعل الصواب، فأومأ خفيةً حين تراني. وسوف آتي إليك سرًّا، وأستلم منك الرسالة من دون أن ترصدنا العيون..

بعد ذهاب «الزعاق» أحسَّ ابن سينا بضيقٍ وملل مفاجئين، وتمنَّى أن يمر النهارُ مسرعًا، لينعم بالأنس المسائي مع الجليسة الساحرة. جلس ساكنًا على عتبة غرفته يرسم على الأرض بعودٍ يابس، قطوعًا مخروطية ومداراتٍ إهليليجية، وهو يفكر مليًّا في حركة الأفلاك.. جاء «ماهيار» قبيل العصر واستدعى المرضى الذين يجب تبديل

تدبيرهم الدوائي، لأن أبدانهم لم تنفعل جيدًا بما تناولوه من الدواء. وخلال ذلك، مرَّ بهما «المزدوج» وقد بدا مهمومًا، وأخبر ابن سينا بأن شيخ الرستاق يستخبر عن الموعد المناسب للمجيء للزيارة، وسوف يكون معه ضيفٌ يريد أن يلتقي بالشيخ الرئيس.. فقال ابن سينا مستغربًا: مرحبًا بهما في أي وقت.. ولم يعرف ابن سينا ما يشغل بال «المزدوج» إلا بعد عدة أيام.

بعد أن انتهيا من الأمور العلاجية، جلس «ماهيارِ» قبالة ابن سينا وقال له مستبشرًا إن «ماهتاب» قامت اليوم من نومها مبكرةً، وكتبت رءوس الأسئلة التي ستطرحها الليلة على الشيخ الرئيس، وقد قسَّمتها بين أسئلة في الفلسفة، واستفسارات في أمور الطب والمعالجات. وأضاف باسمًا: سألتها إن كان بإمكاني حضور هذه المباحثات، فقالت: خذ الإذن من سيد الأطباء.

ـ مأذون لك طبعًا، يا ماهيار.

ـ فهل تأذن لي أيضًا، بكرمك، أن أقرأ مسوَّدات الكتاب الذي تمليه عليها.

ـ لا مانع، بعد أن أراجعها الليلة.

ـ لا أظن سيدي أن «ماهتاب» ستترك هذه الليلة فسحةً لعمل شيء آخر، فالأسئلة التي كتبتها كثيرة.

ـ لا بأس، سنرى ما سيكون.

بعد غياب الشمس وسكون الحركة بحلول الظلام، ظهر نور «ماهتاب» التي دخلت عليهما في كامل بهائها، وهي مرتدية ما ظنه ابن سينا أفخر الأثواب. لأنه لم يكن قد رأى من أثوابها غيره. لحظة دخولها كان ابن سينا يفكر فيما كتبه بأول صفحة من رسالته «في الأخلاق»، حيث قال إن العفة، تكون في قمع النفس عن الميل مع الاشتهاءات. وعندما أشرقت ماهتاب، خطر في ذهنه أن الإنسان ضعيف وقد لا يقوى قلبه على مطاوعة العقل. كانت ترتدي تحت «الشادور» ثوبًا أصفر فاقعًا لونه يسر الناظرين، مؤطَّرًا عند طرف الكُمّين وجيب الصدر، بزركشة وزخارف دقيقة خيطت بخيوط ذهبية وأخرى سوداء، فأبدى الثوبُ مزيدًا من جمالها الذي لا يحتاج مزيد إظهار.. بعد وهلة الانبهار، خاطبها ابن سينا ممازحًا، بقوله: أخوكِ وشى بكِ، وأخبرني بأنكِ كتبتِ اليوم أسئلة كثيرة، وفصلتِ الفلسفي منها عن الطبي.

لما سمعت ماهتاب ما قاله ابن سينا، خبطت بدلالٍ كتف أخيها بقبضة يدها الناعمة، وابتسمت بلطفٍ، وهي تقول بصوتها الرقراق المذيب لآذان السامعين، ولقلوبهم: كنت يا سيدي أنظِّم أفكاري وتساؤلاتي، مثلما تفعل أنت حين تضع للكتاب مسوَّدات، ثم تنقلها على مهل إلى البياض.

أراد ابن سينا أن يحيطها بأنه يهتم بأخبارها، فقال متحاذقًا: ولكن قبل إيراد التساؤلات، أخبريني بما تنوين عليه من الجمع بين رأيَي أبقراط وجالينوس في كتاب، فقد أخبرني ماهيار بذلك أيضًا.. قالت: لم أكتب شيئًا بعد، وستكون رسالةً موجزة لا كتابًا، لأنني لا أحب الإسهاب والإطناب.

ـ إذن، أخبريني بلا إسهابٍ ولا إطنابٍ، عما ترين أنه جامع بين الطبيبين الفاضلين.

ـ الإسكندرانيون..

كان ابن سينا جالسًا مسترخيًا وظهره يستند إلى الحائط، فاعتدل، وجلس متربعًا على الهيئة التي كان قد اعتادها

قديمًا، أيام المباحثة مع أبي سهل المسيحي، وقال لها: أوضحي! ضحكتْ بأناقةٍ ملكية، ملائكية، قبل أن تقول إن الفاضلَيْن أبقراط وجالينوس كتبا مقالاتٍ متفرقة وشذراتٍ مشتَّتة في مختلف الموضوعات الطبية، وتركا كثيرًا من الكتابات التي لا ضابط لها. وبقي الحالُ على ذلك زمنًا حتى كاد تراثهما يندثر، لولا أن الأطباء الإسكندرانيون عكفوا على تلك الأصول المبعثرة وانتخبوا منها الاثني عشر كتابًا أبقراطيًّا، والستة عشر كتابًا لجالينوس. فاجتمع الطبيبان على يد الإسكندرانيين، وعرفناهما على النحو الذي صيغ بالإسكندرية. ولو كان الحكيم المسكين «حنين بن إسحاق» قد ترجم لنا أصول الكتابات التي تركها أبقراط وجالينوس، وليس منتخبات الإسكندرانيين، لكانت لدينا كتب غير تلك التي نعرفها اليوم.

راح «ابن سينا» يحدِّق فيها بعينٍ ذاهلةٍ، مبهورًا، ولما سكتت سكت لحظة ثم استفاق فقال: إذن، فالذي اجتمع هو نصُّ كلامهما، وليس رأييهما! فردَّت من فورها، كأنها تريد أن تزيد من انبهاره: يا سيدي، الأصل في دلالة لفظة «الرأي» هو ما كان يقوله الرائي من نبوءاتٍ حين يحدِّق في كبد القربان، وفي الاصطلاح الحالي عند البلغاء والحكماء، كلمة «الرأي» تعني العقل والمعتقد والقول، ولذلك نقول «رأى فلان أن..» أو «رأي فلانٍ هو..» بمعنى ما قاله أو كتبه.

تفكَّر ابن سينا في كلامها مليًّا وهو يمرِّر إصبعه على حافة كأسه، ولمعت عيناه بأكثر مما تلمعان في العادة، وبدا عليه أنه استحضر في ذهنه أشياء كثيرة قبل أن يقول: كلامك صحيح، الضبط السكندري والترجمة العربية، جعلا مجموعة الكتب هذه متناغمة ومتناسقة. أنا لم أر الشذرات الأصلية اليونانية، لكنني أميل إلى قبول قولك إنها مختلفة عما بأيدينا اليوم، لأن الزمان الممتد بين أبقراط وجالينوس كبير، واللغة تختلف مع مرور الزمان. كما أن بينهما اختلافًا في طريقة النظر، فأبقراط كان يُعنى بالملاحظات السريرية للمرضى وبالتجارب السابقة في التداوي، وكان جالينوس يميل إلى الفلسفة والكلام النظري عن العلل والعلاجات. وعلى ذلك، فمن المستبعد أن يكون كلامهما بأسلوبٍ واحد.. من المؤكد أنكِ ماهرة يا «ماهتاب».

ـ مجتهدة يا سيدي.

ـ ها ها، مجتهدة طبعًا، وجميلة.

أحسَّ ابن سينا بتلك البهجة التي كان يشعر بها أيام مباحثاته المبكرة مع «أبي سهل المسيحي»، وتذكَّر لحظتها صفو الأمسيات في «الجرجانية» والنقاشات التي كانت تمتد أحيانًا من بعد المغرب إلى ما قبل الفجر.. ولما رأت «ماهتاب» علامات الرضا على وجه ابن سينا، سألته السؤال الذي سمعته قبل سنوات من عمها قاضي شيراز: كيف خرج ابن سينا، من الخلط الواقع عند فلاسفة الإسلام بين أفلاطون وأرسطو؟ فأجابها متلطفًا: هذا الخلط وقع أيضًا عند أصحابك الإسكندرانيين، ولم ينتبه إليه «أبو نصر» فكتب كتابه الذي تريدين النسج على منوال عنوانه: الجمع بين رأي الحكيمين.. وقد رأيت بعد تأملٍ، أن كتاب «أثولوجيا» المنسوب بالخطأ إلى أرسطو، وكتاب «التفاحة» المزعوم لسقراط، كان لهما أثر كبير في حدوث هذا الخلط. فاستبعدتُ الكتابين، واستخلصت ما كان يقوله أرسطو من الكتب المعتمدة غير المشكوك في نسبتها إليه، فاستقلَّ في ذهني، وانفصل عندي كلامه عن كلام أستاذه أفلاطون.. قالت ماهتاب:

ـ وأظنك يا سيدي، قد استفدت في ذلك من كتابات ثامسطيوس والإسكندر الأفرودويسي، وشروحهما

لمؤلفات أرسطو..

«أين تعلمتِ كل هذا، ومتى؟»، قاطعها ابن سينا بسؤاله هذا، متعجبًا، فردَّت عليه ببساطةٍ لا تخلو من براءةٍ، ومكر: في شيراز أيام صباي وصبوتي.. وتدخل «ماهيار» في حوارهما مؤكِّدًا أن أخته كانت تبهر أساتذتها في شيراز، بقوة البديهة وبالنهم في تحصيل العلوم والمعارف. ابتسم ابن سينا وهو يحرك في الهواء أطراف أصابعه، ويجاوبه قائلًا: طبعًا، فهي فعلًا مبهرة، وقد كنتُ أظن أنني الوحيد الذي أبهر أساتذته.. بهدوءٍ وقور، ردتْ ماهتاب على كلام ابن سينا، وفي عمق عينيها ابتهاجٌ بالفوز، قائلةً: نحن نتعلم منك يا سيد الأطباء.

صبَّ ابن سينا لنفسه كأسًا وارتشف منها شربتين صغيرتين، سريعتين، ثم نظر إلى «ماهيار» نظرةً فيها حيرةٌ وإعجاب بما رآه من أخته، وعاد بنظره إليها وسألها عن السبب في تلقيبها له بسيد الأطباء! فسكتت لحظة وأطرقت قبل أن تقول: لأنك سيد الأطباء في زماننا..

ـ وماذا عن الحكمة والمنطق؟

ـ ستكون يا سيدي «سيد الحكماء والمناطقة» حين تكتب فلسفتك المشرقية، وتكف عن تكرار كلام أرسطو. وأرجو ألا تُغضبك صراحتي.

ـ لا. ليس للغضب موضع هنا، ولا مجال. لكن هذا الأمر معقد، يحتاج تبيانًا وتفصيلًا.

ـ ليتك تتفضَّل علينا بذلك التبيان، يا سيدي..

وطبعًا، استجاب ابن سينا لدعوتها وأفاض في بيان رأيه، قائلًا إن سبب اهتمامه الكبير بأرسطو هو المنطق، لأنه منذ كان في «بخارى» شابًّا وهو يرى الناس ينقسمون على أنفسهم، بل ويتقاتلون، بسبب التعصب للمذهب الديني. قال: وكما نرى اليوم في كل البلاد، فقد صار المغامرون وطلاب السُّلطة والسفاحون، يستغلون الغلَّ المذهبي ويزيدون من أواره، فتهتاج ناره خدمةً لما يسعون إليه. يرفعون الرماح ويُشهرون السيوف بدعوى نصرة «مذهب الحق» وكل مذهبٍ يزعم أنه المذهب الحق. وكلما ازداد التعصب تراجع العقل الذي به قيام الإنسان وصلاح حاله. ولهذا، كان لا بد من الاهتمام بالمنطق لمقاومة التعصب والجهالة والعنف العتيد، وأرسطو هو واضع المنطق. هذا ما يحتاجه الناس في زماننا المضطرب هذا، والمضطرم، أما الفلسفة المشرقية المشوبة بالروحانية فهي مطلب خاص للحكماء، وللخواص لا العوام من الناس.. سكت لحظة ثم أضاف موضحًا، أنه لم يهمل الفلسفة المشرقية بالكلية، وإنما كتب فيها رسائل وقصصًا رمزية، وربما يضع فيها كتابًا كبيرًا يسميه: الإشارات والتنبيهات.

كان «ماهيار» الذي لا يميل إلى الفلسفة مثل أستاذه الأول أبي الريحان، يميل برأسه إلى كتفه اليسرى ويغالب النعاس. فدعا ابن سينا «ماهتاب» للجلوس بجواره على الدكة العريضة، وترك الدكة الأخرى لأخيها ليتمدَّد عليها ويغفو وهو مستريح.. ولأن جلوسها إلى جواره سيجعله هو الآخر مرتاحًا.

«ماهيار.. ماهيار»، نبَّهت ماهتاب أخاها من خطفات الوسن، فأفاق وفتح عينيه الحمراوين كالمتفاجئ، وهو يقول لابن سينا: عفوًا يا سيدي، فلا قدرة لي على السهر مثلكما، كما أن الكلام في الفلسفة لا يستهويني، فهل تأذن لي يا سيدي بالذهاب لغرفتي؟ وهل تسمح بأن ترسل مع «ماهتاب» مسوَّدات كتاب القانون، وسوف أعيدها لك صباح غدٍ؟

ـ خذها معك الآن، فلن أنظر فيها الليلة..

ذهب «ماهيار» بالأوراق وأغلقت «ماهتاب» خلفه الباب، ولم تعد إلى موضعها الذي كان إلى جواره. وإنما جلست على طرف الدكة كما تمنى ابنُ سينا، وقالت له من مكانها الأقرب: أكمل يا سيدي كلامك، وأفضْ، فأنت حين تتكلم تصير أجمل وأبهى.

لم يتوقع منها ابنُ سينا هذه المجاملة الرقيقة، بتلك الطريقة الساحرة والنظرة التي تسلب الوقار، فتشاغل عن إبداء سعادته بأن صبَّ من قنينة نبيذه كأسًا، ومدَّ بها يده إلى «ماهتاب» فابتسمت ونظرت إليه بلوم ناعم، وهي تخبره بأنها لا تشرب الخمر.. قال: هذا نبيذ، وكثيرون يجيزون شُربه، والقليل منه يقوِّي ولا يُسكر. فقالت بصوتٍ خافت وهي تضحك برقةٍ تشبه رفيف الفراشات: والكثيرون يقولون إن ما يسكر كثيره فالقليل منه حرام، وبصرف النظر عن أولئك وهؤلاء، أنا لا أحب السُّكْر ولا المسكرات.

اتخذ ابنُ سينا هيئة الأساتذة وقال بوقار كأنه يلقي درسًا: طبعًا، السُّكر المتواتر رديء جدًّا، لأنه يُفسد مزاج الكبد والدماغ، ويُضعف العصب، ويورث السكتة والموت فجأة. ولكن بعضهم رأى أن السُّكر إذا وقع في الشهر مرةً أو مرتين، نفع، بما يخفِّف من القوى النفسانية. ويريح، ويُدر البول والعرَق، ويحلل الفضول خصوصًا فضول المعدة. وضرر الشرب يكون في الدماغ، فلا ينبغي لضعيف الدماغ أن يشرب إلا قليلًا، وممزوجًا بالماء. وأنتِ لديك دماغ قوي لن يسرع إليه الانفعال بمثل هذا الشراب الريحاني، الذي يُذهب الهمَّ ويجلب الفرح ويحسِّن اللون.

ـ أنت تغويني. حسنًا، لا بأس، صُبّ لي نصف كأس. ولكن الأهم عندي أن تكمل كلامك، فهو عندي من جملة المُسكرات..

ـ هاه.. أنتِ ذكية جدًّا، ولا أظن أن في النساء امرأةً أخرى مثلكِ.

ـ لكنك يا سيدي لم تعرف كل النساء، على كثرة اللواتي عرفتهن.

لم يشأ ابن سينا أن يتوقف عند عبارتها الأخيرة، فلوى عنق الكلام بعيدًا بأن قدَّم لها نصف الكأس الذي طلبته، ومدَّه إليها وهو يخبرها بأن أخاها أخبره بأنها شغفة بكتابات أبي الريحان البيروني ومتابعةٌ لأخباره. فأومأت مؤكِّدةً، وأكَّدت تأكيدها بقولها: طبعًا، فهو الأستاذ..

اغتاظ ابنُ سينا من حماستها ولمعة عينيها عندما ذُكر صاحبه القديم، فاجتهد حتى لا يكشف ظاهرُه باطنه، وسألها على هونٍ وهو ينظر في جوف كأسه ويتأمَّل لون الشراب: فلماذا لم تذهبي للتلمذة عليه، مثلما فعل أخوك؟ قالت: ومنذ متى كان ذلك مسموحًا به للنساء؟! كنتُ أتمنى شيئًا آخر، هو أن يقنعه «ماهيار» بالخروج من الجرجانية إلى موضعٍ آمن، كالرستاق، فيتسنى لي اللقاء به. لكن الأمور جرت بسرعة واعتقله الغزنوي وأرسله إلى خراسان، ثم أخذه إلى الهند حيث تسفك الدماء. وهذا حالٌ لا طاقة لي على احتماله.

ـ يعني لو ذهب إلى شيراز أو توارى في الرُّستاق، أكنتِ قد سعيتِ إليه؟

ـ طبعًا. وكنت قد لازمته لأتعلم منه، وخدمته حتى يهنأ بالإقامة بقُربي، فلا يفكِّر في الرحيل.

ـ وماذا لو كان قد أرادكِ زوجةً له، أكنتِ توافقين؟

ـ ربما..

ـ كيف؟! أنتِ فتاةٌ صغيرة، وهو شيخ كبير.

ـ لم أعد صغيرة، بعد شهرٍ سأبلغ الثامنة والعشرين، وهناك من النساء جَدَّاتٌ في هذه السن. وهو ليس شيخًا، ولا متقدمًا في العمر، هو بالكاد بلغ الخمسين. والنسوةُ تقول: ابن الخمسين يجوز في الخاطبين.

مَسَّ قلب ابن سينا ما يشبه الماء الحار، الحارق، وظهر عليه ما كان يجتهد كي يكتمه، فسألها حانقًا: فهمتُ، فما الذي يعجبكِ فيه إلى درجة الهيام هذه؟ أدركتْ «ماهتاب» أنها بلغتْ بالكلام غايتها وحركت الطود الراسخ، فعادتْ بظهرها قليلًا إلى الوراء واحتستْ من كأسها حسوتين، ثم انتقتْ من الكلمات الأرق وقالتْ إنه ليس هيامًا، فهي تقدِّر في «البيروني» نبوغه في العلم وانتصاره على رداءة زمنه، وصبره على أذى الناس الذين سخروا من أنفه الطويل فأسموه «بيرونلي» لكنه لم يكترث. وعيَّروه بأنه من أصل مجهول ولا يُعرف له جدٌّ يُشتق منه لقب، فقال شعره المشهور:

وذاكرٍ في قوافي شعره حَسَبي

ولستُ والله حقًّا عارفًا نَسَبي

إذ لستُ أعرف جدّي حقَّ معرفةٍ

وكيف أعرف جدّي إذ جهلتُ أبي

هي تحفظ شعر أبي الريحان.. بلغ الغيظُ بابن سينا مداه، فوضع كأسه على الطاولة وتهيأ للقيام وهو يقول لها حانقًا: هذان البيتان من قصيدة سخيفة، بشعة المعاني والمفردات، ولا تليق بشاعرٍ أو عالمٍ. عمومًا أنتِ حرة في إعجابكِ بمن تشائين، أنا لا شأن لي بذلك.. وقام واقفًا بلا سببٍ، فقامت ووقفت قبالته في تمام بهائها الأنثوي، ولمعت عيناها ببريقٍ فاتن وهي تبتسم مثل الملائكة، والأبالسة، والإلهات القديمات. وقالت بحنوٍّ بالغ:

ـ أنت تغار؟

ـ أنا.. كيف؟ ما هذا الذي تقولين؟ أنا لا أغار، وكنتُ أقصد بسؤالي، ما يعجبكِ في كتبه وليس في شخصه. ماذا قرأتِ من تصانيفه؟

ـ قرأتُ «الآثار الباقية» و«التفهيم» وأيضًا، الرسائل التي تبادلها معك.

ـ كان ذلك قبل سنوات، وقد نسيت ما كان من هذه المراسلات، ولا أريد أن أتذكرها الآن.

ـ أنت لا تنسى أي شيء، ولا يصحُّ أن تغار من أحد، لأنك...

ـ لأني ماذا؟

ـ لأنك الشيخُ الرئيس، والفتى الفاضل، والحكيم الأكثر نُبلًا بين جميع الرجال.

ـ هه.. لماذا؟ أقصد...

بنعومةٍ تنساب من فمها مثلما يسيل العسلُ من ثمار التين بالغة النضوج، وبنظرةٍ لا يُستطاع بعدها تمييز الليل من النهار، همست: هل تاه منك الكلامُ يا سيد الكلام؟

ـ أراكِ تعبثين بي.

ـ لا أجرؤ. ولا يصح العبث بالجواهر النادرة، وأنت عندي أندر من أغلى الجواهر. والسماء تعلم ذلك.

ـ أيُّ سماء؟ أما ذكرتِ أمامي قبل يومين أنكِ لا تصدقين بالرسالات!

ـ سمائي، يا رئيس الأطباء.

ما آخرةُ هذا العذاب، العذب؟ ولماذا لا يقمع الشيخ الرئيس بقوة شخصيته النافذة، هذه الفتاة المشرقة النبيهة. الفاهمة، الفاتنة، اللاهية، الداهية، السامقة، الباسقة، السماوية، ساحرة العينين، آسرة البسمة، شهية الشفتين.. وما له يقف هكذا جامدًا، ولا يحتضنها؟!

أدركتْ ماهتاب أن أزمَّة ابن سينا توشك على الانفلات، وقد يحتدم الحنينُ فيه وتتَّقد الصبوةُ فيعتصرها بين صدره وذراعيه. وقررتْ أن أوان ذلك لم يحن بعد، فأطرقت، ثم أخذت كفَّه اليسرى بين راحتيها وسرت به إلى حيث كان يجلس، وتركت على رأسه قُبلةً سريعة ثم عادت إلى موضعها بالطرف الآخر من الدكة.. الاحمرارُ الذي ظهر بخدَّيها، صيَّرها أشهى.. أحسَّ ابن سينا بأنه محمومٌ بحمى لم يسمع بها الأطباءُ، تأتي نوباتُها في الدقيقة الواحدة مرارًا، وتُبحِرنُ مع الأنفاس الساخنة. كأنه في جحيمٍ جليديٍّ. نظر نحوها متحيرًا، وهو يسألها بلسان طفلٍ لا حيلة له: ما هذا الجَذب والصد، ولماذا؟

ـ ولماذا العجلة؟ لقد انتظرتُ لقائي بك سبع سنين، كانت جميعها أعوامًا عجافًا، ألا تنتظر أنت سبعة أيام؟ وأنا معك. ومن يدري، ربما تصرف عني النظر. فغدًا، ستأتيك هدية حسناء اسمها «فرح» وقد تنسيك ما بك، وتُفرحك، وتُدفئ في الليل فراشك فتهدأ سريرتك، ويُؤانس سريرك. فهي كاعبٌ، مليحة الوجه، وفيها الخضوعُ الذي يميل إليه الرجالُ.

ـ ما هذا.. أنا لا أعرف شيئًا عما تقولينه.

ـ عمي «أبو طاهر» سيهديك إحدى جواريه، منصور آمر القلعة طلب منه شراء جارية لك، لكنه يريد مجاملتك بهدية من عنده، وسوف يهديك من بيته هذه الفتاة المولدة «فرح».

ـ لا، هذا لن يكون. منصور المزدوج عرض عليَّ هذا الأمر، واعتذرت منه عن قبوله.

ـ اعتذارٌ عجيبٌ، ولم أتوقعه منك.

مسح ابن سينا وجهه ولحيته الخفيفة براحتيه، وشعر بأن دمه يتدفق بسرعة فيندفع إلى رأسه وينقِّر فيه، فقال: سأغسل وجهي ببعض الماء.. لم تتركه «ماهتاب» يقوم من جلسته وأسرعت بثوبها الأصفر البراق، القهار إغواؤه، فذهبت إلى جرة الماء البارد التي بقرب الباب، وبلَّلت قطعة قماشٍ اقتربت بها منه، حتى كادت تلتصق إلا قليلًا، وراحت تمسح برفقٍ وجهه وهو مسحور.. كان صدرها الناهد قريبًا من جبهته التي تودُّ لو تميل حتى ترتاح، وكان بريق ردائها الأصفر يملأ عينيه اللتين تودَّان لو تنغلقا. وكانت أطراف ثوبها الموشاةُ تلامس أطراف أصابعه وأنامله التي تودُّ لو تتشبث. مسكينٌ ابن سينا، وسعيدُ الحظ. فقد عاش من الرجال أجيالٌ، وماتوا، وما مرُّوا بلحظةٍ سحريةٍ كتلك.. وما أدركوا، قط، قوة الأنوثة.

في طريقها إلى طرف الدكة للجلوس من جديد في موضعها البعيد عنه، جدًّا، أطفأت «ماهتاب» فتيلة أحد

القنديلين، بنفخةٍ فيها رقة تذوب دلالًا. وأرادت أن تُخرج ابن سينا من هيمانه، فسألته وهي جالسةٌ في مكانها بالناحية الأخرى من الكون، إن كان يريد من النبيذ مزيدًا؟ نظر نحوها حائرًا، فمالت إلى الطاولة وصبَّت له ربع كأس، فسمح لنفسه حين مالت للأمام، بالتحديق لحظة في انضمامة نهديها. كأنهما بدرانِ في السماء تلامسا، فَلَانا، فتزاحما، فالتصقا، فالتصقت بهما نظراتُ المشتاق التائه. وهو يتناول منها الكأس استجمع قواه المتهاوية حتى استطاع الحديث إليها، فسألها عن الأسئلة التي كانت تحصرها ليتباحثا فيها، فقالت إنها كثيرة ومتفرقة، ولم أحضر معي الورقة كيلا أعيقك عن الإملاء.. ولكن هناك سؤالًا منها يحيرني أكثر من البقية، لو سمحت لي به.

ـ أسمح طبعًا..

ـ هل ترى أن للذكورة مزاجٌ خاص يختلف عن المزاج الأنثوي، بالطبيعة، أم هي الأعراف السائدة تُملي على كليهما ما يجب عليه.

ـ هذا سؤال دقيق.. والرأي عندي أن لكل منهما مزاجًا طبيعيًّا خاصًّا، والخلط بينهما نوع من المرض النفساني.

ـ وكيف يقع هذا الخلط، وكيف يظهر؟

ـ يظهر في النسوة المسترجلات، والرجال المأبونين..

ـ الأُبنة هذه محيرة، ولا أفهمها.

ـ كتبت عنها شيئًا في هذه المسوَّدات، كي أضعه في كتابي الطبي الكبير «القانون».. مهلًا، سأجد لكِ ما كتبت.

فتش ابن سينا في كومة الأوراق التي فوق الطاولة، واستل ورقةً أعطاها لماهتاب فقرأت من دون صوت ما كتبه فيها بخطه الدقيق: «الأمراض النفسانية؛ الأُبنة، هي علةٌ تحدث لمن اعتاد أن تطأه الرجالُ، فصار مع الاعتياد يشتهي ذلك، وهي بالجملة من سقوط النفس وخُبث الطبائع ورداءة العادة وغلبة المزاج الأنثوي، وما يقال غير هذا باطل، وأجهل الناس هو من يريد أن يعالجهم بعلاج، فإن مرضهم وهميٌّ نفساني، لا طبعي أو بدني»..

أعادت ماهتاب الورقة إلى مكانها، ولم تعلِّق بشيء. وأراد ابن سينا أن يصرف بينهما الكلام إلى وجهة أخرى، ألطف، فطلب منها أن تحكي له عن أيامها بشيراز وعن السر في رقة مشاعر أهل هذه المدينة، وكثرة الشعراء فيهم.. فقالت: ماذا تريد أن تعرف؟

ـ أيَّ شيء يخطر ببالكِ. أريد أن أسمعكِ، لأن صوتكِ حين تتحدثين ساحر، ويريح الأرواح.

ـ فماذا ستقول لو غنيتُ؟

ـ ليتكِ تفعلين..

ـ حسنًا، ولكن سأغني بصوتٍ خفيض كيلا يخرج صوتي من الغرفة، فيُسمع.

ابتسم ابن سينا مستبشرًا، كطفلٍ، واقتربت «ماهتاب» منه ومالت إليه برأسها حتى اقتربت من أذنيه شفتاها.. غنت همسًا، أغنيةً فارسية بديعة تقول كلماتها ما ترجمته بالعربية:

ابتعادُ محبوبي يعذبني
ويعذبني اقترابه

وما بين هذين العذابين

أجد السعادة التي،

لم يتذوَّقها أحدٌ قبلي

ولن يعرفها بعدي أحد

راحت الحروفُ الخافتةُ الرنانةُ تتسلل برفقٍ من فمها الجميل، مثلما ينسلُّ الليلُ من النهار ويسيلُ الضوءُ من الشمعات النحيلة، فتنساب إلى أذن ابن سينا الأغنيةُ وتنسكب بداخله، فتداوي الأحزان الكامنة كلها وتُبرئ الجراح.. أخذه شدوها بل طاح به، فارتادت روحه أنحاء السماوات، وسراديب النفوس العلوية العشرة. وهي تغنِّي، بدا كالرضيع في حضن الوالدة، ولما توقفت فتح عينيه ورفع حاجبيه العريضين وتقاربا، فغدا كالطفل الحابي الذي توارت عنه أمه.. قطع الصمت بسؤاله لها: متى يا ماهتاب؟ قالت: حين يحين الوقت.. ومتى يحين هذا الوقت؟ حين تعرفني فلا ترى سواي.. وهل أرى الآن إلا أنتِ؟ عليك أن تراني الآن وسابقًا ولاحقًا، ويعذب عندك العذاب. هذا شرطُ الهوى والهيام، فما هَامَ وهَوَى إلا الذي التذَّ حين اكتوى.

ـ هذا يا «ماهتاب» حديثٌ شعريٌّ يزيد التائه تيهًا، فأفصحي بلا مواربة.

ـ لن أكون لك حتى تكون لي، كاملًا، بما مضى من حياتك وما سوف يأتي.

ـ وكيف السبيل إلى ذاك؟

ـ تبوح لي بكل أسرارك، وتحكي لي عن المرأة التي جعلتك تكتب عن الإثم، وتعدني بأن تكتب الحكمة المشرقية.. وشرط ثالث لن أبوح لك به.

ـ شروطك هذه محيرةٌ، ومستحيلة، وتقهر كل توق..

ـ وما الذي تتوق إليه الآن؟

ـ غناؤكِ.. ليتكِ تُسمعيني أغنيةً أخرى.

لم تتأخر عن تلبية ما طلب، وترنمت بأغنيةٍ بالغة النعومة، ساحرة المفردات، خافتة. فأغمض ابن سينا من جديدٍ عينيه، وعاد برأسه إلى الوراء وغاب، وغاص في غمرة الغياب حتى غلبه النعاسُ فلم يدر بأنه نام وبأنها تغطيه، ولم يشعر بها حين قَبَّلت كتفه اليمنى.. غطته «ماهتاب» بالدثار الذي كان فوق سريره القريب، وتركته على الدكَّة نائمًا وخرجت من الغرفة.. غابت، مثلما تأتي الأحلامُ وتختفي.

***

على عكس ما كان ابن سينا يتوقع، ويتمنى، جاء الصباح التالي صاخبًا ومليئًا بالمزعجات. إذ أيقظ «المزدوج» عقيب الفجر «ماهيار» واستدعاه على عَجَل إلى الساحة الأمامية، لأن «سلحدار» القلعة المسئول عن الأسلحة والمؤن، قضم فجرًا قطعة من الحلوى كانت يابسة إلى حدِّ التحجُّر، فانكسر جانبٌ من ضرسه وراح يصرخ من شدة الوجع. اجتهد «ماهيار» مع قلة خبرته وعدم وجود الآلة المناسبة، وسعى لقلع الضرس المكسور جانبه، ظنًّا منه أن ذلك سوف يُذهب الألم. لكن الوجع ازداد وبلغ الوجعُ بالرجل إلى الدرجة القصوى فغشي عليه، واعتقد الواقفون من حوله أنه هلك وقضى. أدرك «المزدوج» أن الأمر يتجاوز قدرة «ماهيار» ومعرفته، فقال لاثنين من الجند، آمرًا:

احملاه، سنذهب به إلى ابن سينا.

كانت الشمس ترسل لابن سينا شعاعها الناعم المبكر عبر فُرج الباب وفواصل نافذتَي الغرفة، لكن ذلك لم يوقظه من غفوته الهانئة على الدكَّة. الذي فعل ذلك، بقسوةٍ، هو صخبُ القادمين إليه بالمغشيِّ عليه.. انتبه من أحلامه فَزِعًا على الجلبة والدقِّ المتواتر على الباب، ودعك عينيه بقبضتيه ثم نظر إلى المغمى عليه وقال: أدخلوه.. حكى له «المزدوج» ما كان، فنظر ابن سينا في فم الرجل الغائب عن وعيه، ثم نظر إلى «ماهيار» بلومٍ وقال لمن حوله: لا تقلقوا، وانفسحوا عنه كيلا تختنق أنفاسه..

ـ هل سيفيق من الإغماء، أم سيموت؟

ـ لن يموت الآن. ولا أريد له أن يستفيق، قبل أن أجهِّز له المسكنات اللازمة.

أسرع ابن سينا إلى الحجرة المجاورة حيث الأدوية والمفردات، ولحق به «ماهيار» الذي قال له الشيخ الرئيس بصوت كظيم: كيف تقلع ضرسًا وأنت ترى اللثة ظاهرة الالتهاب؟ خجل «ماهيار» من نفسه ولزم الصمت، واكتفى بالوقوف والنظر إلى ابن سينا الذي أخذ مقادير من بزر البنج والأفيون والقنَّة، وغيرها، ثم طلب من «ماهيار» الخجلان، أن يخلطها بالهاون ثم يجعلها معجونًا بعقيد عصير العنب. وأخذ بعد ذلك مقدارًا من المصطكى المسمى تدليلًا «مستكة» وأضاف إليه السَّكَّ والقرنفل والحلتيت، وصنع من ذلك حشوًا لضرس الرجل.. بعد أن وضع حول الضرس المكسور المسكنات دسَّ فيه بعض الحشو الساتر للعصب المكشوف، وصَبرَ ساعةً، ثم ردَّ الرجل إلى وعيه بمُذهبات الغشيِّ. وقوَّى نبضه بالأدوية المفرِّحة للقلب، كالنعنع، وعند الظهيرة هدأت آلام الرجل فوضع ابن سينا على ضرسه بقية الحشو، برفق، وأمره بأن يصبر على الجوع بقية اليوم ولا يتناول في الغد إلا العصائر المصفاة.

«أعتذر إليك يا سيدي».. قال ماهيار ذلك لابن سينا، فهزَّ بهدوءٍ رأسه وهو يخبره بأن عليه الاعتذار للمضروس، بأن يتابع باهتمامٍ حالته، ويمدّه بمسكنات الألم كلما دعت الحاجة.. وبعدما ذهب ماهيار، غسل ابن سينا يديه ومسح على وجهه وشعره بالماء النظيف، وقطعة القماش، واستعاد في سرِّه ما كان قبل ساعاتٍ مع ماهتاب، فابتسم في سره وهو يغلق عليه بابه.. تردَّد لحظةً بين الاستلقاء فوق سريره والنعاس ساعة، أو الجلوس إلى الطاولة وكتابة بعض المسوَّدات، ثم حسم أمره بأن أحضر الكاغد وكتب في أعلى الورقة الأولى: الفن السابع من كتاب القانون في الطب، في أحوال الأسنان. وهو مقالة واحدة. تكلمنا سابقًا في الأسنان وتشريحها ومنافعها، فيجب أن يُتأمَّل ما قيل هناك، وليُعلم أن الأسنان من جملة العظام التي لها حسٌّ، لما يأتيها من عصبٍ دماغيٍّ لينٍ، فإذا آلمت أحسَّ..

***

بعد ساعةٍ من الاستغراق التام، وعندما كان ابن سينا يدوِّن في المسوَّدة ما نصُّه: «وإذا كان الوجع في العصبة، فربما زال بالقلع وربما لم يزل، وإنما يزول بسبب».. جاءته استغاثةٌ فزعة:

ـ أدركني يا رئيس الحكماء.

سمع ابن سينا صوت «المزدوج» يستجير به من وراء الباب، فانتفض وفتحه ليجد «المزدوج» لاهثًا، متعرِّقًا، ينتفض وهو مخطوف الخاطر واللون:

ـ خيرًا يا منصور؟

ـ أدركني يا حكيم، أدركني، أرجوك. زوجتي الصغرى تنزف، والدم يتدفق من تحتها كأنه يخرج من عنق ذبيحةٍ، وهي تتلوَّى من الألم. أسرع إليها، أرجوك.

لفَّ ابن سينا حول رأسه عمامته، بسرعة، وترك خلفه باب حجرته مفتوحًا ولحق بالمزدوج الذي هرول أمامه لاهثًا والعرق يبلِّل جبهته وجيب جلبابه. ما هذا اليوم المريع. فور خروجهما من باب الجدار، الضيق، رفع ابن سينا رأسه من دون قصدٍ إلى الأعالي فرأى السماء فوق «دولت كوجك» وكأنها غير تلك السماء التي يراها من داخل محبسه بالقلعة، وبدا الهواءُ كأنه مختلف.. البابُ الضيق فاصلٌ بين كونينِ، لأن هذا الجدار حائلٌ ما بين الجسم والروح، وما بين الحبس والحرية. وشتان ما بينهما.

انعطف «المزدوج» يمينًا وتبعه ابن سينا، فمرَّ على حجرتين يمرح أمامهما إوزٌّ ودجاجاتٌ وأفراخ، وتجلس طفلتان مذعورتان من صوت الصراخ الآتي من الحجرة التالية، حيث كانت زوجة «المزدوج» الكبرى قابعة على الأرض يعلو عويلها، والصغرى تنتفض وهي مستلقيةٌ على سريرٍ ملطخٍ ببقع الدماء المتناثرة منها. ظاهرٌ أنها نزفت كثيرًا. وكانت «ماهتاب» جالسة على طرف السرير وقد شمرت أكمامها عن ساعديها، وراحت تمسح بأسى على شعر النازفة، وحالها يدل على حيرتها وقلة حيلتها. طلب ابن سينا من «المزدوج» أن يأخذ زوجته الكبرى إلى خارج الغرفة، ويطلب منها الكف عن العويل، ففعل. وطلب من «ماهتاب» أن تغلق الباب، ثم ترفع عن النازفة ذيل ثوبها المتخضِّب، ففعلت. نظرت إليه المريضة نحوه نظرة مشرفٍ على الهلاك، فرفع راحتيه وهزَّهما برفقٍ وهو يقول لها هامسًا: اهدئي يا ابنتي، ستكونين بخير.

جلس عند قدمَي مريضته وأشاح بناظريه بعيدًا عن جسمها، وهو يمدُّ يده إلى أعالي ساقيها. مسح بأطراف أصابعه ما سال منها، ثم دعك الدم ومَرَسَه بيده وهو ينظر فيه بإمعانٍ، فعرف من اسوداد لونه أنه نزفٌ حادٌّ. قد يكون بسبب بواسير في الرحم، أو تقرُّحاتٌ في جدرانه. وأدرك أن الفزع الذي استولى على المسكينة، زاد من تحريك الرطوبات ببدنها فازداد النزفُ بفعل الخوف..

بوجهٍ هادئٍ نظر نحوها مُطمئنًا إياها، وهو يمسك رسغها الأيمن، ليجسّ ما بها من النبض. ارتجفت، فقال لها بحنوٍّ وملامح باسمةٍ، إن النزف توقف. وإنه كان من دم محتبسٍ، ومن الجيد أنه خرج. ثم قال بنبرة المتمرِّس: لا تخافي ستكونين بخير، بإذن الله ستكونين بخير.. وبعد برهةٍ جسَّ نبضها مجددًا فوجده لا يزال ضعيفًا مثلما توقع، ولكنه منتظم. بهدوءٍ، قام ابن سينا من جوار مريضته، وأشار لماهتاب بأن تتبعه إلى خارج الحجرة الفوَّاحة برائحة الأحجار العتيقة.. في الرحبة التي أمام الباب كان «ماهيار» يقف قلقًا على قدم الترقب، وإلى جواره طفلة حائرة النظرة، وبينهما «المزدوج» الذي يبدو من فرط الحزن، كمن يوشك على الانهيار. سار ابن سينا بماهتاب بعيدًا عنهم،

وهمس لها بحيث لا يسمعانه: امسحي وجهها بخرقةٍ مبللة بماء الورد أو بأي مادة عطرية، ثم اغسلي تحتها بماءٍ نظيف دافئ، وبدِّلي لها ثوبها. وعندما تهدأ، انظري برفق في رحمها بمرآةٍ صغيرةٍ، وأخبريني إن كان ما بها هو تقرُّحاتٌ أم بواسير.

ـ لا أعرف البواسير.. ما شكلها؟

ـ هي بثورٌ تظهر على الجلد. منها ما هو ناتئ وما هو غائرٌ. ولها ثلاثة أشكال، مشهورةٌ بما تشبهه: العنبية والتوتية والثآليل.

ـ فهمت.. شكرًا لك.

ـ أدركيها الآن، وترفقي في الأمر فهي مذعورة..

عادت «ماهتاب» للمريضة، وطلب ابن سينا من «ماهيار» إحضار بعض المفردات العطرية، وجلس بجوار «المزدوج» بعد أن قال له: ستكون بخير، فلا تترك دموعك تظهر أمام جنودك، فهم يرقبوننا من بعيد. وبعد وهلة جاء «ماهيار» بالمطلوب، ثم خرجت «ماهتاب» وأشارت خفيةً لابن سينا فقام إليها.. أخبرته لاهثةً بأن الرحم فيه تقرُّحاتٌ، لا بواسير، وبأن كينها شديدُ الاحمرار بسبب الالتهاب. قال لها: هذا أمره أهون، سأرسل لكِ مع «ماهيار» سفوفاتٍ قابضة للرحم، ومقوية له، وخرقةً صغيرة فيها أدوية تُحتمل بالرحم، فضعيها فيه بلطفٍ، ثم اسقيها شرابًا عطريًّا، وأوصى لها بصفار البيض نيمبرشت، وغير ذلك من الأغذية اللطيفة سهلة الهضم. سوف تتحسَّن بعد ثلاثة أيام، وربما أقل.

«هيا بنا يا أخي منصور».. قال ابن سينا ذلك للمزدوج، فقام معه مستسلمًا ولحق بهما «ماهيار» فدخلوا إلى القلعة تباعًا والشمس تدخل في المغيب، ودخلت «ماهتاب» إلى حجرة المريضة لعمل ما يلزم لها.. في حجره محبسه أعدَّ ابن سينا لزوجة «المزدوج» السفوفات والحمولات، وأعطاها إليه ليوصلها إلى «ماهتاب» ويطمئن على زوجته. ذهب المزدوج وعاد مسرعًا، وجلس قبالة ابن سينا حائرًا فيما يجب أن يقوله كي يشكره، وكان ابن سينا لحظتها يغسل يديه ويتوضأ للصلاة، ولما انتهى من السلام على الملكين المؤكَّد شرعًا أنهما يصليان معه، نظر إلى المزدوج وابتسم وهو يقول له: أنت إذن عاشقٌ كبير..

ـ لا، لكنها والله مسكينةٌ، وطيبةٌ وجميلةٌ.. وحنون.. نعم يا حكيم، أنا أحبها وعاشقٌ لها، لن أنكر ذلك.

ـ لستَ بحاجةٍ للإنكار يا منصور، هي زوجتك، وعشق الزوجة جنة. ولكن عليك ألا تقربها عدة أيام، حتى يُشفى رحمها من الالتهاب. ماهتاب سوف تخبرها بشفائها، فتخبرك، ولا يجب عليك أن تتعجل الأمر وإلا لحق بها الضررُ.

ـ لن أتعجَّل. ولكن أخبرني بربك بما حدث لها، هل أسقطت حملها.

ـ هي لم تكن حُبلى، وإنما احتبس طمثُها وتقرَّح رحمها فانتفخ بطنها وانقطع الطمثُ. ثم نزفت، ففزعت، وسقطت قواها. وعليك يا منصور بعد شفائها أن تترفَّق معها، فهي رقيقةُ البدن وأنت رجلٌ ضخم! فلا بد لكما من الأدهان المزلقة، وعليك الصبر عليها عند المجامعة، حتى يكثر ماؤها.

ـ طيب، سأفعل ذلك. والحمد لله، هي الآن صارت أهدأ حالًا. والشكر لك طبعًا. وقد طلبتُ من البانو

«ماهتاب» أن تبقى معها الليلة، فوافقت على ذلك مشكورةً. ولا أدري حقًّا، كيف يمكنني أن أرد لكما هذا الجميل.

ـ لا تشغل بالك بذلك يا أخي منصور.

أخفى ابن سينا تحسُّره على حرمانه من صحبة «ماهتاب» وتشاغل عن الأمر بأن قام وأوقد قنديليه، ثم سأل «المزدوج» عن آخر أخبار الحرب المتوقعة، فأخبره بأن ما يجري من الأمور غير مفهوم. فالأمير «ابن الكاكويه» يتقدم بجيشه الأصفهاني نحو «همذان» متباطئًا، بعكس المفروض، وأمير همذان ترك القياد لرئيس عسكره «تاج الملك» الذي لم يستعد للحرب حتى الآن، فلا استحكم بجيشه عند المدينة، ولا خرج به ليصادم ابن الكاكويه. وهذا عجيب. والأخطر، أن محمود الغزنوي تأخر عن غزوه المعتاد لنواحي الهند، ويبدو أن لعابه يسيل طمعًا في الممالك البويهية الثلاث، الري وأصفهان وهمذان، ولا أحد يدري بنواياه.. أهلًا يا بانو «ماهتاب» كيف حالها الآن؟

جاءت «ماهتاب» لتسأل ابن سينا، إن كان نافعًا للمريضة أن تُعطى بعض المنوِّمات؟ فقال: لا بأس بذلك؛ فالنوم مفيدٌ لها، انتظري سأعطيك شيئًا يناسبها.. قام إلى الحجرة الأخرى، وتبعه ماهيار، ثم خرج منها بعد برهة وحده وبيده الدواء، فوجد ماهتاب تنتظره بين البابين. تقدمت إليه وهمست وهي تأخذ ما بيده: لن أراك الليلة، سأبقى معها، ولكن غدًا تحكي لي عن المرأة التي جعلتك تكتب عن الإثم، عدني بذلك.. هزَّ ابنُ سينا رأسه مستسلمًا، وموافقًا، وسار معها حتى وصلا إلى باب حجرته فدخلها، وأكملت هي طريقها إلى «دولت كوجك» تتبعها خواطرُ الشيخ الرئيس وحنينُ روحه.

سكنت حوله دنياه بعدما ذهب عنه «المزدوج» ليتفقد أحوال قلعته وأمور دولته الصغيرة، وقام ماهيار لينام، فانفرد ابن سينا بنفسه وجلس إلى الطاولة وبين يديه أوراق بيضاء، طاهرة، لا يدري ماذا سيكتب فيها.. سكن، حتى استبد به المللُ فأخذ يتفحَّص الصفحات التي كُتبت سابقًا، ويعيد ترتيبها.

الصفحات التي بخط «ماهتاب» رشيقة التنسيق، دقيقة الخط، وأخطاؤها نادرة. انسربت أفكارُ ابن سينا من الصفحات المكتوبة إلى الخط، ثم إلى الكاتبة، واستحضر خياله الخلاق هيئة «ماهتاب» وهي جالسة هنا بالقرب منه، ببهائها الأتم... حضورها طاغٍ، وغيابها يحرق أجنحة الروح. أتراها ستكون يومًا لي؟ هي تستحق أن تكون الصاحبة والزوجة وأم الأولاد. لا، الزواج والإنجاب في هذا الزمن خطيرٌ، وغير مأمون العواقب. فكيف السبيل إليكِ يا ماهتاب؟ وهل ظهرتِ الآن لتكوني لي عونًا على زمني الحزين، أم لتزيدي معاناتي؟ ربما يكون كلامكِ صحيحًا. فالواجبُ عليَّ أن أكتب الحكمة المشرقية في كتابٍ جامع، فهذه الرسائل المتفرقة سوف تتناثر. وقد تضيع. نعم، لا بأس لو عكفت بعد انتهائي من «الشفاء» ومن «القانون» على تدوين كتابٍ كبير، يكون عنوانه «الإنصاف في الحكمة المشرقية».. نعم، لو امتد بي الأجلُ، سأفعل ذلك. ولكن المشكلة الآن: كيف سأحكي لها، بعدما وعدتها، عن المرأة التي عرفت بسببها معنى الإثم.. كيف؟!

***

وهكذا، عادت الذكرياتُ بابن سينا إلى زمن الابتداء.. إلى بخارى.

كان ابن سينا في الخامسة من عمره، عندما انتقل أبوه بأسرته من قرية «أَفْشَنَه» التي وُلد بها، إلى مدينة «بخارى» العامرة المزدحمة جدًّا بالقياس إلى قريته السابقة، الهادئة، فوَّاحة الأنحاء برائحة الباذروج والرياحين والأعشاب العطرة التي تنمو بكثرة حول القرية. ومع أن ذاكرة ابن سينا برَّاقةً كالياقوت، لم يتبق فيها من سنواته الخمس الأولى إلا الرائحة النفاذة في مسقط رأسه، وهو لا يتذكر من يوم الانتقال منها إلى بخارى، إلا شيئين: أن السماء كانت رماديةً تتوارى شمسها خلف طبقاتٍ من السُّحُب الكثيفة، وأن المنزل الذي اكتراه أبوه في «بخارى» لمدة سنةٍ ثم اشتراه، كان واسعًا فسيح الأنحاء.. في هذا المنزل المتوسط بين بيوت «بخارى» المتلاصقة وطرقها الضيقة، متوالية الاستدارات، كانت النشأة الرتيبة الهادئة، غير المشوبة بالاضطراب الذي لاحق ابن سينا بعد تخطيه العشرين من عمره، واضطره للتنقل الدائم بين النواحي الخوارزمية والخراسانية والفارسية.

المنزلُ البخاري الفسيح فيه حجراتٌ ثلاثٌ صغيرة تجاور بوابته، يبيت في اثنتين منها الخدم، وتخزَّن في الثالثة المؤن وعليق الدواب.. الأغنام، والبغلة التي كان يركبها أبوه، والبقرات؛ لها حظيرة طويلة تحاذي السور من الجهة الغربية. وفي وسط الدار رحبةٌ مفتوحٌ عليها مبنى من طابقين، الأعلى منهما غير مسقوف الغرف وفيه الفرن المقبَّب وحبال نشر الغسيل، والطابق التحتاني تتوسطه صالة مفتوح عليها أربع حجرات، ينام في إحداها «عبد الله» وزوجته «ستاره»، وفي المجاورة لها يعيش طفلاهما الحسين وعليّ.. سوف يُعرف البكريُّ منهما «الحسين» لاحقًا بكُنية بوعليّ «أبي علي» ولقب الأسرة «ابن سينا» ويشتهر بصفةٍ لم يوصف بها غيره: الشيخ الرئيس.

الحجرتان المتقابلتان عند مدخل الطابق الأرضي، مخصصتان للضيوف المقرَّبين عندما تتوجب الضيافة، وللجلوس الأسري في معظم الأيام. وهناك غرفة ضيافة منفردة، في الزاوية القبلية من المنزل، لها بابان أحدهما يفتح على خارج البيت والآخر على الممر الخلفي الذي تقف فيه بعضُ الأشجار، يحوطها سورٌ يفصل المنزل عن منزلٍ يلاصقه خلفًا بخلف، يسكن فيه تاجر الحبوب الطاعن في السنِّ «خليل الخيوقي» وزوجتُه سندس.

الأعوام الخمسة عشر الواعية الأولى، في حياة ابن سينا، دامت هانئةً ساكنة الظاهر مفعمةً بالمعرفة. ففي «بخارى» ابتدأ التعلُّم والتلقي من الأساتذة، والانهماك في تحصيل المعارف النقلية كالفقه وتفسير القرآن، والعقلية كالرياضيات والفلك. ثم تاقت نفس الشاب النابه لدراسة «الطب» الذي كان يراه من العلوم المفيدة، وغير الصعبة كالفلك والرياضيات.

في صبيحةٍ شتوية بيضاء، ثلجية، جلست الأسرة حول المائدة المزدانة بأطباق «الآش رشته» شهية الطعم، زكية الرائحة. وعند انتهائهم من الطعام بدأت »ستاره» الكلام بأن قالت لابنها البكريِّ ما ترجمته: يا حسين، متى تنوي الزواج؟ وأردفت بمسكنة الأمهات حين يتمنين: أحتاج يا ولدي لامرأةٍ تساعدني على الوفاء بأعباء هذا البيت، فقد كبرت سني، وأنت اقتربت بعمرك من العشرين وهو أنسب سنٍّ للزواج.. جاوبها ابنها النابه دون أن ينظر إليها، بقوله: وهبكِ الله الصحة والعزم، وإن كنتِ تحتاجين مساعدة، فلن يتأخر أبي في شراء جارية أخرى أو اثنتين، فاتركيني لما نذرت نفسي إليه.

ـ نذرت نفسك.. لأي شيء؟

ـ للعلم.

ـ يا ولدي، العلماء كلهم متزوِّجون.

ـ لن أكون مثل بقية العلماء، ولا أريد الزواج الآن. وعمري لم يتخط السابعة عشرة، إلا ببضعة شهور.

تدخَّل أخوه «عليّ» ذو الأربعة عشر عامًا، وقال بصبيانيةٍ تبتهج: أنا يا أمي مستعد للزواج، بفتاةٍ واحدة أو حتى اثنتين.. عقدت «ستاره» حاجبيها الكثيفان ونكَّست أنظار عينيها العامرتين بالطيبة، وهي تتوجَّه ناحية زوجها وتقول بنبرةٍ متوسِّلة: يا عبد الله، قل لابنك شيئًا، أريد أن أرى ذُرِّيته قبل أن أموت.. فقال له أبوه: لا بأس يا حسين بما ترجوه لك أمك، ولن يعوِّقك زواجك عن الاشتغال بالعلوم.

ـ يا أبي، ما أرجو الآن هو دراسة الطب، لأعالج الفقراء احتسابًا وتقربًا إلى الله.

ـ هذه والله فكرة جيدة، وسوف تمهِّد لك طريق الدعوة، وإن شاء الله تصير من كبار الأساتذة.

ـ أرجوك يا أبي، وأستحلفك بمحبتك لسيدنا «الحسين» ألا تلحّ عليَّ في هذا الأمر، فإن مخالفتي لك تعدّ عندي من الكبائر. لكنني لن أكون داعيةً للأئمة على المذهب الإسماعيلي، فالمذاهب يا أبي صارت بابًا للتفرقة بين المسلمين، والعلم هو الذي يقرِّب بين الناس وينجو بهم من التعصب.

ـ حسنًا، لن ألحّ عليك يا حسين، وسأجد لك أفضل طبيبٍ معلم. ولكن عدني بأمرين، أن تقرأ «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» بعنايةٍ، وأن ترتدي حين تبدأ معالجة الناس الطيلسان وتلف طرف عمامتك تحت الحنك. تشبَّه يا ولدي بخيرة العلماء، الدعاة، عساك تصير واحدًا منهم يومًا ما.

ـ حاضر يا أبي. سأفعل الأمرين إن شاء الله، إرضاءً لك، ولكن لا أنوي أن أصير من الدعاة.

وهو يقوم من جلسة الإفطار إلى غرفته، سمع ابن سينا أخاه «عليّ» يقول لأبيه، بالنبرة المتحمسة ذاتها: أنا يا أبي مستعد للدعوة للمذهب، وسأكون بإذن الله واحدًا من الأساتذة الدعاة المحنكين، خيرة العلماء.. عند الظهيرة، أرسلت السماء البيضاء إلى الأرض البيضاء عبر الهواء الساكن، مزيدًا من البَرَد الذي ملأ الأجواء، فصار كأنه ذراتُ دقيقٍ منفوشٍ تهبط على مهلٍ من غربال كبير.

في ذاك اليوم، جرى أمران كان لهما لاحقًا الأثر البالغ في حياة ابن سينا. مع أن كليهما بدا عند حدوثه عاديًّا. الأمر الأول أن جارهم «خليل الخيوقي» توفي قبل الظهيرة عن عمرٍ تجاوز الثمانين سنة، فصلوا عليه صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر، ودفنوه بالجبانة الجنوبية بعد صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب استدعى «عبد الله بن سينا» ابنه البكر «الحسين» للذهاب معه لتأدية واجب العزاء.. ولم يكن ابن المتوفى، وهو القريب الوحيد له في بخارى، موجودًا لتلقِّي العزاء. إذ إن خلافًا قديمًا كان قد شجر بينهما، وقطع ما لا يصح أن يُقطع من صلةٍ بين الابن وأبيه.

الأمر المهم الآخر جرى عقب التعزية، إذ أخبر «عبد الله» ابنه «الحسين بن سينا» في طريق عودتهما لمنزلهما، أنه اتفق له على دروس الطب التي يريدها، مع طبيب نطاسيٍّ بارع هو «أبو سهل عيسى المسيحي» الفيلسوف. كاد ابن سينا يقفز فرحًا وهو يصيح: أبو سهل، هذا حكيم مرموق، الحمد لله أنه وافق.

ـ وافق من فوره، بل تحمَّس للأمر جدًّا. ورفض أن يتقاضى أجرًا مقابل تعليمك، وأخبرني بأنه كان يريد أن يراك منذ فترة. هو يسميك الولد النابه المبارك.

ـ متى يمكنني الذهاب إليه يا أبي؟

ـ هو مثلك، لا ينام بالليل إلا متأخرًا. هو قال لي ذلك. فيمكنك الذهاب إليه في بيته مساءً، وقتما تريد.

ـ أعرف بيته، سأذهب إليه الآن.

***

في الطريق إلى «أبي سهل» شعر ابن سينا بأن صفاء نفسه قد انعكس على صفحة الكون من حوله، أو العكس. كأنه مرآةُ الكون، أو الكون مرآته. ففي قلبه سكينةُ شابٍّ قضى نهاره منكبًّا فوق لوح الغبار، يجري عمليات حسابية متتالية ومتراكبة، ويدوِّن الفذلكات في ورقة صغيرة. والرياضياتُ قرينةُ الصفو الخالص. وفي سماء المساء البخاري الهادئ صفوٌ شتويٌّ بديع وسكونٌ تام، وطمأنينة، والأرض المكسوَّة بالثلوج مشرقة بضوء البدر المنير، وما حوله من نجومٍ ناصعة.. ابتسم ابنُ سينا في سره، وراح يفكر في المقدار الذي ينعكس به الضوء على السطوح الصقيلة، والمرايا، وقرر في نفسه أن يكتب يومًا عن هذه المسألة، رسالةً حافلة بالتجارب والبراهين.

بيت الطبيب الحكيم «أبي سهل» المنزوي في القسم الجنوبي من بخارى، صغيرٌ، لا يُناسب سُكنى طبيبٍ معروف. لعله الزهد. طرق ابن سينا الباب برفقٍ مرتين متباعدتين، وبعد حينٍ فتحه «أبو سهل» بنفسه وبدنه النحيل، ولحيته المدببة كالمثلث المقلوب، وعينيه الجاحظتين اللتين تتلفتان توجُّسًا. يمنةً ويسارًا. عرَّفه ابن سينا بنفسه، فقال له باقتضابٍ: نعم، أعرفك، ادخل! وأخذه إلى حجرة قريبة من باب المنزل، خافتة الضوء، تتراصُّ الكتبُ في زواياها وتفوح فيها رائحة زيت الزيتون العطن. صبَّ له «أبو سهل» كوبًا من شراب الآينسون الساخن، فأخذه ابن سينا وهو يقول: شكرًا يا سيدي.

ـ أنت تعرف أنني مسيحي، والمسلمُ في بلادنا هذه يا بني، لا يقول لمثلي «يا سيدي»..

ـ التلميذُ يقول لأستاذه «يا سيدي»، ويفتخر بذلك.

ـ هذا ردُّ شابٍّ نابه، ولا يُستغرب من مثلك. فقد أخبروني بأن أباك استقدم لك أبا عبد الله النَّاتَلي المتفلسف، ليعلمك المنطق، فعلَّمته أنت الهندسة..

ـ لعلها مبالغات من الناس يا سيدي، فقد قرأت عليه في المنطق مقدمة «فرفوريوس» المسماة إيساغوجي، وكتاب «أصول الهندسة» لإقليدس، ولما وصلنا إلى كتاب «المجسطي في الفلك والرياضيات» شرح لي بداياته، وشرحتُ له الأشكال الهندسية المذكورة في آخر الكتاب. لكن «النَّاتَلي» سوف يظل مني بمنزلة الأستاذ، وهو صاحب فضلٍ عليَّ، لأنه نصح أبي بألا يشغلني بغير العلم فأخذ أبي بنصحه والتزم.

ـ حسنًا. وما الذي تريد أن تتعلَّمه مني، وما الذي ستعلِّمني إياه؟

ـ العفو يا سيدي، الحكيم. أنا مجرد تلميذ يودُّ لو يدرس على يديك، دقائق المعارف الطبية وفنون المعالجات.

عاد «أبو سهل» بظهره إلى الوراء وعقد ساقيه فجلس متربعًا، ومبتهجًا، ثم قال كلامًا كثيرًا ملخصه أن المهارة في العلاج، تأتي بالخبرة إذا توفَّرت الإحاطة بالقسم النظري من علم الطب، واستدامت المثابرةُ مع المرضى وحسن الصبر عليهم. وسكت لحظة ثم أضاف: وعليك في فترة البداية ألا تغامر بعلاج أي مريضٍ بالأقرباينات، كثيرة التركيب، قبل اختبار الأدوية المفردة والأغذية الدوائية. ولكن قبل هذا كله، علينا البدء بما يجب الابتداء به وهو كتب أبقراط، وأرى أن تبدأ بقراءة كتابه الصغير الذي عنوانه..

ـ يا سيدي، قرأتُ الاثني عشر كتابًا لأبقراط، والستة عشر كتابًا لجالينوس. وقرأتُ لك كتاب «العوامل المائة في الطب» ولأبي بكر الرازي، كتابيه: الحاوي، والمنصوري.

ـ متى؟ أقصد، كيف قرأت كل هذه الكتب، من دون معلم؟

ـ الطبُّ ليس في العلوم الصعبة. وقد قرأتُ تلك الكتب بعنايةٍ وصبر، فلم يتعذر عليَّ فهمها، إلا في بعض المواضع القليلة التي أرجو مراجعتها معك، إذا تفضلت بالموافقة. فمن ذلك مثلًا، قول الفاضل أبقراط في كتابه «الفصول» إن الحبلى لا يجب أن تُسقى دواءً.. فماذا لو مرضت، كيف يكون في تلك الحالة علاجها؟

عاد «أبو سهل» مجددًا بظهره إلى الوراء حتى أراحه على الحائط، وتحدث برويِّة ونبرة خافتة، قائلًا: هذا المنعُ إنما هو للتحذير والتوقِّي، لأن قوى الأدوية لا تنضبط ولا تصدق خواصها في أبدان الحبالى، فإن مرضت الحبلى فالأوفق أن تُعالج بالأغذية الدوائية والمفردات، لا بالأدوية القوية والمركبة، لأن هذه لا تكون مأمونة مع الحمل. وماذا لديك غير ذلك؟ أجابه ابن سينا بأنه دوَّن في كراسٍ كل ما أشكل عليه وعسر فهمه في الكتب المذكورة، وسوف يأتي بالكراس المرة القادمة. فأومأ «أبو سهل» برأسه موافقًا ومستحسنًا الفكرة، فتشجع ابن سينا وسأله: هل يمكنني أن أقرأ عليك كتاب الرازي الذي بعنوان: الشكوك على جالينوس؟

ـ طبعًا، يمكنك. وهو كتاب مفيد، لديَّ هنا نسخة منه، عليها تصويبات بخط الرازي نفسه. متى تحب أن نبدأ؟

ـ هل يمكن الآن؟

ـ يمكن..

متأملًا بابتهاجٍ في السماء التي تستعد لبدء يوم جديد، عاد ابنُ سينا من عند «أبي سهل» إلى منزله، فوجد أباه قد انتهى من صلاة الفجر وجلس على سجادة الصلاة يسبِّح في خفوت. حين رآه، هزَّ رأسه بغير رضا وهو يقول له: أراك يا ولدي قد شققت على الرجل، وهذا لا يليق، فهو يعلمك احتسابًا ومحبة ولا يصح منك أن تبقيه مستيقظًا طيلة ليلته.

ـ هو الذي طلب مني البقاء يا أبي، وقد مضى الوقت سريعًا وكان مفيدًا ومثمرًا. هو رجلٌ فاضل حقًّا، ومتبحرٌ أيضًا في علوم الحكمة والفلسفة، وحدَّثني طويلًا عن طرق البرهنة وعن وجوب فساد المادة، لأنني قرأتُ عليه الليلة الثلث الأول من «شكوك» الرازي على جالينوس.

على صدى صوتهما، نزلت «ستاره» من الطابق الأعلى وطلبت من ابنها ألا ينام قبل أن يأكل شيئًا، فقد انتهت من إعداد فطائر الفطور وستأتي بها الآن الخادمة.. على مائدة الإفطار تحدثت «ستاره» كثيرًا كعادتها وكان من ضمن ما قالته، إنها تعجبت بالأمس من حال أرملة المتوفي التي كانت تتصرف بغرابةٍ، وبدت في معزى النساء كأنها تنتظر وصول أحدهم. جاوبها ابنها النابه قائلًا بغير اكتراثٍ: لعلها يا أمي مصدومة، فعجوزٌ مثلها من الطبيعي أن يفجعها موت زوجها. فردَّت عليه بسرعة: لا يا حسين، هي ليست عجوزًا.. وكادت تكمل، لكن زوجها «عبد الله» نهرهما بعبارته الحادة: ما هذا الفضول؟ وما شأننا نحن بالأرامل المصدومات وبأحوال الناس! الإمام «عليٌّ» عليه رضوان الله، قال: لا تَخُضْ فيما لا يعنيك، واقصر همتك على ما يلزمك؛ فإن ضياع العقول في طلب الفضول.

***

بعد مرور شهرٍ على ملازمة ابن سينا لأبي سهل، متتلمذًا، طلب من أبيه أن يجلب له مقادير من الأدوية والمفردات الطبية، ليعالج بها الفقراء من المرضى احتسابًا لوجه الله. فرحَّب «عبد الله» بالفكرة مؤكِّدًا أن ذلك من أوجب

وجوه الزكاة والصدقات، وطمأنه بقوله إن صديقًا له يسكن في قرية «خرميثين» القريبة، هو الذي يتاجر في هذه المفردات ويأتي بها من البلاد البعيدة، ويوزِّعها على العطارين ببخارى، وعلى العشابين والصيادلة بالقرى القريبة.. وأكَّد له بأنه سوف يزوره بعد غدٍ ويجلب من عنده حمل بعيرٍ من أجود الأصناف، هبةً للمرضى الفقراء، لعلها تكون وسيلة قُربى من الله.. ونفَّذ الأب وعده، متحمسًا، وَسقَفَ غرفةً على سطح المنزل وجعلها مخزنًا للأدوية.

وبعد شهر آخر، بدأ الشابُّ النابهُ في مداواة المحتاجين ومعالجة المرضى، وقد اجتهد في عمل ذلك بالأحياء الفقيرة من بخارى وأطرافها وما يتاخمها من القرى. بلا تفرقة في المرضى بين فقراءٍ وأغنياء، أو بين ذميين ومسلمين، أو بين أحرار وعبيد. لاعتقاده أن الإنسان واحدٌ في جميع أحواله، من حيث الصحة والمرض. وكان من يومه الأول، يداوي مرضاه برفق المحترفين وحماس الهواة، ويهدي إليهم الأدوية.. مع ذلك بقي ابن سينا منهمكًا في تحصيل العلوم والمعارف، حتى إنه لم ينم قط ليلة بكاملها، وكان يتردَّد في الأمسيات على «أبي سهل» ويأنس بالجلوس إليه وبالتباحث معه في الحالات المرضية، وفي الموضوعات المنطقية والفلسفية التي يميل إليها كلٌّ منهما. ومع مرور الوقت صارا كالأصدقاء، خصوصًا أن فارق السنِّ بينهما ليس كبيرًا، لا يكاد يتعدى العشرة أعوام، وإن كان نحولُ «أبي سهل» وضعفُ بدنه ورقَّةُ حاله، أمورٌ توحي بأنه أكبر من سنِّه الفعلية بأعوامٍ وأعوام.

في تلك السنة السعيدة، السابعة والثمانين بعد الثلاثمائة للهجرة، جرت وقائع وافقت طالع السعد للأستاذ والتلميذ اللذين أصبحا صديقين. فقد طلب أشهرُ أطباء بخارى «الحسن بن نوح القمري» من «أبي سهل» أن يكون معاونه في عمله كطبيب لقصر الأمير «نوح بن منصور الساماني» حاكم بخارى. فأصبح «أبو سهل» فجأةً طبيبًا سلطانيًّا، وجرت عليه العطايا، فتحسَّنت أحواله وتنعَّمت معيشته إلى حين، وصار ألطف مجلسًا وأميل للممازحة. حتى إنه كان آنذاك كثيرًا ما يدفع ابن سينا للضحك على تعليقاته، ويضحك معه عاليًا فتدمع عيناه، ويعلِّق على ذلك بقوله: سحقًا لدموعي التي لم تنفد حزنًا في السابق، فصارت اليوم تسيل عند الفرح، لتذكِّرني بما كان.. وكان لا يكف عن رمى النكات ودحرجة الإشارات، فإذا سأله ابنُ سينا عن رأيه في الفرق بين المسلمين والمسيحيين، ابتسم وهو يقول: أنتم خير أمة تأكل لحوم الأغنام، ونحن خرافُ الرب ونعجاته ومعزاته.. ويضحك عاليًا.

أما الشاب النابه «ابن سينا» فقد اشتهر آنذاك رويدًا بين الناس، كطبيب بارعٍ، وتهافت عليه فقراءُ المرضى ثم أغنياؤهم، فأحبَّه كثيرون من أهل بخارى وملحقاتها، لا سيما المساكين منهم والفقراء الذين كان يحسن إليهم، وحسده العطارون والعشابون والصيادلة، وبعض أطباء البيمارستان. لأن سطوع شمسه أدَّى إلى أفول أنجمهم، ولأنه كان يستخف بهم ولا يلتفت إليهم، لانشغاله بما هو أجدى لديه من ترضية أهل الصنعة، وإظهار التوقير لهم... وكما هو معروفٌ فإن المحبين والحاسدين، كلاهما، مبالغون. فالذين أحبوا الطبيب النابه الشاب، أشاعوا أن ابن سينا من أولياء الله الملهمين بالوسائل المثلى للشفاء! وحاسدوه قالوا إنه ملحدٌ، لأنه يهتم بغير المسلمين ويصادق طبيبًا من المسيحيين ويتصدَّق على اليهود والمجوس ويتلطف معهم.. أما هو، فكان يرى أن هؤلاء وأولئك مساكين، وكان ينظر إلى أوهامهم المتناقضة على أنها صغائر تصدر عن صغار.

وكان مما جرى مع ابن سينا آنذاك أنه عالج امرأةً بائسة قاربت من عمرها الخمسين، كانت تصنع الجبن وتبيعه للناس، فصحَّت وسمنت بعد دِقٍّ ونحول، واعتنت بنفسها فأشرقت. فانتشر بين العوام لا سيما النساء، أن الطبيب الشاب «ابن سينا» وليٌّ مبارك، يعيد إلى العجائز شبابهنَّ.. ومما جرى أيامها مع «ابن سينا» أنه كان عائدًا من سوق

الوراقين إلى منزله عصرًا، فوجد صبيًّا عند الباب ينتظره ومعه صُرَّة فيها تسع بيضات، مَدَّها إليه الصبي وهو يقول إنها هدية من أبيه «سعيد» خادم الكنيسة القديمة، الذي عالجه ابن سينا من حمى الغِبِّ حتى برئ منها. أخذ ابن سينا منه البيضات وطلب منه الانتظار، ودخل فاستأذن من أمه وأخذ قفصًا وضع فيه تسع دجاجات، وأعطاها للصبي وهو يقول له باسمًا: قل لأبيك إنني قبلت هديته، وقد فقست البيضات، فعليه أن يقبل هديتي.. في المساء، حين أخبرت «ستاره» زوجها بما فعله ابنهما، وهي تضحك وقلبها يفيض افتخارًا بطيبة ابنها الطبيب وكرمه مع الفقراء، ردَّ عليها «عبد الله» بنبرة الدعاة قائلًا: كان الإمام الحسين يحمل الطعام في دجى الليل إلى المساكين والأرامل واليتامى، وفي الحديث النبوي: الساعي على المسكين كالمجاهد في سبيل الله.. وأطرق لحظة ثم قال بلسان التمنِّي: لعله تعالى يهدي «حسين» إلى الدعوة للأئمة.

ومن وقائع تلك السنة، ما حكاه ابنُ سينا بنفسه في سيرته الذاتية التي أملاها على تلميذه «الجوزجاني» فكتبها في عشر وريقاتٍ تناقلها الناسخون والمؤرخون، فاشتهرت.. قال عن نفسه إبان تلك الفترة: قرأتُ كتاب ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) لأرسطو، فما كنتُ أفهمُ ما فيه، والتبس عليَّ غرض مؤلفه. حتى أعدتُ قراءته أربعين مرةٍ وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا أدري المقصود منه. وأيست من نفسي، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وفي يوم من الأيام حضرتُ وقت العصر في سوق الوراقين وناسخي الكتب ببخارى، ومرَّ دلالٌ وبيده مجلد ينادي عليه لبيعه، وعرضه عليَّ، فرددته ردَّ متبرمٍ يعتقد أن لا فائدة من هذا العلم، فقال لي الدلال: اشتره مني فإنه رخيص، بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاجٌ إلى ثمنه. واشتريته، فإذا هو كتاب أبي نصر الفارابي «أغراض ما بعد الطبيعة» ورجعتُ به إلى بيتي وأسرعتُ قراءته، فانفتح عليَّ فورًا أغراض الكتاب الذي كان لي محفوظًا عن ظهر قلب. وفرحتُ بذلك، وتصدَّقت في ثاني يومه بشيءٍ كثير على الفقراء، شكرًا لله تعالى.

***

أما أهمُّ ما جرى لابن سينا في تلك الفترة، فكان أمرين لم يتوقعهما. وقد وقعا في يوم واحد. الأول منهما هو لقاؤه الذي لم يكن مرتقبًا قط، بالمرأة الثرية الشهية الجامحة المتوهِّجة «سُندس» التي بدا أمرها هينًا حين ابتدأ، وهادئًا، غير أن البذرة سرعان ما بسقت ونمت واشتجرت وتشجَّنت، ثم اشتعلت فيها النيرانُ الهوجاء التي تندلع عادةً من مستصغر الشرر.. كان ابن سينا خارجًا من منزله صباحًا، متأنقًا، قاصدًا دار مريضٍ مجوسي يسكن بالرَّبْع الأفقر من بخارى، وكان المسكين قد أقعده انتفاخ بطنه بسبب المرض المسمى عند الأطباء «الاستسقاء الزِّقي». ولحظة خروجه، لمح ابن سينا خادمًا نحيلًا يجلس على الأرض قبالة البيت مترقبًا، فلم يأبه له ومضى متعجلًا كعادته. نهض الخادمُ ولحق به، واستوقفه بقوله اللاهث وعينيه اللتين تتوسلان: سيدي، يا سيدي الطبيب، سيدتي «سندس» ترجوك أن تمر عليها في أقرب وقت، لأنها مريضةٌ جدًّا..

ـ من أيِّ شيء تشكو سيدتك، ومن هي؟ وأين تسكن؟

ـ هي أرملة «خليل الخيوقي» وبيتها خلف بيتكم هذا، لكن مدخله من الشارع الآخر، بعد بوابة بيت «أبي بكر البرقي».. وأنا لا أدري من أيِّ شيءٍ تشكو، لكنها مريضة جدًّا، ولم تغادر غرفتها منذ أيام.

ـ سوف أمرُّ عليكم اليوم، عقب صلاة الظهر بإذن الله.

عند الرجل المسكين، المستسقى، أدرك ابن سينا أن المعالجات الدوائية لن تجدي معه نفعًا، ولا بد له من البزل،

فوعده بالعودة إليه عصرًا ومعه الأنبوب النحاسي والمشارط اللازمة. وفي طريق عودته، صلَّى ابن سينا فرض الظهر في المسجد الجامع، وخرج للمرور على الأرملة المريضة حبيسة حجرتها.. في منتصف الشارع الطويل الذي فيه بوابة بيتها، وقبل أن يصل إليه، وجد جارهم «البرقي» جالسًا أمام داره على دِكَّة أنيقة الفرش وبيده كتابٌ يقرأ فيه، سلَّم عليه وجلس معه برهةً عرف خلالها ابنُ سينا، أن الرجل الفاضل يقرأ في مقدمة «فورفوريوس الصوري» المنطقية، المعروفة بعنوان «إيساغوجي» وناقشه في بعض مباحثه، ثم.. استأذن منه معتذرًا إليه بأنه ذاهبٌ لمعالجة جارتهم سندس.. ضحك الرجلُ الخوارزميُّ، المحبُّ للعلوم، والحياة، وهو يقول لابن سينا بعد حوقلةٍ متعجِّبةٍ: سُندس مريضة! لعل الله يشفيها على يديك..

فتحت له باب الدار خادمةٌ مسنة، سارت أمامه عبر الرحبة التي رآها سابقًا، ليلة اصطحب أباه لتأديه واجب العزاء. الأماكنُ في الأمسيات تختلف شكلًا عن هيئتها في ضوء النهار. قد بدا له البيتُ المكوَّن من طابقين، أجمل، والرحبة أرحب وأبهى منظرًا. صعدت به الخادمة إلى الطابق الأعلى، وطرقت باب الحجرة الواسعة مع أنه كان مفتوحًا، وانصرفت فور دخوله.. الحجرةُ فسيحة، شحيحة الضوء لأن نافذتيها مغلقتان، قالت الجالسة على سريرها بصوتٍ خفيض: أهلًا بصانع المعجزات، تفضل هنا على طرف السرير، أو اجلس على هذا الكرسي القريب، آه، أنا سعيدةٌ جدًّا لأنك أخيرًا جئت.

وهو يجلس على الكرسي خافضًا عنها عينيه، قال ابنُ سينا بصوتٍ خجول: أنا لم أستدع يا سيدتي إلا اليوم، ولست بصانعٍ للمعجزات فهذا شأن الأنبياء رضوان الله عليهم، وقد انقضى زمانهم. ما الذي تشتكين منه؟ قالت بغُنَّةٍ لا تخلو من دلالٍ، أو إنهاك مُصطنع: إذا نظرت نحوي فسوف تعرف.

رفع ناظريه إليها، فرأى ما لم يكن قد عرفه من قبل، ولا خطر على قلبه: نداء الأنوثة.. عيناها الواسعتان المؤطَّرتان برموشٍ كثيفة، تتطلعان نحوه بنظرةٍ كسلى، كأن النوم يخامرها أو كأنها سكرى. ارتبك. شعرها الغزيرُ الأسود المنسدلة خصلاتُه الحرةُ تحت ستر رأسها الشفاف، بديعُ اللمعان، وفيه من التجعُّد الفاتن ما يسحر العين ويحيِّر النظر. ارتبك أكثر. تحت أنفها الدقيق شفتان ممتلئتان بينهما انفراجةٌ طفيفة، تشي بشيءٍ غامضٍ، سحري الاشتهاء. لم يجد ما يدل على سبب استدعائها له، لا في بشرتها المائلة لاسمرارٍ ناصع، ولا في احورار عينها التي رقَّ جفنُها واستدارت حدقتها.. لا شيء يوحي بأيِّ اعتلالٍ في صحة البدن.

ـ ألن تمسك بيدي، لتجسَّ نبضي؟

ـ هل يمكنني فتح هذه النافذة؟ فالضوء هنا قليل.

ـ يمكنك يا حسين..

ليُخفي ارتباكه، قام ابن سينا إلى النافذة ورفع المزلاج الصغير الذي بين الضلفتين، ولما فتحها ليُدخل نور النهار، ازداد ارتباكه وصار اندهاشًا. فقد رأى منزله قريب المبنى، لا يبعد إلا بمقدار أذرع معدودات. هذه غرفة الأعشاب والأدوية، وتلك الناحية المقابلة حيث يوجد الفرن! وبين المنزلين، من أسفل، الحجرة الخلفية التي كان «الناتلي» يسكن فيها. عجيب. كأن المنزلين منزلًا واحدًا، في وسطه هذا الجدار! كيف لم يلاحظ ذلك من قبل؟ وأين ذهبت فروع الأشجار الكثيفة، التي كان يلمحها أحيانًا من النافذة التي بغرفة العقاقير والمفردات.. لسببٍ غير جليٍّ وبتلقائية المرتبك، ضمَّ ثانيةً ضلفتَي النافذة، وكأنه أدرك أن الانغلاق أفضل. وجاءه من الخلف صوتها، كأنها رأت

السؤال الذي خطر بباله، قالت مستبشرة الصوت ومترفِّقة: أمس، طلبت من «سلمان الشجري» أن يخصف الفروع والأغصان التي كانت تحجب عن شباكي ضياء الشمس، وتفصل بيننا..

ـ نعم، كانت كثيفة جدًّا.

عاد لكرسيه، فكانت «سندس» قد اعتدلت عن استلقائها المتمارض، وجلست عند طرف السرير قريبة من الكرسي، كأنها تستعد لجسِّ النبض. ثوبها الرديني الأبيض فضفاضٌ، قصيرُ الكُمين، وجيبه الواسع يكشف عن رقبتها القوية الملساء وصدرها الممتلئ الرجراج.. سألها مجددًا، وعلى وجهه يفتضح الاضطراب: ما الذي تشتكين منه؟

ـ موجوعة.. جدًّا.. ولا أنام منذ عدة أيام.

ـ لا بأس عليك، سنرى.

ـ انظر إلى عينيَّ، ترى كل شيء.

تردد ابنُ سينا لحظة، ثم استدار بوجهه نحوها ونظر إليها بعينين تتَّسعان، تندهشان، تفيضان حيرة. فكانت عيناها الحالمتان، تتطلعان إليه بعشقٍ واشتياق. من غير كلام، قالت تلك النظرات التي دامت هنيهةً عميقة، ما لا يمكن التعبير عنه إلا إشارةً وتلميحًا.. حين التقت النظراتُ، ظهرت المخبوءاتُ: التوقُ، الاتقاء، الاشتياق المشوب بالقلق، الحد الرهيف الفاصل بين التحفُّظ والتهتُّك، ذكورةُ شابٍّ يعيش بين الكتب، وأنوثةُ امرأةٍ مكتملةٍ وكتابها مفتوحٌ.. سريرته التي انكشفت، وكنوزها المرحِّبة بالاستباحة.. عطشٌ، وجوعٌ، وجنةٌ قطوفها دنت وتدلَّت حتى سهُل تناولُها، والتماسُّ، والملامسة.

كاد يمد يده إليها كي يتحسَّس نبضها، أو يحتضنها ليسمع همس قلبها، ويُبرئ سُقم روحها. كاد، لولا أن الخادمة جاءت تطرق الباب المفتوح، وهي تقول بأنفاسٍ تلهث: يا سيدي الطبيب، أربعةُ رجالٍ ينتظرونك عند الباب ويستعجلون نزولك إليهم، منهم أبوك.. هبَّ ابن سينا واقفًا على أقدام الوجل المفاجئ، وقال للمتمارضة المحيِّرة المشتهاة، وهو يتلعثم: أبي، ماذا جرى؟ عفوًا، سأنزل إليهم لأرى ما الخبر، وسوف أعود إليكِ لاحقًا.

ازدادت عيناه اتساعًا من فرط الدهشة حين وجد لدى الباب أباه، وأبا سهل المسيحي، واثنين من الحرس الأميري بالزيِّ الرسمي. قال، قلقًا: ماذا حدث يا أبي، إن شاء الله يكون خيرًا؟ واطمأن قليلًا حين ظهرت ابتسامةٌ على وجه أبيه، ولم يجد في وجه «أبي سهل» ما يستوجب الفزع.

أخذاه وسارا به في الشارع الطويل خطوات، وعرف منهما الخبر حين قصَّا عليه القصص. قالا ما ملخصه: الأمير نوح بن منصور اشتدت عليه علَّته، واتصلت آلامه، فنقم على أطبائه وزعق فيهم ليجدوا شفاءً لمرضه، ومسكنًا لأوجاع الوخز الذي ما عاد يُحتمل بباطنه. وكان كبير الأطباء «الحسن بن نوح القُمري» قد تباحث في الصباح مع «أبي سهل» في الاستعانة بابن سينا لمداواة الأمير. فلما اشتد الغضبُ بالأمير استأذنه «القُمري» في استحضار الطبيب الشاب البارع، للمشاركة في علاجه، فأذن بذلك له. ونظرًا لسوء حالة الأمير، لم يضيِّع «أبو سهل» الوقت وأسرع إلى منزل ابن سينا، وخرج «عبد الله» معه ليبحثا عنه. وقد ظنَّا أولًا أنهما سوف يجدانه في سوق الورَّاقين، وكادا يذهبان للبحث عنه هناك، لولا أن «أبا بكر البرقي» أخبرهما بأن ابن سينا كان يجالسه قبل سويعة، ثم ذهب إلى

منزل المرحوم «خليل الخيوقي» لأن مريضًا هناك يحتاج إليه..

ـ الآن فهمت، ولكن لماذا جاء معكما هذان الحارسان؟

ـ دعك من ذلك، علينا الآن الذهاب فورًا إلى القصر. قبل أن يصحو الأمير، من غفوة القيلولة..

ـ طيب.. وهل سألتقي هناك بالشيخ القُمري؟

ـ نعم، هو ينتظرك. ويريد أن يتحدث معك قليلًا، قبل أن يُدخلك على الأمير.

كان ابن سينا يصبو إلى رؤية الطبيب الفاضل «الحسن بن نوح القمري» الذي طالما رأى في دكاكين الوراقين، كتابيه الشهيرين في الطب: «غِنى ومُنى» و«التنوير في اصطلاح الأطباء».. لكن سُكنى هذا الشيخ الجليل بالقصر الأميري، وعمره المتقدِّم الذي بلغ قرابة الثمانين عامًا أو أكثر، كانا يحولان دون اللقاء الذي يرجوه.. وها قد حان الأوان فجأة.

فخورًا بابنه، سار معهم «عبد الله» حتى اقتربوا من سور القصر، وهناك قال لابنه: سأعود إلى البيت يا «حسين» كي أُطمئن أُمك، وفَّقك الله يا ولدي وأيَّدك بروح منه.. واستدار عائدًا، وهو يتلو أدعيةً وصلواتٍ مهموسة، وحين ابتعد وانفرد مسح بباطن كفِّه ما انسال من دموعٍ على لحيته، وحمد الله على نعمائه.

استكمل ابن سينا المسير وبجواره «أبو سهل» وخلفهما الحارسان، حتى دخلوا القصر من بوابته الشرقية وعرجا في حديقته يسارًا، فوصلا إلى مقر إقامة «القُمري» الذي كان ينتظرهما في حجرة مجلسه، الفسيحة. أسرع إليه ابن سينا مسلِّمًا، وقبَّل يده تقديرًا وتبجيلًا، بينما «القُمري» يحدِّق فيه بعينٍ لامعة، غوَّاصةٍ كالمثقاب، لا تتناسب قوتها مع وجهه النحيل وجسمه الهزيل. ثم بدت عليه علامات الارتياح وهو يقول للطبيب الشاب: أرى فيك علامات النجابة، وقد بلغني عنك خيرُ الأخبار، اجلسْ هنا إلى جانبي وسأخبرك بما يعاني منه الأمير، وبما لم ينفعه من الدواء.

استمع ابن سينا بإنصاتٍ وعناية وكانت عيناه ترنوان بتركيزٍ كثيفٍ، حتى انتهى «القُمري» من شرح أحوال الأمير وأعراض مرضه وعُسر مداواته، ثم استفسر منه عن عدة أُمورٍ تبدو فرعية، حتى اكتمل في ذهنه التصوُّر التام للداء والدواء. وعندئذٍ نظر نحو «أبي سهل» ثم إلى «القُمري» وقال لهما بلسانٍ واثق: أرى أن الأمير يعاني من قُرحٍ قوية بالمعدة وبالمريء، ولهذا يتسخَّن صدره ويقيء الدم مع الكيموس؛ ويعاني أيضًا من سحجٍ شديد في المعى الغلاظ، ولهذا يشكو من آلام جنبه ويتغوَّط دمًا أسود. والراجح عندي أن السبب في العلَّتين واحدٌ، وهو مأكول الأمير، والأشربة القوية التي تمنع بشدة إسكارها وتخديرها، من إحساسه بالأوجاع قبل النوم. لكن الألم سرعان ما يظهر خلال نومه، وفي ساعات النهار، مع غياب ما يمنع الشعور به. وتعرفان بالطبع، وأنتما من أجلاء الزمان، أنه إذا اجتمعت على المريض علتانِ أو أكثر، فلا بد من المبادرة إلى علاج المرض الأخطر والأشد إيلامًا، ثم التأتِّي بلطفٍ إلى علاج الأقل إيلامًا وخطرًا على حياة المريض. وأظن أن مداواة الأمير وعلاجه بالعقاقير القوية والترياقات المتعارضة في قواها وفي أفعالها، للتعجيل بشفائه، هي السبب في سوء حالته وعدم استفادته من فعل الأدوية. والأصوب فيما أرى، أن يُدبَّر مأكول الأمير وشرابه بشكلٍ لطيف، بل بالغ اللطف، كتمهيدٍ ضروريٍّ لمداواته. ثم يُبتدأ بعلاج المعدة والمريء حتى يتماثلا للشفاء، ويعالج بعد ذلك بعلاجات القولنج.. وقد قلتُ لكما ما أجده سبيلًا لبرء الأمير، ويمكنكما القيام بذلك من دون حاجةٍ إليَّ.

ـ لن يقوم بعلاجه غيرك يا فتى، وفَّقك الله.

قال «القُمري» عبارته هذه بنبرةٍ هادئة، وحاسمة، ثم تهيَّأ للقيام فنهض ابن سينا من فوره ووقف منتظرًا ما سوف يكون. أمسك «القُمري» عصاه بيمناه، وتوكأ على ذراع «ابن سينا» باليسرى، وسار به وخلفهما «أبو سهل» فعبروا الجانب الشرقي من حديقة القصر متوجِّهين إلى المقر الأميري الأنيق بناؤه، ودخلوا قاعته الفخمة. في طريقهما إلى هناك، كان «القُمري» يهمس لابن سينا بوصايا كثيرة من نوع: لا ترتعْ من حضرة الأمير فيضطرب ذهنك، واعلمْ أنه بالنسبة إليك مريضٌ يحتاج عونك ومعرفتك. ولا ترد عليه بكلام إلا بعد أن يسمح لك بذلك، ولا تتطلع إليه حين تكلِّمه، واخفض عنه نظرك تأدبًا. وإذا انزعج وعلا صوته فاصمتْ تمامًا، ولا ترتبك. وإذا تبسَّط معك في الكلام، فلا تنبسط، والتزم حدود الأدب الواجب في حضرته. وإذا خيَّرك بين أمرين، فلا تبادر بالاختيار وقل له: لك يا مولاي الاختيار.. ادخل من هنا.. ها هو الأمير الموقَّر.

للأمير «نوح بن منصور» هيبةٌ لم تُذهبها أوجاعه، وفي نظرته حدة وصرامةٌ لم تقلل منهما جلسته المائلة، واستناده بكوعه على قائم كرسيه.. بإيجازٍ مقلقٍ قال الأميرُ لابن سينا: هل تعرف لي علاجًا أيها الشاب؟ فخفض ابن سينا نظره وصوته وهو يقول، متخيِّرًا بحرصٍ مفرداته: يا مولاي، أحتاج حِلمك وحكمتك حتى أصارحك بصحيح القول. وأرجو صبرك، فأنا يا مولاي الأمير لا خبرة لي بالكلام إلى الحكام والملوك، فهل تأذن لي بمصارحتك.

ـ أذنتُ.

ـ الشكر لك والفضل يا مولاي..

برفقٍ بالغ، أخبر ابن سينا الأمير بأنه لن يبرأ من أوجاع علَّته، ما دام غذاؤه وشرابه يضاد بفعله أثر الدواء.. كان يتكلَّم متمهلًا، ولمّا وجد الأمير يصغي باهتمامٍ إليه، أضاف: والتدبير الغذائي المناسب لك، يا مولاي المعظَّم، هو أول الخطى نحو شفائك بإذن الله. فإذا صبرتَ معي أسبوعًا واحدًا، فسوف تتحسَّن أحوالك وتتماثل للشفاء. ولو أذنت فسوف أُشرف على إعداد طعامك ومشروبك خلال الأيام القادمة، وأراقب عمل الطباخين. وسوف أعطيك بعد قليل مسحوقًا لطيفًا، يُريح باطنك، ويجعلك تعاف الأشربة القوية إلى حين. وثمة أمرٌ آخر يا مولاي قد يعين على الشفاء ويعجِّل به، لو أذنت لي بقوله..

ـ أذنتُ..

ـ ليكن في مجلسك المسائي يا مولاي، طربٌ وغناء يهوِّن عليك حسرة الانقطاع عن أكل الدسومات، ويشغلك عن شرب العتيق من الأشربة..

ـ لا بأس، نفعل ذلك. فهل تريد الإقامة بالقصر خلال هذا الأسبوع، أم تذهب لمنزلك ليلًا وتعود في الصباح الباكر؟

ـ الاختيار لك يا مولاي، وعليَّ الطاعة.

ـ هاه.. يظهر أن «عبد الله بن سينا» أحسن تأديبك وتعليمك. حسنًا ستبقى هنا في القصر، وكن دومًا بالقرب مني، ولن أتناول شيئًا إلا بعد مشورتك. وسوف يأتمر الطباخون وخدم المجلس بمشورتك، فاشرع فورًا فيما تراه معينًا على الشفاء.

ـ حاضر يا مولاي، سأذهب أولًا إلى مطبخ القصر، ثم إلى مخزن الأدوية، وأعود بسرعة. وستجدني دومًا، على مقربة منك يا مولاي.

ـ اذهب وعُد بسلام، وليفعل بنا الله من بعد ذلك ما يشاء.

أسرع «أبو سهل» بابن سينا إلى المبنى القبلي بالقصر، حيث المطبخ العامر بالروائح القوية والقدور النحاسية الكبار، فجلس ابن سينا دقائق مع رئيس الطباخين والجاشنكير، وشدَّد عليهما في عدم إطعام الأمير المطجنات والمعجنات، وكل ما يعسر هضمه، وذكر ما يجب أن يقدَّم إليه في الوجبات. وكان الأمير قد اعتاد على وجبتين فقط في اليوم والليلة، فجعلها ابن سينا أربعةً متنوعةً، سهلة الهضم، ولها خواص المسهلات. واستبعد بالكلية المخللات والكوامخ والأطعمة الحارَّة.. بعد ذلك ذهب ابن سينا إلى مخزن الأدوية، فأعد مسحوقًا ناعمًا من المفردات المفتحة للمسام والمفرِّحة للقلب والمعينة على التنفُّس، كالفوتنج والنعنع، وما وجده حاضرًا من المفردات الدوائية العطرية. وبالغ في سحقها ونخلها، ثم أذابها في ماء الورد، وعاد بالقنينة إلى الأمير وطلب منه أن يتناول من هذا الدواء ملعقتين، ففعل ذلك أمامه ثم صرفه بعدما نبَّه عليه بالعودة إلى القاعة بعد ساعة.

سأل ابنُ سينا «أبا سهل» إن كان من الممكن قضاء هذه الساعة مع «القُمري» وابتهج حين أجابه بأن الآن، هو موعد الدرس الأسبوعي والمجلس الذي يعقده «القُمري» لأطباء البيمارستان. ذهبا فجلسا إلى جوار التلامذة حتى انقضت الساعةُ التي كان «القمري» خلالها يرمق ابن سينا بنظرات الرضا والاستبشار، ويبتسم راضيًا وهو يلقي على تلاميذه درسًا في كيفية عمل المرقِّد.. في الموعد، خرجا من المجلس العلمي إلى المجلس الأميري، وفي الطريق إلى هناك اشتكى ابن سينا لأبي سهل من أنه كان يتعيَّن عليه مساء اليوم، بزل السوائل من بطن المجوسي المستسقى، وأنه لم يتم فحص الأرملة التي انتزعوه من منزلها. فوعده «أبو سهل» بأن يذهب في الصباح الباكر لعمل البزل للمستسقى المسكين، ثم سأله مازحًا عن الأرملة: أعجوزٌ هي أ م شابة؟

ـ شابةٌ، وشهية، ومليحة..

ـ هذه علاجها الزواج، وهذا عملٌ لا أستطيعه.

تهلَّل الأمير حين رأى ابن سينا داخلًا القاعة، وصاح: تعالَ إلى هنا أيها الشاب العجيب، وأخبرني ما هذا الدواء السحري الذي سهل عليَّ أنفاسي، وأذهب حرقة صدري؟ بأدبٍ جمّ، ردَّ عليه ابن سينا وهو يبتسم: هو دواءٌ بسيط التركيب يا مولاي، والأهم منه انقطاعك عن طعامك المعتاد وخمرك، فقط الليلة والليلات القليلات الآتيات، يعني لمدة أسبوعٍ، حتى يتم شفاؤك بإذن الله.. ضحك الأميرُ بارتياح واستدنى إليه ابن سينا وهمس له، بحيث لا يسمع الرجالُ الأربعة الموجودين قوله: حسنًا، إن كانت الليلة بلا خمر، فماذا عن النساء يا طبيب؟

ـ بالعكس، هذا مطلوبٌ ومفيد. فالإكثار من المجامعة يا مولاي نافع لك، خصوصًا مع المشتهاة من عذارى الجواري. وعليك يا مولاي تطويل مدة المجامعة بقدر المستطاع، فإن ذلك يحرِّك قوى البدن ويدفع عنه الخمول. ولكن لا تفعل ذلك عقيب الأكل، واجعله بعد تناولك الطعام بساعةٍ على الأقل.

ـ ها ها، أنت نابهٌ فعلًا يا ابن عبد الله بن سينا، وحكيمٌ صغيرُ السن. طيب. هل تنضم إلى مجلس الغناء؟ أم تريد الليلة أن ترتاح في بيت الضيافة. آه، أعرف. سوف تقول «الاختيار لك يا مولاي». فقد لقَّنوك. حسنًا، استرح الليلة وأراك صباحًا لتفطر معي، أنا أصحو مبكرًا مع الشمس.

ـ حاضر يا مولاي، حاضر. سأكون بانتظارك عقب صلاة الفجر. وإذا أردت أن تطيل نومك يا مولاي فافعل، فهذا مفيدٌ.

***

أقام ابن سينا في القصر الأميري ثمانية أيام متوالية، تحسَّنت فيها صحةُ الأمير رويدًا، حتى تماثل للبُرء تمامًا من علَّته، وفارقته الأوجاع. كان ذلك في منتصفِ شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، الموافق بالفعل للربيع بمباهجه الطبيعية واعتدال هوائه. وخلال تلك الأيام المفعمة بالعمل والأمل، تقرَّب ابن سينا من الأمير «نوح» ومن «القُمري» الذي جالسه في الأمسيات وحضر مجالس تعليمه، واستفاد من التباحث معه دقائق المعارف الطبية والصيدلانية.. ومن رجال القصر وصديقه أبي سهل، تعرَّف ابن سينا في أقصر وقتٍ على كثيرٍ من أمور السياسة، فمن ذلك أن الأمير «نوح بن منصور» كان يستعمل مماليكه الأتراك لحكم النواحي التابعة لبخارى، ومن هؤلاء المماليك رجل اسمه «ألب تكين» الذي استعان بدوره بمملوك تركي آخر اسمه «سُبُك تكين» وتعاقبا على حكم النواحي الجنوبية المسماة «خراسان» وبعضهم يسميها «أفغانستان» لأنها بلاد قبائل البشتون الأفغانية. وهي بلاد واسعة، وفيها من المدن العامرة كثيرٌ من البلدات الكبيرات العامرات، مثل «غزنة» التي جعلها «سُبُك تكين» عاصمة له، وكابول وهراة وقندهار وبيشاور. وبلدة «بلخ» التي جاء منها أبوه «عبد الله» في شبابه، وتولى من الوظائف الأميرية ما يتعلق بتحصيل أموال الخراج والجزية والمكوس المفروضة على التجارات والصنائع.. وعرف ابن سينا في أروقة القصر، أن بقاء الأمير «نوح» صحيحًا مُعافى هو الضامن لبقاء الدولة السامانية العريقة، فهو الذي يحفظها من أطماع المماليك الذين صاروا ملوكًا.. وعرف أن المعرفة، والمعارف، قوة.

وعندما اطمأن الأميرُ إلى شفائه بفضل مداواة «ابن سينا» وتدبيره الغذائي، استدعاه في ثامن أيام إقامته بالقصر وأخبره بأن بإمكانه العودة لمنزله إذا أراد، شريطة أن يأتي للقصر ساعتين كل صباح. وطلب منه ألا يبتعد عن بخارى من دون إذن، ليكون حاضرًا وقتما يُحتاج إليه.. ثم قال له الأميرُ وهو يبتسم: والآن أخبرني، كيف أكافئك؟ فردَّ عليه ابن سينا، متأدِّبًا: رضاك يا مولاي هو المكافأة الكبرى، فإن تفضلت بعد ذلك بزيادةٍ من كرمك، فاسمح لي بدخول المكتبة الملحقة بالقصر لأستفيد من كتبها وأفيد الناس.. فسمح له الأميرُ بذلك، وزاد عليه أموالًا وعطايا سخية، عاد بها ابن سينا إلى منزله راضي النفس.

عن مكتبة القصر هذه، كتب ابن سينا لاحقًا في الوريقات التي قصَّ فيها ملخص وقائع حياته، ما نصُّه: سألتُ الأمير الإذن لي في دخول دار كتبهم وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي، فدخلتُ دارًا ذات بيوتٍ كثيرة، في كل بيتٍ صناديق كتبٍ منضدَّة بعضها فوق بعض. في بيتٍ منها كُتبُ العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيتٍ كتبُ علمٍ مُفرد. فطالعتُ فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه منها. ورأيتُ من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثيرٍ من الناس قط، وما كنتُ قد رأيته من قبل، ولا رأيته أيضًا من بعد. فقرأتُ تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجلٍ في علمه. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري، فرغتُ من هذه العلوم كلها. وكنتُ إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج. وإلا، فالعلم واحدٌ لم يتجدَّد لي بعده شيء.

***

فرحتْ أسرُة ابن سينا برجوعه من القصر إلى المنزل، سالمًا غانمًا، وحصوله المبكر على وظيفة طبيب القصر الأميري. أبوه شكر السماء، وبكت أمه من فرط الفرح به واحتضنته بقوة وهي تقول متباهيةً: ابني طبيبُ الأمراء. فقال لها مداعبًا عبارته المعتادة: هذا من فيض دعائك لي يا أبهى «ستاره» في السماء.. مشيرًا بذلك إلى أن معنى اسمها

نجمة.

وأولم أبوه في اليوم التالي لعودته ودعا الجيران، وذبح خمسة خراف أرسل لحومها إلى المساكين الساكنين بحواف بخارى وأحيائها الفقيرة. واكتفى أخوه «عليّ» البالغ من العمر آنذاك خمسة عشر عامًا، بالتفاخر الصبياني بين عيال الجيران، وترديد عبارة: أنا أخو طبيب الأمير.

قبيل انتصاف الليل، وبعد انتهاء الوليمة ذهب المدعوون وانفرد «ابن سينا» الشاب بأبيه واقترح عليه فكرةً تلح على خاطره. قال: ترى يا أبي أن هذه الحروب التي تدور رحاها كل حين حول بلادنا، قد خلَّفت أعدادًا كبيرة من الأسرى الذين اقتيد كثيرٌ منهم إلى بخارى، ليُباعوا عبيدًا وإماءً، وقد أدَّت وفرةُ عددهم لرخص أثمانهم. حتى صار الواحد منهم يباع بالمائة درهم، وبالخمسين، وأحيانًا أقل من ذلك. وهذا المال الذي أعطانيه الأمير، أريد أن أشتري بنصفه عبيدًا وإماءً، وأعتقهم. قُربى إلى الله، وحمدًا على نعمته، وتوسُّلًا إلى رضاه بالإحسان إلى المساكين من خلقه.

ـ يا حسين، ليس ذلك هو السبيل. العبيد بؤساء، لكنهم يحتاجون قبل الحرية بيتًا يأويهم، وإلا فماذا سيفعلون إذا استردوا رقوقهم، وهم بلا مأوى ولا عمل؟ سوف يلحقون من فورهم بأراذل الناس، ويصيرون من المجرمين.

ـ يمكنهم العودة إلى بلادهم، سأعطيهم نفقات الرحلة.

ـ بلادهم صيرتها الحرب خرابًا يا ولدي، وسوف يقعون مجددًا في الأسر حين يتخطفهم قُطاع الطرق.

ـ فما العمل يا أبي؟

ـ اصبر يا حسين حتى يكون لك بيتٌ، تقتني فيه من المماليك عبيدًا وإماءً حسبما تشاء وتقدر، وأحسن معاملتهم ابتغاء مرضاة الله. وراقب مع مرور الأيام أحوالهم، فمن آنست منه رشدًا وكانت له صنعة يتكسَّب منها، صحّ لك أن تتقرب إلى الله بعتق رقبته. ولا شك يا ولدي في أن هؤلاء، فيهم أبرياء ومساكين يستحقون العطف والشفقة، لكن فيهم أيضًا الذين وصفهم أحد الشعراء بقوله: لا تشتري العبد إلا والعصا معه، إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد.. فاحذرْ من هؤلاء يا حسين.

ـ من هو هذا الشاعر، القاسي، يا أبي؟

ـ هو شاعرٌ عربيٌّ معروف في البلاد الغربية، الشام ومصر، وهو بليغ جدًّا.. يلقِّبونه: المتنبِّي..

ـ لقبٌ جريء، وفيه فجورٌ..

ما كان الأبُ والابن يدريان وهما يتسامران في تلك الليلة، أن نصيحة «عبد الله بن سينا» لابنه الذي سوف يصير بعد حين «الشيخ الرئيس» ستكون ملمحًا مهمًّا في شكل حياته المقبلة، وأن التحذير الأخير من عبيد السوء، كان في محله. ولكن لا يُغني حذرٌ من قدر. فبعد قرابة أربعين سنة من تلك الليلة التي جرى فيها هذا الحوار، مرض ابن سينا فداوى نفسه بدواءٍ مركب كانوا يسمونه قديمًا «المثروديطوس» فقام بعضُ العبيد من غلمانه بدسِّ كمية كبيرة من «الأفيون» فيه، وناولوه إياه فأكله، فتدهورت أحواله الصحية بشكل مريع. وكان هؤلاء العبيد الأنجاس المناكيد، قد سرقوا من خزينة ابن سينا فأرادوا موته حتى لا ينكشف أمرهم. ومع سوء حالة «الشيخ الرئيس» أيامها، وتحديدًا في صيف العام الثامن بعد العشرين وأربعمائة للهجرة، وحسبما شهد بذلك تلميذه وصديقه «الجوزجاني» فإن ابن سينا لم يعد يهتم بمداواة نفسه، كأنه كان يريد أن يموت. ولم يكن يتحفَّظ ويراعي ما يستوجبه

حال المرض، وإنما راح يسرف في مجامعة النساء.. مسكين.. ربما كان في الختام يريد أن يستعيد ذاك الشعور بالتلاشي التام، والتوحُّد مع الكون، ويستحضر ذاك الشعور النادر الذي عاشه وعاينه أيام الصفو، مع ماهتاب.. ومات ابن سينا على يد «الأنجاس المناكيد» وهو في أواسط الخمسينيات من عمره، وكانت وفاته في أول أيام شهر رمضان، الذي يؤقته المسلمون في سنواتٍ صيفًا وفي سنواتٍ أخرى في غير الصيف.

وبطبيعة الحال، ما كان يخطر على بال الأب أو الابن في تلك الليلة الربيعية الرائقة، ما سوف يحدث ببخارى بعد شهور قلائل. وهل يعلم الغيب إلا الله؟ فقد سارت الأسابيع التالية حسبما رام «ابن سينا» وأراد؛ ففي الصباح يذهب إلى القصر ساعتين أو ثلاثة مستمتعًا بصحبة أستاذيه؛ القمري وأبي سهل، ثم يمضي معظم نهاره في المكتبة. وقبل عودته إلى منزله يعود مرضاه الفقراء ويعالج الناس احتسابًا مثلما كان يفعل قبل ذيوع صيته ببخارى وما يلحق بها من أنحاء مملكة السامانيين الواسعة.

في منتصف شهر ربيع الآخر، أخبرت «ستاره» ابنها عند عودته مساءً بأن إحدى الخادمات، جاءت عصرًا برسالةٍ تركتها مع أحد الخدم وانصرفت.. نظر «ابن سينا» في الرقعة، وسرح بنظره حين وجد فيها عبارة واحدة مكتوبة بالعربية الفصيحة: المريضةُ تتوجع، والطبيبُ لم يرجع.

ـ ماذا في الرسالة يا حسين؟

ـ لا شيء يا أمي، أحدهم مريضٌ ويستدعيني إليه للعلاج.

ـ من هو هذا المريض؟

ـ أنا جوعان يا أجمل النجمات، ولم أتناول شيئًا طيلة نهاري، فماذا لديكِ لإطعامي؟

ـ المنتو، الذي تحبه.. سأحضره حالًا إليك.

في الصباح الباكر، صعد ابن سينا إلى غرفة الأدوية بأعلى منزله، وفتح الشباك المطل على شباك «سندس» وسرعان ما فوجئ بأنها فتحت شباكها. كأنها كانت تتوقع بدقة ما فعله، مع أنه فعله من دون تدبيرٍ أو نيةٍ مُبيَّتةٍ. وهذا عجيب. هي في ثياب نومها الشفافة أشهى، وهو مشتاقٌ، ولا يعرف عن النساء إلا ما قرأه في الكتبِ. والكتبُ لا تقول عن النساء، إلا ما يتوَّهمه الرجال، فهم الذين يكتبون.. حدَّق نحوها بنظرات الذهول ونظرت إليه بأحداق حالمة، ثم أشارت إليه بشيءٍ حين رفعت إلى وجهها كفيها، ومدَّت إلى عينيها إصبعيها وانزلقت بهما على خديها، بما يُفهم منه أنها حزينةٌ بسبب إهماله لها، وأنها تبكي لغيابه عنها. فأشار إليها بما يعني أنه سيزورها عصرًا، فحركت يدها كأنها تقول: لا، تعالَ إليّ في المساء، حين تهدأ حركة الناس.. فهزَّ رأسه موافقًا.

خلف أستار المساء سار ابن سينا متسللًا إلى بيتها، خائفًا يتلفَّت، وراجيًا ألا يجد «البرقي» جالسًا أمام منزله. تحقَّق رجاؤه، وحين فتحت له بابها بنفسها وتوارت خلف مصراعه حتى دخل، بدا له من نظرتها طرفٌ مما سيكون بينهما.. أغلقت الرتاج وسارت أمامه دون أي كلمة، من أيٍّ منهما.. اهتزازةُ ردفيها ترتج كأنها زئبقٌ في جرابٍ جلديٍّ، رقيق، يلعب به صبيٌّ. وخصلات شعرها المهفهفة فوق كتفيها، وخلف ظهرها شبه المكشوف، بدت له كأنها أوتار عودٍ اشتد عليها العزف. وعطرها الذي يأسره بقيدٍ غير مرئيٍّ يذهله عنه، فيصعد خلفها إلى غرفتها بالطابق الأعلى كأنه مسحورٌ، مسلوبٌ، مسحوب.. وهي تصعد السلم أمامه، بدرجةٍ واحدة، وببطءٍ، شفَّ رداؤها

مع ضوء القنديل المعلق على جدران السلم الحجري، وكشف عن إتقان قوامها وقوته. لا قدرة له على مقاومة إغوائها، بعدما وشى بجسمها رداؤها الحريري الهفهاف الشفاف، المفرد، فلا فوقه شيء، ولا تحته شيء، إلا هذه الفضة الذائبة التي تذيبُ الإرادة، وتُذهبُ العزائم، وتستبقي الميل الذي لا يعقبه اعتدال.

دخلت به الغرفة فكانت معتمةً، إلا من بعض ضياء القمر الآتية بخجلٍ عبر النافذة المفتوحة، لتفترش شريطًا فضيًّا ينام تحت النافذة. ضوء القمر فضيٌّ مثل ثوبها الحريريِّ، ومثل جسمها الناعم اللامعة ثناياه العطرة.. عند السرير أمسكت ثيابه بأطراف أصابعها، وجذبتها لأعلى حتى خلعتها عنه. مسَّته، فذاب، فافترشته وهي تهمس في أُذنه: هذا ما كنت أحلم به طيلة عمري، أنت حلمي الوحيد..

غاص ابنُ سينا بصباه وصَبْوته في رمال صحرائها، المتحركة، وفي حضنها سكن لحظة ثم ارتجف وسالت سماؤه بكل كواكبها والنجوم والاتساع، فانسكب في غور بئرها ماؤه. أدرك لحظتها معنى قولهم: الوصال العشقي.

ولما استفاق دقيقةً من تلك السكرة الأولى دخل سريعًا إلى سكرته الثانية، وبعد ساعةٍ أخرى من عنفوانٍ آخر، خمدا. ثم كانت السكرة الثالثة وهما مستلقيان، يتهامسان.. قال لها بقلب شابٍّ في الثامنة عشرة من عمره، لم يسبق له أن مسَّ النساء: ما هذا الذي يجري؟! فأجابته بارتياح أرملةٍ مفتونةٍ، في الثامنة والثلاثين من عمرها الذي ضاع سدى: هذا ما كان يجب أن يجري قبل عشرين سنة.

ـ لم أكن قد ولدتُ بعد.. لم أكن موجودًا.

ـ لا، كنت موجودًا بداخلي. فقد خلقتك في خيالي، وحلمتُ، وحبلتُ بك حتى ولدتُك في قلبي. ثم أرضعتك حليب المحبة من رحيق روحي، ثم رأيتك تكبر أمام عيني، حتى صرت كما أنت الآن. أنت لي الآن، ومن قبل أن تولد. آه، كم طال انتظاري لك.

ـ أنتِ تتحدثين كالشعراء.

ـ هئ هئ. لا غرابة في ذلك، فقد كان أبي شاعرًا.

ـ من أبوكِ؟

حكت له «سندس» متهامسةً وهي تستند برأسها على كتفه اليمنى، أنها من بلدة «شاش» الشمالية البعيدة، التي يسميها الأتراكُ «طشقند» وهي مدينة صغيرة تابعة لبخارى. وهناك كان مولدها. لكن أباها وأمها، أصلهما من ناحية «فرغانة» الأبعد إلى جهة الشرق، فقد وفد أبوها وأمها إلى «شاش» من رستاقٍ كبيرٍ من رساتيق «فرغانة» وكان أبوها الطيب كاتبًا للوالي التركي، الذي يدير أمور البلدة.. قالت: وكان أبي يكتب الأشعار بالعربية والفارسية، ويحب أن ينشدها أمامي بصوته الدافئ في الأمسيات، فتحملني أبيات القصيدة إلى سماوات بعيدة.. وفجأة وجدتُ نفسي وحدي يوم مات أبي، وأنا في السادسة عشرة من عمري، وأرادت أمي العودة إلى «فرغانة» لتعيش وسط أهلها. فلما جاء «خليل الخيوقي» للعزاء في أبي، اشتهاني فطلب من أمي أن يتزوجني وأغراها بثروته وبالمهر الكبير الذي سيدفعه. رفضتُ ووافقتْ، وبكيتُ فلم ترقّ لحالي أو ترحم. لم يزعجها أن الرجل كان أشيبَ في الستين من عمره، وأنني في حزني على أبي غارقة وغير مستعدة للزواج. زعمت أمي أن الأحزان تغسلها الأيام، وأن خاطبي يبدو كأنه في الأربعين، وأنه إذا مات فسوف أرثه ثم أجد لي زوجًا يعجبني..

ـ هذا عجيب، ولا يشبه كلام الأمهات.

ـ ربما، لكن هذا ما كان منها، سامحها الله.. وأظن...

ـ تظنين ماذا؟

ـ هي لم تكن تحب أبي. فقد انتزعها دون أن يدري، من عشقٍ كانت تُكنُّه لجارٍ لها في فرغانة، فأرادت العودة إليه أرملةً معها بعض المال..

سكتت سندس لحظة كأنها تتخير الكلمات، وبدا عليها شيءٌ من الضيق وهي تقول: المهم، أنها باعتني لخليل الخيوقي بعد شهرين فقط من وفاة أبي، وبعد أسبوعٍ من زواجي تركتني ورحلت إلى فرغانة.

ـ وكيف كانت حياتك مع المرحوم؟

ـ مرارٌ..

بتلقائيةٍ وقوةٍ واشتياق، ضمَّها ابن سينا إليه بذراعه اليسرى فشعر بها تسيلُ على صدره كالفضة الذائبة، ثم تتصعد كالبخار فتصير سحابًا. جعلته سماءها ثم جعلها كالفارسة، فعاد العنفوانُ وامتدَّ واشتدَّ حتى تعدَّى المدى، وأعقبه الخمودُ المريحُ لروحها المرهقة، وروحه المتوثبة. في هدأة تالية استلقيا واستكملت الحكي، فأخبرته بأنها ما كانت آنذاك متهيئة للزواج، فانصدَّت عن زوجها وزاد من صدِّها له إمعانه في طلب الغرائب وإلحاحه لفعل نوادر المجامعة، وهي التي ما كانت تعرف المعتاد..

ـ ماذا تقصدين بالغرائب والنوادر؟

ـ يعني... دعنا من ذلك الآن، فقد اقترب الصبح، وما ارتويتُ منك بعد.

ـ ولا أنا.. تعالي..

لم يفصلهما إلا صوتُ المؤذن لصلاة الفجر. جاء صداه من بعيدٍ ضعيفًا، لكنه قوي الأثر وآمرٌ بالافتراق. ما كان الشابُّ الذي هام في وهاد العشق بغير حذرٍ، وغاص في اللجة حتى غرق، يريد أن يفارق سريرها. وما أرادت العاشقة التي طال انتظارها، إلا بقاءه بجوارها، وفيها. لكن الضرورة لها أحكامٌ قاهرة سخيفةٌ. بفتورٍ نهضا وارتديا ثيابهما وهما يتأسفان، بسبب اقتراب ظهور النهار الذي لا معنى له. المعاني كلها في الليل. وهما يترنحانِ رافقته إلى خلف بوابة بيتها، ودسَّت نفسها في حضنه لحظةً مديدة، ثم أطلقت سراحه بعدما اتفقا على اللقاء مجددًا بعد يومين، ليلة الأربعاء، وأن يأتي إليها من الباب الجانبي لبيتها. لأنه مفتوحٌ على زقاقٍ مسدودٍ، مهجورٍ من العابرين.

دامت بينهما اللقاءاتُ الليلية، بديعة الإيقاع، فصارا كأنهما في ذهولٍ تامٍّ عما يدور حولهما بالنهار، وغيابٍ، وبلغ بهما الأمر بعد شهرٍ أنهما صارا يختليان بانتظام كل ليلةٍ، ولو لمامًا، ما لم يسمح الحالُ باكتمال الليل والوصال.. وكان أول من انتبه لأحوال الشاب العاشق، هو «أبو سهل» الذي سأل ابن سينا وعيناه تبتسمان: ما الذي حلَّ بك يا حسين، وتخفيه؟ قل، ولا تكذب عليَّ!

ـ ما كنتُ لأكذب عليك، ولا على غيرك.

ـ إذن، حدِّثني بحقيقة الحال. ولا تقلق. فأنت تعرف أنني كتومٌ، وأحفظ الأسرار.

ـ لا شيء يا أبا سهل. غير أنني ذُقت طعم المجامعة، وما كنت أدري من قبل بقوة هذه اللذة، وعنفوانها.

ـ لا يا حسين، هذه لذة العشق لا المجامعة. فإن لذاتُ الحسِّ وحدها، لا يمتد أثرها على هذا النحو البادي عليك. أخبرني، أهي جاريةٌ في بيتكم؟

ـ لا، هي حرة. ولا تسألني أكثر من ذلك، أرجوك.

ـ آهٍ من ذلك. حرةٌ، وعشقٌ حُرٌّ، فلا مجال فعلًا لأي سؤال. ولكن انتبه لنفسك يا حسين فالزمانُ قد يمنح أحيانًا، لكنه في المجمل شحيح. فاحذر.

لم يكن ابن سينا يشعر بأن هناك ما يستوجب الحذر أو الانتباه، فليس في نهاره وساعات الحرمان إلا التفكير في «سندس» وليس في ليالي الوصال إلا النوالُ وإخمادُ النيران، التي لا تلبث أن تتوهَّج مجددًا. وكان الحُسن المتجسِّد كاملًا في ملامح وضحكات وحكايات «سندس» يلهيه. وحلو كلامها وحنو احتضانها، يشغله بالكامل عنه وعما سواه.. حكت له في ليلةٍ، أن زوجها المتوفى كان مهووسًا بالمجامعة، وعنِّينًا! ومن هنا ذاقت معه الأمرَّين شهورًا. في مبتدأ الأمر اخترمها بإصبعه وراح يضحك كالمعتوهين، وهي لا تفهم ما يبهجه، إذ كان يشغلها عن ذلك الوجعُ. ثم راح بعد حينٍ يطلب الغرائب، ويمعن فيها، ومع ذلك لا يُنعظ. ثم طلب منهن أن يتساحقن أمام ناظريه وينهمكن، آملًا أن يُبعث ميته وتدبَّ بأوصاله الحياة، فقمنَ بذلك مرغماتٍ ومظهرات الرضا. لكنه لم ينعظ. وأخيرًا بلغ به جنونه المدى، فقال لزوجته وهي الخوارزمية الحرة ما لا يقال لأرخص العواهر: لا أمل لي إلا أنت يا «سندس» لأنني أحبكِ وأشتهيكِ في خيالي، لكن بدني لا يستجيب، فالحل الوحيد هو أن أجلب إلى فراشكِ أحد العبيد الأقوياء، فيفعل فيكِ أمامي فأهتاج.. لطمته على وجهه، وقامت واقفة ورفسته بقوة فسقط من فوق السرير، وأخذ يئن وينتحب.. فبدا لها كمعتوهٍ.

وكان ذلك هو آخر ما جرى بينهما بعدما مرَّ عامان على زواجهما، ومن يومها صارا مثل عدوين يعيشان في زنزانة واحدة، فلا هي تستطيع ترك هذا البيت الذي اشترته بمهرها، وليس لها مكانٌ غيره تذهب إليه، ولا هو ارتدع وتاب وأناب. بل بالعكس، بقي سادرًا في غيِّه ومحاولًا المستحيل مع الجواري مسلوبات الإرادة، بلا فائدة.. وعبثًا، راح يحاول إحياء ميته حتى لحقت به الأمراض تباعًا، فأمسى مثل الأثر القديم. فلا هو حيٌّ فيُرجى منه خيرًا، ولا ميتٌ فيُنعى ثم ينقطع خبره. كان يسكن منذ ليلة الصفع والرفس والنحيب، في الطابق التحتاني من البيت، وكانت هي تعتصم بالطابق الأعلى، حيث تعتصرها الوحدةُ ويؤرِّقها الحرمانُ. فتجنح بها الأوهامُ والأفكارُ المستحيلة وتتخيَّل لنفسها حبيبًا وهميًّا، نبيلًا، جميلًا، يافعًا يانعًا، كأشجار الربيع.. قالت: وعندما جاءت «ستاره» وأسرتها لتسكن بالجوار، كنتُ قد بلغت غاية اليأس والقنوط والإفراط في الحلم والتمني. وأيامها رأيتك على سطح منزلكم تتطلع إلى السماء كأنك تتحدث معها، فقلت في نفسي: هذا الطفلُ هو ابني الذي لم أُرزق به. ثم قلت: لا، هو رجلٌ صغير وسوف يكبر أمام ناظريَّ ويجري على عيني. ثم قلت: قد اصطنعتك لنفسي يا حسين، يا حبيبي، ولسوف يأتي اليوم المنتظر وتكون لي.. وأتى اليوم، وكنت.

أحسَّ ابن سينا بتحيُّرٍ غير معهود، على كثرة المحيِّرات التي كانت تحوم دومًا برأسه، لكنها كانت مسائل فلسفية ومشكلات علمية ونصوصًا مبهمة، أما ما قالته ليلتها «سندس» فكان محيراتٍ حية، من لحم ودم.. بقي مستغرقًا في أفكارٍ لا قوام لها، ولا ضابط لحركتها، وقبل أذان الفجر خرج من عندها وهام في طرقات بخارى، حتى بلغ

الساحة الوسطى للمدينة حيث تحتشد الناس أيام الاحتفالات. الساحة ساكنةٌ تمامًا، ونفسه، والهواء. بقي هناك جالسًا وحده حتى ارتحل الليلُ مسفرًا عن صباح اليوم الخامس من شهر «رجب» وكان الصيف قد انتصف واشتد الحرُّ، فتردَّد ابن سينا بين العودة لمنزله والذهاب إلى القصر للاطمئنان على صحة الأمير، إذ كان بالأمس متوعكًا. وفي تلك اللحظة، حيث استعلنت الشمس بكامل قُرصها القوي في السماء، سمع ابن سينا صراخًا يأتي من ناحية القصر الأميري، ومالبث أن رأى رجلًا يجري كالمهووسين وهو يصرخ بأعلى صوته: مات الأمير منصور بن نوح، مات الأمير..

***

كانت تلك هي أولى الوفيات، والويلات، التي تتابعت متسارعة في الشهورة التالية على موت أمير بخارى فقد توفي في شهر «شعبان» المملوك الملك «سُبُك تكين» وبدأ تنازع ولديه على الحكم وجرى بين الجيشين قتالٌ مريع، مات فيه كثيرون كي يكون أحد الأخوين ملكًا، فكانت الغلبة لمحمود وهلك أخوه.. ثم مات الحسن بن نوح القُمري، وانطوى بموته علمٌ كثير.

وفي سنة الميتات المفجعة هذه، السابعة والثمانين وثلاثمائة، توفي في فارس الأمير «فخر الدولة بن بويه» وتشظَّت دولته التي كانت تجمع ممالك الري وهمذان وأصفهان وقزوين، واقتسمها أولاده، وسرعان ما تقاتلوا فيما بينهم.. وتوفي «مأمون بن محمد» حاكم خوارزم والجرجانية، فخلفه ابنه «مأمون بن المأمون» الذي كان ضعيفًا، فصاهر أبناء «سُبك تكين» وتزوج أختهم ليحموه، فما وجد الحماية وإنما سوء النهاية.. وكذلك، ساء حالُ حاكم «بخارى» ووارث عرشها عقب وفاة الأمير نوح، وهو ابنه «أبو الحارث منصور» تاسع الحكام السامانيين الذين ملكوا خوارزم وخراسان وما حولهما من بلاد السند وما وراء نهر سيحون، لقرابة قرنين من الزمان. وكان الحاكم الساماني الجديد غير حكيم، وفيه هشاشة، فطمع فيه المماليك الأتراك وقادتهم وقوَّادهم، وحاربه المملوك المالك «أيلك خان» ثم المملوك المالك «بكتوزون» الذي استرضاه الأمير الساماني الضعيف واتقى شره، بأن منحه حكم خراسان. مما أشعل غيظ المملوك المالك محمود بن سُبُك تكين.

وهكذا اضطربت أمور الحكم، فهجمت على البلاد الدواهي العظيمة والحروب الدائرة في معظم النواحي، وانعدم الأمن. حتى إن المسلمين توقفوا عن السفر لأداء فريضة الحج، خشيةً واتقاءً لقطاع الطرق الذين عاثوا بين البلاد.. في تلك الأيام المدلهمة، شعر ابن سينا بأن العالم من حوله يرتجُّ وتتداعى دعائمه، فيتهيَّأ للانهيار التام. ومع ذلك، بقي منهمكًا في تحصيل العلوم والمعارف، كأنه يواجه خراب الدنيا بخلود المعرفة. بل أقبل على الكتابة والتأليف، واستجاب لطلب جاره وصديق أبيه «أبي الحسين العروضي» الذي طلب منه بإلحاح أن يجمع له شتات المنطق والفلسفة وفروع الحكمة في كتاب، فألف له ابن سينا أول أعماله وأسماه باسمه فجعل العنوان «الحكمة العروضية» كما استجاب لطلب جاره الآخر، وجار سندس «أبو بكر البرقي» وهو الرجل الطيب الذي كان يحبه ابن سينا، ووصفه لاحقًا بقوله: كان في جواري رجلٌ خوارزمي المولد، فقيهُ النفس، متوحِّدٌ في الفقه والتفسير والزهد، مائلٌ إلى العلوم الفلسفية، فألَّفتُ له كتابين: الحاصل والمحصول، البر والإثم..

ولم يحتفظ ابن سينا بنسخة من هذه الكتب الثلاثة، فلما اجتاح «محمود بن سُبُك تكين» بخارى، وحدث بأنحائها الهياجُ والنهبُ والتخريبُ، فُقدتْ هذه الكتبُ للأبد.

***

ودخل العام الثامن بعد الثمانين وثلاثمائة على ابن سينا، بوجهٍ كئيبٍ. ففي بدايته وبسبب الاضطراب الذي جرى ببخارى حين قصدها «بكتوزون» بجيشه، فهرب منها أميرها الهش «منصور بن نوح بن منصور» خائفًا على نفسه، جرت بالمدينة العامرة بلايا كان منها حريقٌ شبَّ في مكتبة القصر. ومع أن «ابن سينا» لم يكن هناك حين اندلعت النار، إلا أن حاسديه وكارهي نبوغه وجدوها فرصةً للنيل من الشاب النابه، فاتهموه بإحراق المكتبة! وأشاعوا بين العوام أنه فعل ذلك، ليكون هو الوحيد الذي اطلع على ما فيها من كنوز المعرفة. عقولهم خاوية وخيالهم مريض. في الليل، باحت له «سندس» بأنها قلقةً من انتشار هذه الشائعة، وسألته عن الوسيلة التي سيرد بها على هذا الكلام، فقال لها ابن سينا وهو غاضب: وأين هو الكلام الذي أردُّ عليه، هذا هرجٌ وتهريج، فأنا لم أذهب ناحية المكتبة من قبل حريقها بأيام، ولم أقرأ كل ما فيها لأنفرد بمعرفته. والله يعلم أن احتراق بدني، أهون عندي من حرق كتاب. فكيف يجوز الرد على نباح هؤلاء، وهو محض نباح؟!

لكن الدائرة ضاقت على الشاب النابه، ولولا مؤازرة بعض الفضلاء ببخارى وعلى رأسهم أبو بكر البرقي وأبو سهل المسيحي، لكان الناقمون على عبقرية ابن سينا المبكرة، قد نالوا منه بتلك التهمة المُختلقة التي لا تقنع عاقل. غير أنهم راهنوا على أن أوقات الفوضى، يكون القياد فيها للجهلاء والدهماء، فحاولوا النيل منه بهذا الهرج وتلك البهرجة، واجتهدوا في ذلك.

وكان من كآبة هذه السنة، ما استبد بقلب «سندس» من أماني.. فقد راحت ترجو ابن سينا أن تُنجب منه طفلًا، يعني يتزوجان، فطلب منها المهل حتى يستأذن أباه في الأمر، وأمه. وكان أبوه أيامها يشكو من صداع خفيف يعتريه، وحمى لينة لا تلبث نوباتها أن تظهر على غير المنوال المعروف في الحميات. وقد تبين لاحقًا أن الرجل كان يعاني من مرض «السرسام» الذي كان قدماء الأطباء يسمونه ليثرغس، وهي كلمة يونانية تعني النسيان، لكنها لا تدل في اصطلاحهم على ما يتعارف عليه عامة الناس من كلمة نسيان. وإنما هو علةٌ دماغيةٌ عسرةُ العلاج، خصوصًا في حال الشيخوخة. كانت الأسرة مجتمعة حول طاولة العشاء، يأكلون بتمهل، حين قال ابن سينا لأمه أنه يفكر في الزواج...

ـ الحمد لله أنه هداك لذلك يا حسين. انظر يا ولدي، هناك ثلاث بناتٍ..

ـ أريد أن أتزوج «سندس» جارتنا.

ـ ماذا! هل جرى شيء لعقلك. لماذا؟ هذه الأرملة العجوز في مثل سني، وهي لا تنجب.

ـ هي شابة، وجميلة، وسوف تنجب يا أمي. فلا تتسرعي بالجواب، وفكِّري في الأمر قليلًا.

تدخَّل «عليّ» في الحوار الدائر بقوله: فعلا، سندس جارتنا جميلة وشابة، وهي تبتسم في وجهي دائمًا. قمعته أمه فسكت، وبقي الأب «عبد الله» صامتًا يحدِّق في طبقه ولا يأكل، كأنه لا يسمع أصلًا ما يدور حوله من حديث. بقوة امرأة خوارزمية ترى ولدها في خطر، قالت «ستاره» لزوجها، وهي غاضبة: قل شيئًا يا عبد الله.. فأخذ الرجل يكرِّر كلامها وهو مذهول: قل شيئًا يا عبد الله، قل شيئًا يا عبد الله. فأدركوا أن ذهنه قد اختلط، وأن خللًا قد حدث بدماغه.

قام ابن سينا فأخذ أباه نحو سريره فانقاد معه مستسلمًا، وغطَّاه وهو بعد مذهولٌ، ثم جسَّ نبضه فوجده يضطرب. طمأن ابن سينا أمه بما حضره من كلمات، وخرج من داره قاصدًا «أبا سهل» غير عابئ بالريح الشتوية التي تزمجر ما بين السماء والأرض. استمع له «أبو سهل» بإمعانٍ ثم قال مهوِّنًا: لعلها أعراضٌ عابرة، في الصباح نفحصه معًا وننظر فيما يصلح له، والآن سأحضر لك غطاءً لتبيت هنا الليلة، فليس من الصائب خروجك في هذه الليلة العاصفة، مع انعدام الأمن في الطرقات..

ـ لا يمكنني ذلك. تركت أمي فزعةً، ولا بد من عودتي إليها.

في الصباح، عكف أبو سهل وابن سينا على فحص «عبد الله بن سينا» بتدقيقٍ صبور، فعلما بعد يومين بما ألمَّ به. واستعملا لعلاجه خلال الأسابيع والأشهر التالية، كل ما يعرفانه من فنون العلاج، بالأدوية وبالفصد وبالحقن وبتمريخ الجسم بالأدهان. لكن ذلك كله لم يُجدِ نفعًا، وأخذ المريضُ يذوي رويدًا حتى توفي بعد عامين وبضعة أشهرٍ تدهورت خلالها حالته، حتى صار الموتُ أرحم له من حياةٍ بلا رحيق الحياة. كانت وفاته في مطلع سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة. وفي ابتداء مرضه، وفي واحدةٍ من المرات التي كان يستفيق فيها ويستعيد عقله من غمرات الغياب، قال لابنه: يا حسين، وصيَّتي إليك أخوك، فهو بعد صغير فكن له كالأب، وإن كنت ستتخذ كنيةً لك فاجعلها من أجل خاطري «أبا علي»، انظر يا ولدي كم هو جميل أن تكون: أبا علي الحسين بن عبد الله بن سينا، الحكيم النابغة.

ـ حاضر يا أبي، سأفعل كل ما تريد.

جرى حوارهما هذا في مطلع شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وكان ذاك اليوم هادئًا، واشتد فيه اشتياق ابن سينا لمعشوقته الدانية القاصية، فذهب مساءً إلى «سندس» من دون موعدٍ مسبقٍ أو إخطار. وجدها جميلة مثلما كانت دومًا، وبهية الحضور غامرة الاحتضان، ومانحة.. حكى لها في الهدأة ما يعانيه مع أبيه، وما كان من أمه التي لم تستحسن فكرة زواجهما.

ـ توقعت ذلك من «ستاره» فهكذا نفكر نحن النسوة الخوارزميات، وقد تدبرت الأمر فوجدت لنا حلًّا.

ـ أيُّ حلٍّ؟ ما دمتِ تريدين الإنجاب، فلا طريق أمامنا غير الزواج.

«اسمعني للنهاية».. قالت سندس ذلك وهي تتربع بساقيها قبالته، لتُكمل ما بدأته من كلام لا يصدر إلا من العشاق أو المجانين. وبالأحرى، لا يقوله إلا المجانين من العاشقين: حيلتي يا حسين بسيطة، قد كان لنا في «شاش» جارٌ يتاجر في العبيد، وابنته وزوجته كانتا صديقتين لي، وقد تأكدتُ مؤخرًا من أن هذا الرجل لا يزال حيًّا، وأهله بخير. سأتفق معه على شيء لن يستغربه أحد، هو أن أُشيع بين الناس أن بيتي هذا مرهونٌ لذاك الرجل، وأنني مدينةٌ له بمالٍ كثير، وبدلًا من لجوئه إلى القاضي وتعريضي للحبس، أعطيته البيت وحريتي وفاءً للديون، فصرتُ أنا وبيتي ملكًا له. وبعد أيامٍ سآتي معه من شاش إلى بخارى كي يتسلم البيت، ويبيعني بأعلى ثمن ممكن، ونقابلك كأنها صدفةً وترقُّ لحاليَ ويؤلمك مآلي فتشتريني على رءوس الأشهاد. فتصير مالك رقِّي وأكون أمةً عندك، ولك حق التمتع بي. فإذا حبلتُ منك وأنجبتُ الصبي الذي أرجوه، صرتُ «أمّ ولد» ويصير ابننا حُرًّا بحكم الشرع، وما عاد يصح أن أُباع لغيرك..

كان ابن سينا ينظر إليها بعين مدهوشٍ، وبقي صامتًا تمامًا ومتحيِّرًا فيما يسمع، فأكملت كلامها العجيب: أنا لا

أريد إلا البقاء بقربك والإنجاب منك، وسوف أكون في خدمة «ستاره» حتى ترضى عني وتقبل بوجودي، وفي خدمتك طبعًا، ويمكنك بعد ذلك أن تتزوج بفتاةٍ أو أكثر، إذا شئت، المهم عندي أن تُبقيني بقربك. فما رأيك؟

ـ أرى أنكِ جُننتِ، وطاش بالعشق عقلك. كيف تتركين بيتكِ وحريتكِ، وتكونين في بيتنا كبقية الإماء والمماليك! وكيف أرضى لكِ بهذا؟

ـ وهل توجد طريقة أخرى. سوف أعطيك المال اللازم لشرائي، وأهب لك كل ما أملك. فالعبدُ وما يملك لسيِّده، وليس لي سيد غيرك.

ـ عندي من المال كفاية، وخيالاتكِ هذه لا تجوز شرعًا. فاصبري قليلًا، لا بد أن هناك طرقًا أخرى، غير هذا النزق المستحيل. أمهليني قليلًا حتى أجد لنا مخرجًا. سأقوم الآن، لأطمئن على أبي وأحوال الدار.

ـ ابق معي بعض الوقت، ولو ساعة، فأنا لم أرك منذ أسبوع..

ـ حاضر، نبقى ساعتين.. تعالي إليَّ يا سيدة الجنون.

***

كان ابن سينا واثقًا من أن أمه طيبة، وسوف يرق قلبها لسندس إذا أخبرها برفقٍ بما اقترحته عليه، فتوافق على زواجهما وتباركه. لكنه كان مخطئًا في تقديره، فقد اشمأزت «ستاره» عندما سمعت تلك الفكرة المقترحة، وقالت باللهجة الخوارزمية عبارةً حادة ترجمتها: ما هذا التهتك.. أجابها بنبرة بريئة: إنه العشق يا أمي.

ـ بل هو القلب المريض والعقل الرخيص، لا تحدثني ثانيةً يا حسين عن هذه المرأة، ولا تذكر اسمها أمامي أبدًا..

***

ووقعت الفاجعةُ في منتصف شهر رجب، وكان الأوان صيفًا، ثم جاءت بعدها الواقعة الأفجع في نهاية ذاك الشهر.. ففي يوم الخميس السادس عشر من رجب سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ماتت زوجة «أبي بكر البرقي» فذهبوا لتأدية واجب العزاء، وعند انصرافهم رأت «ستاره» سندس وهي في طريقها إلى بيتها، فأخذت ابنها من يده وأسرعت لتلحق بها. اضطربت «سندس» ولم تدخل دارها من بوابتها الكبيرة، وعبرتها ثم انحرفت يمينًا ودخلت الزقاق الضيق، كأنها ستدخل من الباب الجانبي. دخل «ابن سينا» الشابُّ الزقاق مشدودًا من أمه التي استوقفت «سندس» بنداءٍ، ولما توقفت واجتمع ثلاثتهم بالزقاق قالت لها «ستاره» بصوت حانق: ابتعدي عنا يا امرأة، وابني هذا لن يكون لكِ أبدًا. فابحثي عن غيره، وإن كنتِ متحرِّقة إلى الرجال، فاقتني عبدين يقضيان لك الوطر، فأنتِ امرأة لديكِ المال..

لم تنطق «سندس» بأيِّ كلمة، ولا ابن سينا، فأخذته أمه وذهبت به وهما صامتين، ودخلت سندس إلى بيتها مسرعةً فزعة، كأنها تهرب من ملاحقة الموت والعار. ولما انفردا في باحة الدار فور عودتهما، قال ابن سينا لأمه بغضبٍ وألم: ما هذه القسوة البالغة يا أمي، هي لا تستحق منكِ ذلك! فنهرته بقوةٍ بقولها: هذه المرأة الخليعة الغارقة في الإثم، تستحق كل شيء، ولو رأيتها مجددًا يا حسين، سيكون قلبي وربي غاضبين عليك.

أدرك ابن سينا أنه لا فائدة من استكمال الكلام مع أمه، وربما يؤدي ذلك إلى مزيد شقاقٍ، فتقهقر عنها وتركها

تدخل البيت وحدها، وخرج مسرعًا ورأسه يدور فوقه حجرُ الرحى، ويعتصر قلبه الألم. كان عليه لحظتها أن يذهب لسندس عساه يطفئ النار التي بدأ اشتعالها واشتد، لكنه لم يفعل، فقد ظن أنها الآن ثائرة أو جريحة الروح، وليس من اللائق إهاجة ثورانها أو نبش جراحها. وقدَّر أنها قد تحزن أكثر، إذا زارها عقب إهانة أمه وسكوته على ذلك. هكذا ظن. لأنه كان آنذاك على وفرة علمه ومعارفه العامة، شابًّا بلا خبرة، ولا يعلم إلا القليل عن منطق العشق ولا يدري شيئًا عن طبيعة النساء.. أخذته خطواته الحيرى إلى دار «أبي سهل» وحكى له ما جرى من أمه قبل قليل، فسمعه «أبو سهل» بأسى ونظرات مواساةٍ، ثم قال مهوِّنًا عليه: لا تحزن يا حسين، فهذه الأمور كثيرة الحدوث، لكنها تنتهي دومًا على خير. هي فقط تحتاج وقتًا.

أدرك ابن سينا أن صاحبه يطيِّب خاطره بما لا طائل تحته، ولا معنى له، فتهيَّأ للقيام من عنده. حاول «أبو سهل» عبثًا أن يستبقيه للمبيت، تلافيًا للخروج في جوف الليل مع انفلات الأمور والأمن المنعدم بالمدينة. فاعتذر منه ابن سينا بأنه لن يستطيع المبيت خارج الدار، فأبوه مريض وأمه ثائرة وأخوه صغير.. في طريق عودته، كان سكون الطرقات التام يعكس قلق الناس من مقبل الأيام، فالقيادُ كان يتفلَّت من يد الأمير الجديد ويتنازعه المماليك الطامحون إلى المُلك، تترى أخبار الحرب الطاحنة الجارية بين الأخوين الغزنونيين، وبين أفراد الأسرة البويهية المتشظية. ناهيك عن وقائع الفزع الذي ازداد مع جرأة قُطاع الطرق وناهبي القرى والمدن. وكان قلب الشاب العاشق تعتصره المآسي، وتحاصره وحدتُه وتحجُّرُ أمه وآلامُ محبوبته واستحالةُ تحقيق الأماني.. أين المفر؟ أيامها، لم يجد ابن سينا سبيلًا لاحتمال ما يعصف حوله، وداخله، إلا بالعزلة التامة، وبالانغماس في العلوم والمعارف، حيث الصفو الخالص والإخلاص الممهِّد للخلود.

وسارت الأيام التالية بابن سينا متكاسلةً، مملة، فانشغل بمداواة أبيه وتشاغل بمتابعة الأخبار الآتية من قريب ومن بعيد. وما كان يكلِّم أمه إلا لمامًا وعند الضرورة. وبعد أسبوعين، يعني في نهاية شهر ربيع الآخر، أتاه خادمٌ برسالةٍ مطويةٍ بعناية ويفوح منها عطرٌ يعرفه. استبشر وهو يفضُّ الرسالة، وقرأها بسرعة فلم يفهم مرادها المبهم، وحيَّرته كلماتها القليلة التي نصها: أراك نسيتني. حسنًا، انظر الليلة عبر النافذة بعد العشاء، وسوف ترى.

بعد الغروب، سكنت أنحاء الدار وأوى الأهلُ إلى هدأة النوم، فصعد ابن سينا إلى الطابق الأعلى بلا قنديل يضيء، مع أن الإعتام كان شديدًا لأن القمر في المحاق، وصفحة السماء مغبَّرة. برفق بالغ، وحرصٍ على عدم إصدار صوت، فتح ابن سينا نافذة حجرة الأدوية فرأى غرفة «سندس» منيرةً بفتيلة قنديل يتراقص لهبها.. ما هذا؟ ما هذا؟ كانت تجلس قبالته على وسادةٍ ليست عالية وهي شبه عارية، ويجثو أمامها مملوكٌ يدلِّك قدميها ويتصعَّد بأصابعه، ومن خلفها مملوكٌ آخر قويُّ البنيان يمشِّط شعرها، ورأسها يميل للوراء مع مشطه.. ولما تأكدت من أن ناسيها يراها، راحت تتلوى وتتأوه بعدما جعلت أحدَ عبديها الهاصرين أرضها والآخر سماءها، وانهمكوا في الإثم الثلاثي أمام عينيه، ليرى.

وقف الشابُّ النابه جامدًا، مذهولًا، حتى استعاد وعيه من عصف الهول، فمغص فُم معدته بقوةٍ مؤلمة، ونخست باطنه الرغبةُ في القيء.. أغلق النافذة بغير إحكام وأسرع هاربًا مما هاله، وعندما وصل إلى الدرج الهابط قاء، وأخذته نوباتُ التهوُّع حتى كاد يسقط من منتصف السلم، لولا استناده إلى الحائط وجلوسه القسري. قامت «ستاره» من نومها فزعةً، وفزعةً على ابنها أسرعت إليه، فتحامل على نفسه وهبط الدرج حتى استقر انهياره في حضنها. هو لن يبكي يوم وفاة أبيه، ولم يبك سابقًا بهذا الالتياع، كان يرتعد وهو يجهش في حضن أمه التي انخلع

قلبها حين رأته يضيع. لم تسأله عما يعصف به، فالأمهاتُ تخبرهن قلوبهن، ولم تلفظ إلا بكلمتين راحت تعيدهما مراتٍ كأنها تحادث بهما إلى الله، وبدموعها ترجوه: ولدي حسين، ولدي حسين..

استعاد المصدومُ شيئًا من رشده بعد حينٍ فاستقام واقفًا، خَجِلًا، وسار حسيرًا إلى غرفته خافتة الضوء. وهناك سقط إلى سريره كالمُلقى من قُلة جبلٍ، وشدَّ فوقه الملاءة كأنه سينام. لكنه لم ينم، وبقي يحملق في الخيالات التي ترسمها شعلة القنديل على السقف، ويؤلفها خياله. ومتحيرةً، انسحبت «ستاره» إلى غرفتها فتوضأت من ماء الجرَّة التي قرب الباب، وفي الزاوية ظلت تصلي جالسةً، وتبتهل، حتى أتاها صوتُ المؤذن لصلاة الفجر. فنامت وهي قابعة على الأرض، وظهرها إلى الحائط، ونظرها إلى زوجها المستلقي على سريره مثل ميتٍ فُقد فيه الرجاءُ.

مرَّ يومان وابن سينا معتصمٌ في غرفته لا يفارقها إلا لمامًا، فكان يقوم أحيانًا مترنحًا ليطمئن على أبيه، ثم يعود مهدَّمًا إلى سريره وإلى أوقاته الموزَّعة بين الوجوم ومطالعة الكتب بعينٍ تكاد تدمع. في اليوم الثالث دخلت «ستاره» عليه، وجلست إلى جواره على السرير المفرد، وتحدثت إليه بأسى: يا حسين، أنت يا ولدي فرحة عمري الوحيدة، ولن أحتمل فقدان أبيك وفقدانك، فإن كان لا فكاك لك من أعمال السحر والتعاويذ، التي جعلتك تتعلق بهذه المرأة. فتزوَّجها يا ولدي، ولله الأمر.

ـ لا تذكريها أمامي مجددًا يا أمي، ولا تقلقي عليَّ، سأكون بخيرٍ بعد حينٍ.

أمضى ابن سينا فترةً تعيسةً بعد «سندس» التي جعلته يعاف المجامعة ويتَّقي النساء عشرين سنة، ظل خلالها يهرب منهن ويرغب عنهن. حتى كان ما كان من أمره مع «روان» وما نجم عنه من رغبةٍ محمومة فيها، وفيهن من بعدها، وهي رغبةٌ لم يقمعها إلا اعتقاله في «فردقان» حيث كان لقاؤه بربة البهاء الأنثوي، ماهتاب.. عدا ذلك، لم يكن في حياة ابن سينا خلال ذاك الزمن البخاري الأخير، التعيس، شيءٌ آخر يُذكر. إلا كونه كتب لجاره «أبي بكر البرقي» كتاب «البر والإثم» من وحي ما جرى معه ومن تلك المقابلة والتضاد بين صورتَي سندس وأمه، في ذهنه، فرمز إليهما في العنوان بالبرِّ والإثم. أما بقية أحداث العام الأخير ببخارى، الذي اختتم برحيل ابن سينا من هناك إلى غير رجعة، فكانت كلها مزعجات متتالية: المماليك طمعوا في الحكم وأمسكوا بالأمير «منصور بن نوح» في بلدةٍ تقع جنوب بخارى اسمها «سرخس» وسملوا هناك عينيه، فعمي، ومات تحت التعذيب.. وتَصَالحَ ابنا «سُبُك تكين» بعد أن أهلكا في الحرب الطاحنة أرواحًا لا حصر لها، ثم استرضى «محمود الغزنوي» أخاه بإمارةٍ لم يستمتع بها طويلًا، إذ مات فجأة، وعلى الأرجح مسمومًا. فلما نفض يده من أخيه زحف بجيشه إلى بخارى وانتزع حكمها، بعد مرور شهور من تأرجح «بخارى» بين أيدي «أيلك خان» وبقايا السامانيين. ولما استقر محمود الغزنوي في قصر الإمارة، ومعه غلامه المعشوق «إياز» طلب أطباء القصر ليعطوه بعض مقويات الباه، فقيل له إن «القمري» توفي، وإن أبا سهل المسيحي وابن سينا خرجا من المدينة قبيل وصوله إليها، كي يتجنبا اللقاء به. فنقم عليهما. وعلم ابن سينا وصاحبه بخبر تلك النقمة، واستخفَّا بها، بعد وصولهما إلى جرجانية خوارزم «كركانج» واستقرارهما في كنف الوزير «السهلي» والأمير «علي بن المأمون» حيث كان كلاهما يميل إلى العلم ويحتفي بالعلماء.

ومن المآسي التي جرت آنذاك، وسمع بها ابن سينا بعد رحيله عن بخارى، فاجعة مقتل «سندس» على يد عبيدها المماليك، الذين نهبوا دارها من غمرة الفوضى التي عمَّت المدينة يوم الثلاثاء عاشر شهر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، مع اجتياح جيش «أيلك خان» لبخارى والاستيلاء عليها. وفي غمرة الاضطراب الذي جرى في ذاك

اليوم وما تلاه، نُهبت مواضع كثيرة كان منها منزل «العروضي» و«البرقي» فضاعت أصول الكتب الثلاثة الأولى في قائمة مؤلفات ابن سينا.

والآن، كيف يمكن حكاية ما جرى مع «سندس» وسرد السبب في تأليف كتاب «البر والإثم» وفاءً بالوعد المبذول لماهتاب بالأمس؟ سأل ابن سينا نفسه هذا السؤال وقد أطلَّ عليه فجر اليوم الجديد، بعد ليلةٍ طويلةٍ تطاوف فيها عقله بين الذكريات الحارقة للقلب.. ونوى أمرًا وفعله، إذ ألمح للأمر من بعيدٍ وأوجز وأشار فقط، عندما أتت «ماهتاب» إليه مساءً، وأخبرته بأن زوجة «المزدوج» قد استقرت حالتها وتوقف نزيفها تمامًا، فلم تعد تشكو إلا أثر الوهن. هزَّ رأسه راضيًا وهو يقول لها حسنًا، سوف تستعيد عافيتها بسرعة، فهي أمرأةٌ شابة وبدنها فتيٌّ، ولكن لا بد لها في الأيام القادمة من مراعاة المأكول.

ـ وماذا عن خبر المرأة الآثمة؟ أنت وعدتني..

ـ نعم. هي امرأةٌ مسكينة عرفتها في مقتبل عمري، وفُجعت فيها، والحديث عنها سوف يفتح بقلبي جراحًا غائرة، كادت تندمل.

ـ سلامة قلبك من الجراح يا سيد الأطباء.. طيب، وماذا عن وعدك الآخر لي، فهو عندي الأهم؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ كتابة الفلسفة المستورة والحكمة المشرقية.

نظر ابن سينا نحو «ماهتاب» بعينين تبتسمان، وسألها عن سرِّ إصرارها على تدوينه لأصول الفلسفة التي تعبِّر عنه وعن رؤاه، مع أنه أخبرها سابقًا بأنها لا تناسب إلا الخواص من العقلاء. أما العامة من الناس وعموم القارئين، فهم يحتاجون أكثر لفلسفة أرسطو «المشائية» لأنها تشتمل على المنطق الذي هو آلة العلوم ومنهج البحث. قاطعته بقولها إنه كتب كثيرًا في ذلك، وعندما ينتهي من تبييض كتابه الكبير «الشفاء» سيكون قد استوفى ما يحتاجه الجمهور من هذا المذهب الفلسفي المشهور، فيبقى عليه كتابة مذهبه المستور..

ـ عندك حق، لكن ذلك سوف يحتاج حيلة ووسيلة مناسبة.

ـ لماذا يا حبيب قلبي؟

ـ ماذا قلتِ يا ماهتاب؟ حبيب قلبي!

ـ عفوًا، سبق لساني خواطري، ولست أقصد أن...

ـ ليتكِ تقصدين.

غاصت العينان بالنظرات في العينين وتوغَّلتا إلى حدِّ التمام في الهُيام، وسكن الكونُ من حولهما لحظاتٍ لا حساب لها ولا تحسُّب فيها، بعدما أذابت النظرةُ الولهى كل ما كان بينهما من مسافات واعتبارات. فلا هو الشيخ الرئيس الحكيم الوزير المعتقل بلا سبب، ولا هي سليلة الزهو والبهاء الشيرازي الموروث من آل ساسان الأولين. هما فقط، عاشقٌ يشتاق ومشتاقٌ يعشق. أو هما وجهان لمرآةٍ تجلَّى خلالها جوهرُ العشق والاشتياق والميل إلى الالتصاق. قامت إليه واقتربت رويدًا، كأنها وابل رِهام، وهو أرضٌ عطشت حتى تشققت، ثم صار الرهامُ سيلًا من الزخات التي تحمل رحيق الحيا إلى بئرٍ صحراويٍّ جافّ.. بين ذراعيه سالت، وبين ذراعيها أسكره النوالُ وطاح به فأطاح بما يحول دون تمام التلامس. فلما انكشفت الشموسُ التي كانت محجوبةً خلف سحاب الثياب، اشتد الوهجُ وذهبت عتمةُ الحرمان وذابت في الضياءِ الضياءُ، فذاقا معًا معنى النوال وأبحرا فوق محيطات سحره الآسر، العصيّ على الوصف.. وبعد توغلٍ في أفق الغياب، عادا إلى الدنيا قبيل الفجر.

***

كان التقاء ابن سينا و«ماهتاب» بعد فترةٍ من أول لقاء بينهما، وشتان بين اللقاء والالتقاء. وبعدما ذابت بينهما الثلوج، تدفقت الأنهار وتوهجت النار ثلاثة أيامٍ سويًّا، ليس فيها إلا الخمود التام نهارًا والاحتدام الأتمّ من بعد الغروب إلى قرب الفجر. رأى من فنونها أعاجيبَ، فكأنه لم يعرف قبلها نساء، ولمس معها معاني تعالت عن أفهام وأوهام معظم الناس. فمن حنوِّ المنح، إلى أفعوانية الدلال المفعم بالعنفوان، إلى وداعة المداعبة.. ومن سكينة الطمأنينة الحاضنة، إلى رعدة الانتفاض عند بلوغ المدى.. ومن الحب، إلى العشق، إلى الهيام التام. كانت الأيام التالية استسلامًا تامًّا، بلا نقاش أو مدافعة لما يمليه عليهما العشقُ من أحكام.

صبيحة اليوم الأول من رابع أشهر ابن سينا بقلعة «فردقان» معتقلًا، ومتحررًا في خاتمة المطاف من جفاف الزمان وجفوته.. صحا من غفوته المبكرة حين طرق «المزدوج» بابه ساعة الضحى وجلس أمامه لحظةً مطرقًا، ثم قال إنه يريد استشارته في أمر.. خير يا منصور؟ لا يا أخي الحكيم، ليس خيرًا.. قال إن العسس همسوا له قبل أيامٍ بأن الزعاق يراسل سرًّا جواسيس الغزنوي، وقد التقى مؤخرًا ببعض العسكر الغزنوية سرًّا، في مكان مهجورٍ شرقيِّ قرى الرستاق. وبعد هذا اللقاء السريِّ بيومين كلف «الزعاقُ» ثلاثةً من الأدلاء، برسم خرائط للدروب الجبلية غير المطروقة بشمال «الري» لتحديد المسالك الخفية بالمرتفعات القريبة من بحر قزوين، والطرق الجانبية المؤدية إلى قُرى الرستاق! استغرب ابن سينا الكلام، فاستفهم من المزدوج عما يمكن أن يدفع الزعاق إلى ذلك، فقال: المال.. تفكر ابن سينا مليًّا ثم قال للمزدوج:

ـ وما فائدة ذلك للغزنوي، في رأيك؟

ـ لا أدري، ربما يخطط لغزو دار الخلافة في بغداد، فيقتل الخليفة العباسي وأسرته، وينصِّب نفسه خليفةً للمسلمين.

ـ كيف يا منصور؟! هو تركيُّ الأصل، والقاعدة تقول: الأئمة من قريش.

ـ هذه ليست مشكلة، يرشو الفقهاء ويرعبهم، فيقولون للناس: الأئمة من غزنين، ومن سلالة سُبُك تكين.. المهم أن يستولي بعسكره والقواعد تتبدل.

ـ لا أظن ذلك يا منصور. وعمومًا، ليس لدار الخلافة اليوم عسكرٌ يُعتد بهم، أو تستوجب الأحوالُ مفاجأتهم.

ـ هناك عسكر البويهيين الموجودين في النواحي الواقعة بجنوب بغداد، فربما يريد الغزنوي أن يهبط على دار الخلافة فجأةً، من جهة الشمال.

أمسك ابن سينا بورقة ورسم عليها خريطةً تشتمل شرقًا على خوارزم وخراسان، وغربًا على كردستان والعراق والشام، وما بينهما من بلاد فارس بحواضرها الثلاث الشهيرة: الري، أصفهان، همذان. وخطَّ بين هذه المدن الكبيرة خطوطًا فصارت كالمثلث. ثم وضع في وسطه نقطةً وقال للمزدوج: هذا موضع قلعة فردقان، وهي كما ترى بين الممالك الثلاث البويهية، ومثلما تتبع منطقة القلعة إمارة «همذان» فإن إمارة الري تتبعها هذه النواحي الشمالية: قزوين وإقليم الجبل. فلو أراد محمود الغزنوي الوصول سرًّا إلى شمال بغداد، فلا بد له أن يعبر بجيشه جبال البُرُز، ويمرُّ قريبًا من الجهات التابعة للري، ثم يجوس خلال ديار الأرمن والأتراك والأكراد، وبعدها يهبط جنوبًا. وهذا طريقٌ وعر وغير مأمون لمسير الجيوش، وليس من السهل التسلل من خلاله بغير افتضاح.

ـ لا أدري يا حكيم، لكن ما يعنيني الآن هو خيانة الزعاق، وأفكر في قتله عقابًا على ما اقترف.

ـ لا تتسرع، أرجوك. هل واجهته بهذه الاتهامات قبل الحكم عليه؟

ـ لا، ولكنني متأكِّد. وسوف أحاكمه أمامك، لتشير عليَّ بما تراه عادلًا. هو الآن مقيدٌ بالأغلال في حجرتي بالساحة الأمامية، بعدما اعتقلناه فجرًا فور عودته إلى القلعة، وكان بطيات ثيابه صرةً فيها دنانير خراسانية كثيرة. سأرسل من يحضره إلى هنا، ونحاكمه.

ـ لا يا منصور، لا يصح افتضاح مثل هذا الأمر بين العسكر والخدم، الأصوب أن نذهب إليه ونُنهي الأمر بأيسر طريق.

دخلا الحجرة على «الزعاق» المقيَّد بزاويتها وأغلقا خلفهما الباب، فاستنجد بابن سينا وهو يرتجف فزعًا: الرحمة يا حكيم، الرحمة.. فاقترب منه الشيخ الرئيس وحدَّق في قلب عينيه بنظرة صقرٍ، وقال: الرحمة تكون للمخطئ التائب، فما هي علامة توبتك؟

ارتسمت البلاهة المعتادة، والخبث، على وجه الزعاق وقال إنه ظن جواسيس الغزنوية تجارًا يريدون معرفة أقرب المسالك وأكثرها ابتعادًا عن العيون، كي يمروا بالبضائع من دون سداد المكوس.. قذفه المزدوجُ بآنيةٍ فخارية كانت على الطاولة، وكاد أن يهجم عليه فاتكًا وهو يقول: يا كلب، التجار لا يتواعدون مع العسكر في الأماكن المهجورة، ولا يطلبون خرائط، ولا يدفعون هذا المال الكثير.

مذعورًا، بكى «الزعاق» وهو يقول إنه كان يشكُّ في الأمر، لكنه خادع نفسه طمعًا في المال، وهو الآن نادمٌ على ذلك ويرجو العفو والغفران.. سأله ابن سينا: ولماذا كانوا يريدون هذه الخرائط؟ قل لنا وقد يسامحك «منصور» ويُطلقك.

ـ لا أدري يا حكيم، ربما كان السلطان ينوي غزو بلاد القوقاز وأرمينية، لكنني لستُ متأكدًا.

طرق الباب واحدٌ من أعوان «منصور المزدوج» وقال له إنه يريده في أمرٍ مهم، فخرج معه وترك ابن سينا مع «الزعاق» فتوسَّل إليه: أرجوك يا حكيم، كن بجانبي ولن أنسى جميلك أبدًا، أرجوك، إنه يحبك ويستمع إليك وسوف يقبل وساطتك لو توسَّطت لي عنده، أرجوك.. كانت هيئة «الزعاق» مقززة، ورائحته، فترك ابن سينا الغرفة وخرج إلى هواء الساحة فرأى «المزدوج» جالسًا يهز رأسه وبجانبه معاونه الذي أبلغه بآخر الأخبار. اقترب منهما ابن سينا متمهِّلًا، فانصرف المعاون ودعاه «المزدوج» للجلوس وهو شارد البال، وساد بينهما الصمتُ لحظاتٍ كانت فيها شمسُ العصر قد مالت نحو أفق الغروب.. بصوتٍ خفيض قال المزدوج: صباح اليوم، بلا حربٍ أو مقاومة، دخل الأمير «علاء الدولة بن الكاكويه» بجيشه إلى همذان فصارت له. ولم يأذن لعسكره باستباحتها أو نهب أي شيءٍ منها، والمدينة آمنة لكن أهلها فزعون ومستعصمون بديارهم يترقبون، ولا أحد يعرف أين ذهب الأميرُ «سماء الدولة» وقائده «تاج الملك».

ـ عجيب. ربما تتضح الأمور الأيام المقبلة، وربما بعد ساعات.

ـ وماذا أفعل حتى ذلك الحين.. هل أبقى ساكنًا بلا حراك هكذا؟

ـ دعنا يا منصور نتعقَّل الأمر بروية، ونرى ما يجب فعله. ولكن أخبرني أولًا، لمن ولاؤك الآن؟

ـ لمن يحكم «همذان» فهذه القلعة تابعة لها.

نظر ابن سينا إلى السماء الصافية، وأعاد إليها بصره كرَّتين، متأملًا، ثم اقترح على المزدوج حلًّا، لقي عنده القبول: أن يرسل فورًا فارسين على حصانين عربيين أو ناقتين من النوق البلخية السريعة، فيذهب أحدهما إلى ابن الكاكويه بهمذان، بحكم كونه الحاكم الجديد، فيخبره باختصار بما جرى من جواسيس «الغزنوي» وسعيهم لرسم خرائط الدروب الجبلية بالشمال. والرسالة ذاتها يبعث بها مع المرسال الآخر إلى «تاج الملك» و«شمس الدولة» المتواريين بجيشهما..

ـ لكننا لا نعرف أين يتواريان!

ـ تحركات الجيوش لن تخفى طويلًا عن الأعين، ولا أظنهما قد ذهبا بهذا العسكر الكثير بعيدًا عن همذان. فهما إما بالجهة الجنوبية من المدينة حيث الجبال العالية، أو بالسهول الفسيحة الممتدة شمالًا بين همذان وفردقان. فليكن المرسال الآخر قريبًا من «همذان» حتى يظهر المستور، فيسرع بتسليم الرسالة.

ـ وماذا نفعل مع هذا الكلب الخائن؟

ـ أطلقه الآن، فلن يجلب إليك إلا الشرور. ولا يصح في هذا الوقت الحرج قتله أو حبسه، فيثور الاضطراب ببواطن عسكر القلعة. والمال الذي ضبط معه وزِّعه على العسكر والخدم كمنحةٍ ولا تقل لهم من أين جاء. كأنها هبةٌ لرفع الروح القتالية عندهم استعدادًا لما سيأتي، فتطيب نفوسهم بذلك ولا يرهقها القلق.

استحسن «المزدوج» رأي ابن سينا، وطلب منه أن يكتب الرسالتين إلى الأميرين، بخطه، وأحضر له الورقتين وأدوات الكتابة. فكان نصُّ الرسالتين متطابقًا، ومن دون أدنى اختلاف: مولاي الأمير، قد بلغ إلى أسماعنا خبرٌ مؤكد مفاده أن جواسيس الغزنوية يرصدون في النواحي الشمالية، الدروب الجبلية الخفية والمسالك المستترة عن الأنظار في السهول، والأمر مرفوعٌ إليكم للإحاطة واتخاذ ما ترونه مناسبًا، كتب ذلك حبيسُ القلعة أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا.. وفي ديباجة الرسالة الأولى، كتب: من آمر قلعة فردقان، منصور المعروف بالمزدوج، إلى الأمير الأجل علاء الدولة دَشْمَنْزِيار بن الكاكويه، حفظه الله.. وكتب في ديباجة الأخرى: إلى الأمير الأجل سماء الدولة بن شمس الدولة، والقائد المظفر تاج الملك، حفظهما الله.

أغلق المزدوج الرسالتين وختمهما بختمه، وأطلق بهما فارسين خرجا من القلعة مثل سهمين، وغابا عن الأنظار وقد بقيت سويعةٌ على غروب الشمس. ثم أُخرج الزعاق من محبسه، وسُلب ما كان معه من المال فأعطاه كاملًا لأحد معاونيه لتوزيعه بالتساوي على عسكر القلعة.. وبعد إلحاح لجوج منه، ووساطة ابن سينا لدى المزدوج، مُنح الزعاق حمارًا هزيلًا ليذهب به إلى غير رجعة، بعد التنبيه عليه بأنه سُيقتل على الفور إذا شوهد مجددًا في الجوار..

جلس ابنُ سينا والمزدوجُ على البسطة التي بين برجَي القلعة يرقبان الزعاق وهو يرحل، بخبثٍ، مع غياب الشمس. فقد ابتعد عن مرمى السهام، ثم خرج عن الطريق ودار بحماره دورة واسعة لتعمية مراقبيه عن الوجهة التي سوف يسير إليها، واستمر في الدوران متلكِّئًا حتى عمَّ الظلام تمامًا، فاختفى بين طياته.. وبعد صمت طويل، كان خلاله المزدوج يفكر في أمورٍ كثيرة، أكثرها لطفًا أن زوجته الصغرى استردت عافيتها لكنها لم تتهيَّأ بعد للمجامعة. وكان ابن سينا يفكر في أمرٍ وحيد، لطيف هو أن «ماهتاب» على وشك المجيء إلى حجرته، وربما جاءت وتنتظره هناك، وأنه سوف يُملي عليها الليلة النص الرمزي الذي ينوي تأليفه في الحكمة المشرقية، وفاءً لما وعدها

به..

هبت عليهما نسماتٌ مسائية من تلك التي تبهج النفوس وتُريح الأنفاس، ولحظتها فوجئ ابن سينا بسؤالٍ غير متوقع من المزدوج. قال له: أخبرني يا حكيم، أين تذهب الشمس حين تغيب عن أنظارنا، ولماذا تشرق فجرًا من الجهة المقابلة لمغيبها؟

ـ هي لا تذهب يا أخي منصور، وإنما تبقى في مكانها البعيد جدًّا عنا. والأرض هي التي تدور حول محورها، لأنها مثل كرة معلقة في فراغ السماء.

ـ لا يُعقل هذا الكلام. وأرى أن الشمس، هي التي تدور في السماء من حولنا..

ـ لا عليك من ذلك الآن يا منصور، ولا تجهد ذهنك في الأمور الفلكية، فهناك آخرون يهتمون بها وينشغلون بالفلك وحركة الكواكب والنجوم.

ـ نعم، أعرفهم. هؤلاء الذين يحدِّقون في القمر والنجوم، حتى يصيبهم ما يشبه الخبل والجنون. الحمد لله أنني لست منهم.

شعرا باشتداد البرد، فقاما من فوق سطح القلعة وسار كلٌّ منهما إلى وجهته، وهما لا يدريان بأن ما فعلاه في يومهما سيُحدث أثرًا كبيرًا في الأيام والشهور والسنوات المقبلة. فقد استلم ابن الكاكويه الرسالة فتأكَّدت عنده الشكوكُ في نية محمود الغزنوي غزو الممالك البويهية، من الشمال ومن الجنوب. وتكاملت عنده مع معلومات وأخبار كانت قد وصلته من مستشاريه، وجاء بها العسسُ والعيونُ والجواسيس. فانسحب فجأةً بجيشه من «همذان» وتركها سالمةً، وأسرع إلى عاصمة ملكه «أصفهان» لتحصينها ضد الهجوم العسكري والغزو الغزنوي المحتمل. فأدَّى ذلك إلى تأجيل التهام الغزنويين لأصفهان وما حولها، كما أدَّى إلى ثقة ابن الكاكويه بابن سينا فأحسن إليه لاحقًا وأكرمه في السنوات العشر الأخيرة من حياته، حيث استقر بقربه في «أصفهان» وظل من المقربين إليه حتى وفاته منتصف العام الثامن والعشرين بعد الأربعمائة، أثناء رحلةٍ منها بصحبة ابن الكاكويه إلى «همذان» وتمَّ اغتياله بالقرب منها، فدفن فيها، بعدما طرح عبيده السارقون في دوائه من الأفيون.. ليلتها، عرف ابن سينا من قوة رائحة الأفيون أن مقداره كبيرٌ وقد يقتله، لكنه لم يهتم، ربما لأن نفسه التي هبطت إليه من المحل الأرفع، اشتاقت لموطنها.

وقد وثق العلاء ابن الكاكويه بالمزدوج، وازدادت ثقته من كثرة ما سمعه عنه من ابن سينا الذي كا ن يكثر من ذكره ومدحه أمام الأمير. فأحسن إليه ابن الكاكويه، ثم لجأ إليه بعد ثمانية أعوام من استلامه رسالته، إذ هرب من ملاحقة محمود الغزنوي، فاختبأ بقلعة فردقان، سنة عشرين وأربعمائة، حتى ظفر به الغزنوي.

وكذلك، كانت للرسالة التي استلمها سماءُ الدولة وقائده «تاج الملك» نتيجةً طيبة للمزدوج وابن سينا فبعد استلامهما للرسالة بأيام، زحفا بجيشهما المتواري إلى السهل الممتد أمام القلعة، ومكثا هناك حتى انسحب «ابن الكاكويه» من همذان، فعادا إليها ومعهما ابن سينا الذي أطلق «تاج الملك» سراحه ووعده بالوزارة الثالثة، لكنه ظل يماطله في ذلك لسنوات، حتى ملَّ ابن سينا مواعيده الباطلة فخرج متخفيًا في زيِّ الصوفية، ومعه أخوه «عليّ» وصاحبه «الجوزجاني» فوصل إلى أصفهان وأقام معهما هناك في جوار ابن الكاكويه ورعايته، وكان يحضر بانتظام مجلسه العلمي. وانتهى هناك من تبييض مسودات موسوعته الشهيرة «الشفاء» في الفلسفة، وموسوعته الأشهر

«القانون» في الطب، فعكف عليهما النساخُ وعلى مؤلفاته الأخرى، فتواترت النسخ وملأت الأرض وسطعت في سماء الإنسانية. كما كتب ابن سينا في أصفهان موسوعته «الإنصاف» في الحكمة المشرقية، لكن الحظ العاثر لاحقها، إذ لم يكن منها بأصفهان غير نسخة وحيدة بخط ابن سينا، فنهبها الغزنويون أثناء غزوهم لأصفهان وذهبوا بها إلى عاصمتهم «غزنة» ولم يستنسخوها، فبقيت هناك حتى فتك المسلمون الغوريون «السُّنة» بالمسلمين الغزنويين «السنة» واجتاحوا عاصمتهم فملكوها وأحرقوا الكتب التي بها، فصار كتاب «الإنصاف» رمادًا، واختفى للأبد.

أما «الزعاق» فقد ابتعد عن القلعة ثم التحق بالعسكر الغزنوية ورسم معهم الخرائط المطلوبة، وتُركت في طيِّ الكتمان حتى انتهى «محمود الغزنوي» من اجتياح النواحي الهندية وتحطيم معابدها ونهب الذهب والجواهر والثروات المخبوءة بها، ثم تولَّى بوجهه وجيشه إلى الممالك البويهية. وبدأ بمملكة «الري» بأن أرسل جيشه في الدروب الخفية والمسالك السرية، وأرسل إلى أمير الري «مجد الدين البويهي» يخبره بأنه قادمٌ لزيارته زيارةً ودية، فخرج الأمير إلى الطريق لاستقباله واصطحب معه كبار رجاله من الحاشية وقادة الجند، والتقى به مرحبًا على بُعد أميالٍ من عاصمته. وعندئذٍ، وثب عليه «الغزنوي» واعتقله وبعث به إلى «غزنة» فقُتل هناك، ونزل جيشه الذي كان متواريًا وهجم على «الري» فملكها بغير قتال، لغياب أميرها وقادة العسكر وحيرة الناس من هول المفاجأة. ونهب الغزنوي «الري» وسلب ثرواتها وقتل علماءها ومفكريها من الشيعة والمعتزلة، وضمَّها إلى السلطنة. ثم نزل جنوبًا فامتلك قلعة فردقان وقبض على ابن الكاكويه الذي كان يختبئ آنذاك فيها، وبوشايةٍ من «الزعاق» الذي صار مرموقًا بين جواسيسه وعسكره، قتل «المزدوج» عقابًا له على ولائه السابق للبويهيين وتحذيرهم من خطط الغزنوية.. وصار «الزعاق» في ظل سلطنة الغزنوي هو آمر قلعة فردقان، والمتصرف في «دولت كوجك». فباع أولاد المزدوج عبيدًا، واستبقى زوجتيه وبنتيه إماءً له، ظل يستمتع بهن ويعبث بأجسادهن جمعًا في الليالي الجُون، حتى طعنته كبرى بنات «المزدوج» في رقبته وهو سكران، بخنجرٍ مسموم، فراح ينتفض أمامهن ويضرب الأرض بساقيه وذراعيه حتى خمد وهمد، فتسللن هاربات وهن آمناتٍ من عيون الحرس لشدة البرد وتمام العتمة، ومن الكلاب المتذئبة لأنها كانت معتادة عليهن، ولأنهنَّ كنَّ يقدمن لها في جوف الليلات الطعام.. والكلاب مهما شرُست أو تذأبت، فهي أوفى من الناس وأنقى سريرة.

وفي تلك السنة المذكورة؛ العشرين بعد الأربعمائة، استكمل السلطان محمود بن سُبُك تكين الغزنوي فتوحاته في بلاد الإسلام وغزواته بأرض المسلمين، فامتلك همذان وأصفهان وشيراز، ونهبها كلها.. ثم كرَّ الزمان على أسرته وأولاده الذين ورثوه وأتاهم من المشرق الغوريون وملكوا عاصمة بلادهم، ومن الشمال هبط المسلمون السلاجقة «السُّنة» وفتكوا بالمسلمين الغزنويين «السُّنة» وانتزعوا منهم الممالك.

***

عند دخوله حجرته وجد ابن سينا السراج مضيئًا، ولما دخلها وجد في انتظاره ماهتاب وماهيار يجلسان في سكون. كانت ماهتاب تضع أمامها الكاغد والدواة والأقلام استعدادًا لكتابة ما سوف يمليه عليها ابن سينا، بحسب ما اتفقا عليه بالأمس، وحين رأته تموَّج برقةٍ حاجباها الرشيقان، وبرقةٍ سألته عن سبب القلق البادي على وجهه، فأجابها بعد أن سلَّم على أخيها بأن أحوال البلاد تضطرم في النواحي كلها وتلوح في سماواتها نُذُر الحرب، وليس من المستبعد أن يأتي الغزنوي بجيشه قريبًا. قال ماهيار: لا أظن يا سيدي، فهو لم يفرغ بعد من بلاد الهند الواسعة، متهالكة الممالك، المليئة بالمعابد المليئة بالثروات.

ـ وفي بلادنا، أيضًا، ثروات كثيرة يا ماهيار.

ـ نعم يا سيدي، لكنْ بها جيوشٌ سوف تقاومه، أما الهنود فيقاومونه بالأدعية والابتهال للآلهة.

قطعت ماهتاب كلامهما بقولها: دعونا الآن من حديث الحرب، فالحكمة أهم منها وأبقى، وأنا مشتاقة إلى ما سوف يؤلِّفه سيد الحكماء والأطباء، ويُمليه عليَّ.. قال لها ابن سينا إنها ستكون قصة قصيرة ذات طابع رمزي، تحكي رحلة العقل الإنساني من العالم الحسي إلى أفق الحقائق العلوية. سألته: العقل منفردًا، من دون المنطق أو المعارف السابقة أو الشرائع. كيف؟

ـ نعم يا ماهتاب، وسترين الكيفية بعد قليل.

ـ قد ازداد تشوُّقي..

لم يكن «ماهيار» يهتم كثيرًا بالمسائل الفلسفية، فاعتذر منهما وذهب لتجهيز حجرته مع الخادم، انتظارًا لزيارة زوجته التي وعدت أن تأتي مع أبيها، بعد يومين.. أمسكت «ماهتاب» بالقلم، وقام ابن سينا إلى زاوية الغرفة فغسل وجهه ببعض الماء البارد، ومسح على شعره بعدما أزاح عن رأسه العمامة. لحظتها، بدا في عين ماهتاب التي لمعت إعجابًا، على نحوٍ أبهى وأجمل. فالعشقُ مكتشفُ البهاء والجمال. غمست القلم في دواة الحبر وهي تبتسم، ومالت على الأوراق وبقيت ساكنةً حتى حدَّق ابن سينا طويلًا فيما تحت الأرض، ثم أملى عليها ما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم، وما توفيقي إلا بالله وإليه أنيب. وبعد، فإن إصراركم معشر إخواني على اقتصاص وشرح قصة «حي بن يقظان» هزم لُجاجي في الامتناع، وحلَّ عقد عزمي في المماطلة والدفاع، فانقدتُ لمساعدتكم، وبالله التوفيق.

ـ معشر إخوانك.. مَنْ تقصد؟

ـ أنتِ يا ماهتاب، معشرُ إخواني وخيرةُ صحبي. وأنتِ موئل قلبي، ومحط روحي التي احتارت طويلًا حتى استراحت على صدرك.

ـ حديثك حلو، ولكن الناس حين يقرءون كلامك هذا سوف يسألون: كيف كان «معشر الإخوان» يصرُّون ويلحون على الشيخ الرئيس، وهو معتقلٌ في قلعةٍ بعيدة!

ـ لا يهمني ذلك. وعندي يقينٌ في أن ما أكتبه، سوف يبقى بعدي ألف سنةٍ. ولن يعرف الناس بعد ألف عامٍ أنني كنتُ حبيسًا بهذه القلعة حين كتبتُ تلك القصة.

ـ وماذا لو عرفوا يا حكيم؟

ـ لو عرفوا ذلك، سيعرفون أيضًا أنني كتبتُ استجابةً لإلحاح أجمل امرأة في الكون، وأن اسمها هو ماهتاب.. هل نكمل الكلام؟ فقد قلتِ إنكِ متشوقة إليه.

ـ أنا الآن متشوقة أكثر لحضنٍ منك، وسبع قبلات.

ابتسم ابن سينا فقامت ماهتاب وأوصدت عليهما الباب، وألقت ما عليها وتلقَّت القبلات السبع في المواضع السبعة.. وعندما انتصف الليل قالت له بدلالٍ شيرازيٍّ آسر: عدني بألا تبتعد عني، أبدًا. فضحك وهو يقول: إلى أين سأبتعد، أنسيتِ أنني هنا محبوس!

ـ لا تراوغ، أقصد بعد خروجك من هنا.

ـ ومن أين جاءكِ أنني سأخرج من هنا، أو أنني سأتحرَّر يومًا من هذا العشق. دعينا نقوم الآن لنكمل الكتابة، وليكن من شأن الغد ما يكون.

قاما من السرير النحاسي إلى الدِّكَّة الكبيرة، واستعادا الجلسة السابقة وبدأ يُملي عليها ما نصُّه: إنه قد تيسَّر لي، حين مقامي ببلادي «برزة» أن ملتُ برفقائي إلى بعض المتنزهات المكتنفة لتلك البقعة، فبينما نحن نتطاوف، إذ عنَّ لنا شيخٌ بهيٌّ قد أوغل من السِّنِّ وأخنتْ عليه السنونُ، وهو في طراوة العِزِّ، لم يهن منه عَظْمٌ ولا تضعضع له ركن، وما عليه من المشيب إلا رواءُ مَنْ يشيب. فنزعتُ إلى مخاطبته، وانبعثت من ذات نفسي لمداخلته ومجاورته، فملتُ برفقائي إليه..

توقف ابن سينا فجأةً عن الإملاء، وحدَّق في وجه «ماهتاب» المبتسم، وسألها إن كانت تدرك دلالة هذه الرموز وتلك العبارات، فوضعت القلم فوق الدواة وقالت: طبعًا، تشير إلى أن النفس الإنسانية حين هبطت إلى هذا العالم، وبرزت، ارتبطت بالجسم وقواه الحسية فصاروا لها رفقاء. وحين تذهب النفس برفقة هذه القوى إلى نواحي المعرفة والفهم، يعني تشتغل بالعلوم، تلتقي في هذه المتنزهات المعرفية أحيانًا بفيوضات الفكر والعقل والإبداع، التي مهما تقدم بها العمر تظل بهية ومبهجة..

ـ عجيب.. كيف أدركتِ ذلك، بيُسرٍ؟

ـ من قصيدتك العينية في النفس، فأنا أحفظها عن ظهر قلب. لماذا تحدِّق فيَّ هكذا؟

ـ ذكاؤكِ مُحير.. وجمالك.

اليوم التالي مرَّ صباحُه الصحو هادئًا، خاليًا من الأخبار، وليس فيه إلا بعض المعالجات للسجناء والعسكر، وكان «ماهيار» مبتهجًا بما آلت إليه حالة السجناء الصحية من تحسُّن.. وفي الأمسية الرائقة أقبلت «ماهتاب» تامة البهاء، ودخلت على ابن سينا مثلما تأتي الأحلامُ المفرحة إلى نيام محرومين. احتدمت بينهما نيران النوال العشقي، ساعةً أو أكثر قليلًا، ثم أنشدته أبياتًا شعرية قصيرة كانت قد كتبتها خلال النهار.. وبعد ذلك استكملا الإملاء الذي بدأ بالأمس، فكتبت من الكلام ما يلي:

... «فملتُ برفقائي إليه، فلما دنونا منه بدأنا هو بالتحية والسلام، وافترَّ عن لهجةٍ مقبولةٍ. وتنازعنا الحديث حتى أفضى بنا إلى مساءلته عن كُنه أحواله، واستعلام سِنِّه وصناعته، بل اسمه ونسبه وبلده. فقال: أما اسمي ونسبي، فحيُّ بن يقظان. وأما بلدي، فمدينة بيت المقدس. وأما حرفتي، فالسياحة في أقطار العوالم حتى أحطت بها خبرًا. ووجهتي إلى أبي، وهو حي، وقد عطوتُ منه مفاتيح العلوم كلها، فهداني الطريق السالكة إلى نواحي العالم، حتى زويتُ بسياحتي آفاق الأقاليم».

ـ هل تسمح لي يا حبيبي بمقاطعة قصيرة.

ـ أسمحُ يا ماهتاب لكِ بكل ما تريدين. خير؟

برفق، قالت بصوتها الحاني إن عبارة «أبي، وهو حيّ» تعني أن اسمه، حي بن حي بن يقظان! فالتفت ابن سينا إليها وقال وهو يبتسم: يا جوهرة الجمال، هذه كلها رموزٌ تثير الأذهان وتدفعها إلى التفكر والتأمل، وتحتمل ما لا

حصر له من التأويلات. هو «حيّ» اسمًا، وأبو «حيّ» فعلًا، فالحياة هنا اسمٌ مرةً وحالٌ مرةً أخرى. والعبرة من بعد ذلك في النسبة إلى «اليقظة» يعني الإدراك والانتباه من الغفلة، ولا بأس في أن يكون الاسم والرسم الرمزي: حيّ بن حيّ بن حيّ.. إلى ما لا نهاية له.

ـ فهمت، عذرًا على المقاطعة. أكمل يا أحب الحكماء إلى قلبي.

ـ وهل لكِ من الحكماء أحبةٌ غيري.. لماذا هذه المشاغبة؟

ـ لأنني أحب أحيانًا أن أرى حاجبيك يتقوّسان هكذا، مثلما أحب في أحيانٍ أخرى رؤية ابتسامتك. وفي كل الأحيان، أحب مشاغبتك لتنشغل بي.

ـ طيب.. اكتبي.

أملى عليها ما نصُّه: فمازلنا نطارحه المسائل في العلوم ونستفهمه غوامضها، حتى تخلصنا إلى علم الفِرَاسة. فرأيتُ من إصابته فيه ما قضيتُ له آخر العجب، وذلك أنه ابتدأ بما انتهينا إليه من خبرها، فقال: إن الفِراسة لَمِن العلوم التي تُنقد عائدتها نقدًا، فيعلن ما يخفيه كلٌّ من سجيته، فيكون تبسُّطك إليه وتقلُّصك عنه، بحسبه. وإن الفراسة لتدل منك على...

قطع ابن سينا كلامه، عندما لاحظ أن الإملاء أسرع من قدرة ماهتاب على ملاحقته بالكتابة، وظنت هي أنه تريَّث برهةً ليستجمع أفكاره، فنظرت إليه متسائلةً فسألها: هل كتبت كل الكلام؟ دعيني أرى الورقة.. ولما نظر في المكتوب، أخذ القلم وشطب على كلمة «يخفيه» وجعل بدلًا منها «يسرُّه» فصارت العبارة: فيُعلن ما يسرُّه كلٌّ من سجيَّته.. ونظر باستحسانٍ وهو يهمس: نعم، هكذا أفضل.

قبيل قدوم الفجر، كان ابن سينا قد أملى على «ماهتاب» الثلث الأول من القصة، واستعرض فيه بشكلٍ رمزيٍّ كثيف، ارتباط النفس العاقلة بالقوى والحواس الجسمانية المرافقة، والمعوِّقة لها عن الترقي في مراتب المعرفة والفهم. وكيفية ضبط هذه القوى، بحيث تستطيع النفس التخلُّص من تحكُّم المادة والعروج لاستكمال كمالاتها. جاعلًا ذلك على هيئة نصائح سمعها راوي القصة غير المصرَّح باسمه، من الرجل المسمى «حي بن يقظان».. وكان آخر ما أملاه في تلك الليلة، قوله: «فلما وصف لي هؤلاء الرفقة (الحواس) وجدتُ قبولي مبادرًا إلى تصديق ما قرفهم به، فلما استأنفتُ في امتحانهم طريقه المعتبر، صحَّح المختبرُ منهم الخبر عنهم. وأنا في مزاولتهم ومقاساتهم، فتارةً لي اليد عليها، وتارةً لها علي. والله المستعان على حسن مجاورة هذه الرفقة، إلى حين الفُرقة، ثم إني استهديت هذا الشيخ سبيل السياحة»..

***

اليومان التاليان لم يلتق فيهما ابن سينا بماهتاب، فقد جاء من الرستاق شيخه ومعه ابنته؛ زوجة ماهيار، وقريبه المتأنق طويل العنق مثل الكركي. فاحتفى بهم المزدوج واتصلت الجلساتُ صباحًا ومساءً، فانكسفت شمسُ ماهتاب. يومان سخيفان. صبيحة اليوم الثالث ارتحلوا عائدين إلى الرستاق، وفي مستهل الأمسية أقبلت «ماهتاب» مبتهجةً بحُلم رأته أثناء غفوتها أوان الضحى، وحكته لابن سينا: رأيتُ الطريق الممتد من «شيراز» إلى قرى الرستاق، في مشهدٍ واحدٍ كأنني أنظر إليه بعين عصفورٍ يطير عاليًا في السماء، وكانت الطريق مخضرةً ومنثورة كلها

بزهور ملونة طيبة الرائحة، وصل عبيرها الفواح إليَّ وأنا أحلق في الأعالي. ورأيتك جالسًا على تلةٍ وحولك كتبٌ كثيرة وأوراق وأقلام، وكنتُ مرتاحًا ومبتسمًا كأن عالمك يخلو من الهموم. ثم رأيتني أقبل نحوك على بساط الخضرة المليئة بالورود، وفي قلبي طمأنينةٌ، ولما وصلت إليك بسطت لي على الأرض عباءتك ثم ضممتني بها إليك، حتى شعرت بأنني قد صرتُ أنت، وأنت أنا..

ـ حلم جميل..

ـ هل لديك تفسير له؟ أقصد تأويل؟

قال لها إن حلمها لا يحتاج تأويلًا، فكل رموزه واضحة الدلالة. كانت في تلك اللحظة تجلس قبالته، فاقتربت منه وصبَّت له كأسًا من قنينة الشراب، وأعطتها له بيد وبالأخرى لمست ظاهر كفِّه برفق، طالبةً منه أن يفسِّر لها حلمها. كانت عيناها الساحرتان تلمعان ببريق العشق وألق الأنوثة، والاشتياق. قال لها: العوالم التي نعيش فيها يا «ماهتاب» ثلاثة، وليست عالمًا واحدًا. أولها العالم الحسي؛ الذي قوامه الماديات ووسيلة معرفته والتعامل معه هي الحواس الخمس والحسُّ المشترك بينها، وثانيها هو عالم الخيال وقوامه الوهم الحاكم على الحسِّ أحكامًا غير واجبة. كما هو الحال في العشق، إذ يرى العاشق معشوقه هو أجمل إنسان. وبعد ذلك عالم العقل الذي قوامه الاستقراء والمنطق. وهذا الحلم مثله مثل بقية الرؤى والمنامات، من عالم الخيال، لكنه موصول بالعالم الحسي ومنطلق منه. فأنتِ كنتِ أثناء نومك مرتاحة، وغالبًا كان سريركِ معطرًا، أو كانت حجرتكِ فواحة بعبيرٍ عابق.

ـ نعم، هذا صحيح. فقد كنت أمزج عطوري، قبل النوم.

ـ ولهذا رأيتِ ما رأيتِ، وأحسست في حلمك بالعطر. ثم إنكِ تودين لو نبقى دومًا معًا، أليس كذلك؟

ـ طبعًا. أتمنى ذلك، أو بالأحرى أرجوه. فالرجاء للممكن والأماني للمستحيلات، مثلما كان أستاذي «أهارون» يقول. المهم، أخبرني واصدقني القول: هل بقاؤنا معًا ممكن، أم مستحيل؟ يعني: هل تحب أن نتزوج ونقضي بقية العمر معًا؟

ـ أين؟ أنا حبيس..

ـ سوف تخرج من هنا قريبًا، ويمكنك العيش معي في الرستاق حتى تهدأ الأحوال. وبعد ذلك نعود معًا إلى «شيراز» فهي المدينة الوحيدة التي تليق بك، وتسعد بإقامتك فيها.

ـ هذا حلمٌ نواله بعيدٌ. لأن موعد خروجي غير معلوم، والأحوال تتقلَّب بسرعة، ولن تهدأ في النواحي المحيطة قبل زمن طويل، وليس من المناسب الآن أن نحلم بها..

جاءت جلبةٌ من جهة الساحة، فأسدلت «ماهتاب» على رأسها ستر العباءة السوداء وضمَّت إليها طرفيها، وتهيأت لمجيء القادمين. كان «المزدوج» ومعه بعض أعوانه الذين صرفهم من عند الباب، ودخل حجرة ابن سينا فألقى السلام عليهما وسأل عن «ماهيار» فقامت «ماهتاب» وهي تقول: هو مع زوجته، سأناديه حالًا.. ذهبت، وجاء أخوها على عجل بعدما كان المزدوج قد همس لابن سينا بأن الرسالتين وصلتا إلى الأميرين، وكان لهما فعلًا سريعًا. فالأمير ابن الكاكويه يستعد الليلة للعودة بجيشه إلى أصفهان، صباح غدٍ أو بعد غد، والأمير «سماء الدولة» والقائد «تاج الملك» سيأتيان إلى هنا غدًا بجيشهما الذي كان متواريًا بمرتفعات الشمال، فيعسكران في الوادي المطلة

عليه «فردقان» استعدادًا للعودة إلى «همذان» فور انصراف ابن الكاكويه عنها. كان المزدوج يلهث وهو يقصُّ الأخبار، وعلى وجهه علامات دهشةٍ وقلق وانبهار، وعندما دخل عليهما «ماهيار» قال له: حدثت أمورٌ كثيرة وسوف تتلاحق في الغد، ولا ندري إلى أي حالٍ سوف تنتهي. والمكان يا بني لم يعد مناسبًا لوجودك أنت ومن معك، ولا بد لكم من أن تحزموا الليلة متاعكم وتعودوا فجرًا إلى الرستاق، حتى تتضح الأمور، ونرى ما سوف يكون.. وسوف أرسل معكم خمسةً من العساكر لتأمين وصولكم بسلامٍ إلى الرستاق.

ـ هل نشبت الحربُ يا سيد منصور؟

ـ لا يا ماهيار، ولن تنشب بإذن الله. لكن جيش همذان في طريقه إلى هنا، وسوف يصل ظهر غدٍ ويعسكر إلى حين.

ـ لا بد أن نرحل إذن..

ـ نعم، وقد أرسلت فارسًا إلى شيخ الرستاق قبل قليل، أطلب أشياء: خرافًا وفواكه وخضراوات. فقل له أن يعجل بإرسالها، فاستضافة هؤلاء القادمين ستكون مجهدة، والله المعين. وأنت يا حكيم استعد، فقد قال «تاج الملك» في رسالته إنه يريد أن يراك غدًا، وأضاف إنه سوف يحتاجك بقربه في الفترة المقبلة.. وأظنه سيأخذك معه.

قام المزدوج إلى الساحة الأمامية لمتابعة الأمور، ومن بعده ذهب ماهيار إلى دولت كوجك لإخبار من معه بضرورة حزم أغراضهم استعدادًا للرحيل.. وبقي ابن سينا في حجرته واجمًا، يتفكر في تصاريف القَدَر، وفيما سوف يسفر عنه الغد.

بعد سويعة عاد «ماهيار» وخلفه أخته، فأخبر بأن الخدم يعدون العدة للمغادرة، وسألت «ماهتاب» ابن سينا إن كان بمقدورهما استكمال كتابة قصة «حي بن يقظان».. كان وجهها جامدًا يعلوه شحوب وحزن عميق، وفي عينيها تسكن الحسرات. أجابها بصوت خافت بعد أن أومأ برأسه مرتين، بأن ذلك ممكن ولن يحتاج وقتًا طويلًا، فالقصة حاضرة في ذهنه ومكتملة. جلست ساكنة أمام الأوراق، ومكلومة، فأملى عليها ما يلي:

«ثم إني استهديتُ هذا الشيخ سبيل السياحة، استهداءَ حريصٍ عليها مشوقٍ إليها، فقال: إنك ومَنْ هو بسبيلك، عن مثل سياحتي لمصدود. وسبيل ذلك عليك وعليه لمسدود. أو يسعدك التفرُّد، وله موعدٌ مضروبٌ لن تسبقه. فاقنع بسياحةٍ مدخولةٍ بإقامة، تسيح حينًا وتخالط هؤلاء حينًا، فمتى تجرَّدتَ للسياحة بكُنه نشاطك، وافقتُك، وقطعتَهم. وإذا حننت نحوهم، انقلبت إليهم وقطعتني، حتى يأتي لك أن تتولى براءتك منهم».. لم يستطع ماهيار معهما صبرًا، فسأل بعدما تأرجحت عيناه بنظرة اندهاشٍ بين أخته وابن سينا:

ـ هل هذا الكلام عربي، أم تلك لغة أخرى! فأنا لا أفهم من الكلمات أيَّ شيء..

ـ هي كلمات رمزية تتحدث عن رحلة العقل إلى عالم المعقولات العلوية والمعارف، عند تحرُّره جزئيًّا من سيطرة الحواس والماديات، والتحرر التام هو الموت.

ـ شكرًا للإيضاح يا سيدي، ولكن اسمح لي: من الذي يتحدث، ولمن؟

ـ العقل الجزئي الذي في الإنسان، يتحدث ويتحاور مع «العقل الفعال في الإنسانية» الذي هو عقل ما تحت فلك القمر، وهو أقرب العقول العشرة العلوية إلى عالمنا الأرضي، وهو الذي يمنح عقولنا الفهم حين نتلقَّى

فيوضاته.

ـ كيف يا سيدي؟

قالت «ماهتاب» لأخيها بصبر نافذ: كفاك مقاطعة لنا يا «ماهيار» وتبديدًا للوقت، لو سمحت، فلابد من الانتهاء الليلة من هذه الرسالة القصصية.. سكت ماهيار، وعاد ابن سينا للإملاء حتى وصل بالقصة إلى حيث يشير «حي بن يقظان» للعقول العلوية ومبدئها الأول، بقوله: «وأدناهم من الملك واحدٌ، هو أبوهم وهم أولاده وحفدته، وعنه يصدر إليهم خطاب المَلك ومرسومه. ومن غرائب أحوالهم، أن طبائعهم لا تستعجل بهم إلى الشيب والهِرم. وأن الوالد منهم، وإن كان أقدم مدةً، فهو أسبعُ منةً، وأشد بهجةً. وكلهم مسخرون، وقد كُفوا الاكتفاء. والملك أبعدهم في ذلك مذهبًا، ومن عزاه إلى عرقٍ فقد زلَّ، ومن ضمن الوفاء بمدحه فقد هذى. قد فات قَدْرُ الوصَّاف عن وصفه، وحادتْ عن سبيله الأمثالُ».

.. وانتهت قصة «حي بن يقظان» بقول ابن سينا: وإن هذا المَلِك لَمُطلعٌ على ذويه بهاءه، ولا يضنُّ عليهم بلقائه، وإنما يؤتون من دنوٍّ قواهم دون ملاحظته. وإنه لسمحٌ فياضٌ، واسعُ البرِّ، غَمرُ النائل، رحب الفناء، عامُّ العطاء. من شاهد أثرًا من جماله وقف عليه لحظةً لا يلفته عنه غمزة. ولربما هاجر إليه أفراد من الناس، فيتلقَّاهم من فواضله، ما يتوِّبهم ويُشعرهم احتقار متاع إقليمكم هذا. وإذا انقبلوا من عنده، انقلبوا وهم مُكرهون. قال الشيخ «حي بن يقظان»: لولا تقرُّبي إليه بمخاطبتك، مُنبِّهًا إياك، لكان لي به شاغلٌ عنك. وإن شئت، اتَّبعني إليه. والسلام.

***

فور اختتام القصة وانتهاء الإملاء، جمعت «ماهتاب» ما كتبته من الأوراق وصفَّت الأقلام وأغلقت المحبرة، ثم قالت لابن سينا بنبرةٍ خافتةٍ من دون أن تنظر إليه: حسنًا، وإن كان الجزء الأخير شديد الغموض وملغز، ويلتبس فيه المراد من رمز الملك. فلا يظهر إن كان المقصود به الخالق، مبدع الكل حسبا تسميه، أو هو العقل الفعال في الإنسانية. ولكن لا بأس، لعلك تشرح لاحقًا هذه القصة، أو يأتي بعدك من يشرحها ويكشف رموزها.. هيا يا «ماهيار» لنرى ما حزمه الخدم من أغراضنا، فسوف نرحل مبكرًا.

كانت حزينة.

وهي تفارقه مطأطئة الرأس، أخبرتْ «ماهتاب» ابن سينا بأنها فور وصولها غدًا للرستاق، سوف تنسخ من هذا النص نسخًا كثيرة وترسل بها إلى «شيراز» وغيرها من البلدان، فلا يضيع عمله ويُفقد مثل كتبه الثلاثة الأولى في بخارى. قالت ذلك من غير أن تلتفت نحوه، فردَّ عليها بوقارٍ يراعي وجود أخيها: هذا شيءٌ جيد، شكرًا لكِ.

لم ينم ابن سينا بقية ليلته، وبقي مسهَّدًا حتى أطلت الشمسُ الحمراء فأخذه الوسن لحيظاتٍ متقطعة، بعدما أخذته خيالات الأفكار ومتفرقات الاحتمالات، إلى نواحٍ متباعدة: ماذا يريد «تاج الملك» مني، وما المقصود بقوله إنه سيحتاجني في الفترة المقبلة؟ هو يريد أن يمد الجسور بينه وبين ابن الكاكويه، وسوف يستعملني في ذلك.. لماذا لا يطلق سراحي، ويتركني حرًّا فأذهب إلى أصفهان أو إلى الري، فأقضي ما بقي من عمري في سلام، وانتهى من المؤلفات التي بدأت فيها. لماذا؟ ولماذا لا أطلب من «ماهتاب» أن تبقى بقربي، وأتزوَّجها؟ هي أذكى وأجمل وأرق امرأة في الوجود.. لكنني لن أستطيع العيش معها في الرستاق، حيث لا مجالس علمٍ ولا تلامذة ولا تأليف.. وكيف سأتدبر هناك المال للنفقة، أم سأرضى لنفسي أن تنفق هي عليَّ، وهذا هوانٌ لا يقبله إلا حقراء الرجال.. وبعد صُحبة الملوك، هل يصح لي العيش في قرية نائية! وجواسيس «الغزنوي» يجوسون خلال الديار، ولن أستأمن هناك من أفعاله الوضيعة. فإذا عرف بموضعي القروي غير الآمن هذا، فسوف يدسُّ عليَّ مَنْ يغتالني كي يتشفَّى. لست خائفًا من الموت، لكنني أريد إتمام الكتابين: الشفاء، والقانون.. وأريد البقاء مع ماهتاب.. لماذا لا تأتي هي معي؟ هذه الغضوب، الساحرة، المحبة، المريحة. سأرى ما سوف يكون غدًا من أمري مع «تاج الملك» ثم أرى ما يناسب حالي معها.. لن يناسبها غير الزواج، وهذا في زمننا المضطرب أمر خطير، وهي بالطبع سوف تريد الإنجاب. وهذا أخطر. ماهتاب متنعِّمة، ولن تحتمل تقلبات حياتك الحافلة بالتقلُّبات، والاضطرار، ونقيع المرار.. ما القرار الصائب يا حسين؟ يجب أن تغامر وليكن ما يكون. ويجب أن تستقر بموضع آمن، حتى تُنهي كتابة ما يضغط على دماغك من مؤلفات.. سبق أن خسرت «سندس» وضاعت منك «روان» فلا تفقد «ماهتاب».. هي سوف تنتظرني حتى تستقر الأمور وتنحسم الأحوال، وقد لا تنتظر. هي كالفرس الجامحة، المعتزَّة بذاتها، ولها الحق في ذلك، فهي نادرة المثال حقًّا.. ها هو ضوء الفجر يتسلل إليَّ من تحت الباب، ومن فُرج النافذتين، لا بد أن أغفو قليلًا فأمامي يوم طويل، حاسم.. مسكين أبو سهل المسيحي، وأنا مسكين، وماهتاب، وكل الناس.. الإنسانُ مسكينٌ..

انتبه ابن سينا من نومته وهو جالس، في تلك اللحظة المجهدة ما بين الصبح والضحى، فانتفض واقفًا وشدَّ على رأسه عمامته التي تهدَّلت ومسح وجهه بحفنة ماءٍ وخرج.. الأصوات الآتية من «دولت كوجك» تدل على اقتراب موعد المفارقة. الباب الجانبي الصغير مفتوح. وقف ابن سينا على عتبة الباب فرأى «المزدوج» ومعاونيه يستعجلون الخدم كي يسرعوا، فقد أخبره المراقبُ الذي ببرج القلعة، بأنه رأى غبار الجيش الهمذاني آتيًا من بعيد، ومن المتوقع وصوله إلى هنا بعد ساعة.. أغراض ماهتاب وأخيها وزوجته، وخدمهم، على ظهور خمسة حمير. وثلاثة من البغال،

تنتظر ركوبهم لتذهب بهم.. رفع «ماهيار» زوجته حتى استوت على ظهر بغلتها، وجاء نحو «ابن سينا» مسلِّمًا ومن خلفه ماهتاب. قال له: أراك على خيرٍ يا سيدي.. وقالت له: وداعًا.

ـ تصحبك السلامة يا ماهتاب، وسوف نلتقى بإذن الله قريبًا.

ـ أتمنى ذلك يا فيلسوف، وأشكُّ فيه.

ارتحلوا، وانسحبت منه روحه رويدًا، فظل ابن سينا واقفًا بموضعه ينظر إلى ظهورهم. وحين التفتت نحوه «ماهتاب» بوجهها المتشح بالشحوب، غاصت في قلبه نظرتها التي كانت كأنها تدرك بأسى، كلَّ ما سيأتي:

سوف يلتقي بتاج الملك عصرًا، ويرحل معه إلى همذان، ويتجرع مرارة الستة عشر عامًا الأخيرة من حياته البائسة.. ومات ابن سينا وحيدًا، وخلد للأبد، وخسر في سبيل الخلود أعز أمانيه.

أولًا: الكتب المؤلَّفة

١ ـ عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية (تأليف). الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب).
٢ ـ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي (تأليف). دار مدارك (دبي).
٣ ـ شعراء الصوفية المجهولون (تأليف). دار مدارك (دبي).
٤ ـ الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر (تأليف). دار مدارك (دبي).
٥ ـ عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب (تأليف). دار الجيل (بيروت).
٦ ـ التُّرَاث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات (تأليف). دار الأمين (القاهرة).
٧ ـ التقاء البحرين «نصوص نقدية». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٨ ـ ابن النفيس، إعادة اكتشاف (تأليف). دار الشروق (القاهرة).
٩ ـ حَيّ بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها. دار مدارك (دبي).
١٠ ـ التصوف (تأليف). دار نهضة مصر، (القاهرة)
١١ ـ المخطوطات الألفية (تأليف). دار ن للنشر (القاهرة).
١٢ ـ ظل الأفعى (رواية). دار الشروق (القاهرة).
١٣ ـ كَلِمات: التقاط الألماس من كلام الناس (تأليف). دار نهضة مصر (القاهرة).
١٤ ـ عزازيل (رواية) دار الشروق، (القاهرة).
١٥ ـ اللاهوت العربي وأصول العنف الديني (تأليف). دار الشروق (القاهرة).
١٦ ـ النبطي (رواية). دار الشروق (القاهرة).
١٧ ـ محال (رواية). دار الشروق (القاهرة).
١٨ ـ متاهات الوهم (تأليف). دار الشروق (القاهرة).
١٩ ـ دوامات التديُّن (تأليف). دار الشروق (القاهرة).
٢٠ ـ فقه الثورة (تأليف). دار الشروق (القاهرة).
٢١ ـ جونتنامو (رواية). دار الشروق (القاهرة).
٢٢ ـ فقه الحب (تأليف). دار الرواق (القاهرة).
٢٣ ـ فقه العشق (تأليف). دار الرواق (القاهرة).
٢٤ ـ شجون مصرية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٥ ـ شجون عربية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٦ ـ شجون تراثية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٧ ـ شجون فكرية. دار ن للنشر (القاهرة).
٢٨ ـ نور (رواية). دار الشروق (القاهرة).
٢٩ ـ حل وترحال (مجموعة قصصية).
٣٠ ـ فوات الحيوات (مجموعة قصصية).
٣١ ـ أهل الحي (مجموعة قصصية). دار الشروق (القاهرة).
٣٢ ـ غربة عرب (مجموعة قصصية). دار الشروق (القاهرة).

ثانيًا: بحوث ودراسات

١ ـ المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمن السلمي (تقديم وتحقيق). دار مدارك (دبي).
٢ ـ شرح فصول أبقراط لابن النفيس (دراسة وتحقيق). الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).
٣ ـ ديوان عبد القادر الجيلاني (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر (القاهرة).
٤ ـ ديوان عفيف الدين التلمساني (دراسة وتحقيق). دار الشروق (القاهرة).
٥ ـ قصيدة النادرات العينية للجيلي مع شرح النابلسي (دراسة وتحقيق). دار الجيل (بيروت).
٦ ـ رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر (القاهرة).

٧ ـ المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).
٨ ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر (القاهرة).
٩ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق). دار ن للنشر (القاهرة).
١٠ ـ فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى (دراسة وتحقيق). دار سعاد الصباح (القاهرة).
١١ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الأول). معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٢ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الثاني). معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٣ ـ نوادر مخطوطات بلدية الإسكندرية (كتالوج مصوَّر). برنامج الأمم المتحدة للتنمية (مكتبة الإسكندرية).
١٤ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الأول). معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٥ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الثاني). معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٦ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوي (الجزء الثالث). معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
١٧ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (المخطوطات العلمية). (مكتبة الإسكندرية).
١٨ ـ بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية (كتالوج مصوَّر). (مكتبة الإسكندرية).
١٩ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي (التصوف، التفسير، السيرة، الحديث). (مكتبة الإسكندرية).
٢٠ ـ المتواليات «دراسات في التصوف». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٢١ ـ المتواليات (فصول في المتصل التُّرَاثي المعاصر). الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).
٢٢ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التصوف وملحقاته». (مكتبة الإسكندرية).
٢٣ ـ فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور. مؤسسة الفرقان (لندن).
٢٤ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التاريخ والجغرافيا». (مكتبة الإسكندرية).
٢٥ ـ فهرس مخطوطات شبين الكوم. مؤسسة الفرقان (لندن).
٢٦ ـ فهرس مخطوطات المعهد الديني بسموحة. (مكتبة الإسكندرية).
٢٧ ـ فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي «أصول الفقه وفروعه». (مكتبة الإسكندرية).
٢٨ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المنطق». (مكتبة الإسكندرية).
٢٩ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «الحديث الشريف». (مكتبة الإسكندرية).
٣٠ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا. معهد المخطوطات العربية (القاهرة).
٣١ ـ فهرس مخطوطات دير الإسكوريال. (مكتبة الإسكندرية).
٣٢ ـ ماهية الأثر الذي في وجه القمر، لابن الهيثم (دراسة وتحقيق). (مكتبة الإسكندرية).
٣٣ ـ مقالة في النقرس، للرازي (دراسة وتحقيق). (مكتبة الإسكندرية).
٣٤ ـ مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية. (مكتبة الإسكندرية).
٣٥ ـ الشامل في الصناعة الطبية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق). ثلاثون جزءًا. المجمع الثقافي (أبو ظبي).
٣٦ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الألفية (تقديم وتحرير). (مكتبة الإسكندرية).
٣٧ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الموقَّعة (تقديم وتحرير). (مكتبة الإسكندرية).
٣٨ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الشارحة (تقديم وتحرير) (مكتبة الإسكندرية).
٣٩ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المترجمة (تقديم وتحرير). (مكتبة الإسكندرية).
٤٠ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المطوية (تقديم وتحرير). (مكتبة الإسكندرية).

Table of Contents